محمد التابعى

من أسرار السّاسة والسّياسة

أحمد حسنين باشا

حياته الخاصّة والعامّة

تقديم

محمد حسنين هيكل

دار الشروق

من أسـرار السّـاسة والسّياسة

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع ٢٠٠٨/٣٤٣٧
ISBN 978-977-09-2320-5

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

محمد التابعي

من أسرار السّاسة والسّياسة

أحمد حسنين باشا

حياته الخاصّة والعامّة

تقديم

محمد حسنين هيكل

دار الشروق

المحتويات

تقـديــم

بقلم

محمد حسنين هيكل

هذه السطور ليست بالمعنى التقليدى مقدمة لطبعة جديدة لواحد من كتب الأستاذ «محمد التابعى»، وإنما هذه السطور ومن القلب تقديم اعتذار له عن درجة من النسيان لاسمه وقيمته لحقت ذاكرة أجيال جديدة من القراء، بغير ذنب عليهم، لأن المسئولية فيه واقعة بالحق على ناحيتين :

- أطراف ظلمت الرجل من جهة .

- وعوائد ترسبت بعموم على جهة أخرى .

* من ظلم الأطراف مثلا أن بعض تلاميذ المدرسة الصحفية للأستاذ التابعى ولأسبابهم، آثروا السكوت عن دوره أو القفز عليه .

ومن ظلم الأطراف أيضا أن كثيرين أخذوا عما كتب التابعى دون أن ينسبوا له، رغبة فى إظهار أمرهم، والنتيجة إخفاء أمره .

* أما العوائد التى ترسبت فأولها ظاهرة لها سوابق فى تاريخنا، خصوصا أزمنة الفراعنة والمماليك، ومن هذه العوائد أن كل نجم طالع فى أى مجال يريد نسبا موصولا بالشمس، يستكبر أن يكون ابنا شرعيا لأب، وإنما يطلب أن يكون مولودا بذاته ولذاته بداية ونهاية .

ومع مثل تلك النوازع يتبدى تعاقب الأجيال صفحات باهتة، أو صفحات

ممزقة، أو صفحات مزوقة، وعليه لا يصبح التعاقب تاريخا موصولا ومتواصلا، وإنما يصبح غرضا وهوى، أخطره هوى السلاطين قريبا وبعيدا.

سلاطين القرب: يبغون محو أثر، وقطع ذكر لمن سبق، كي يبقى زمانهم وحيدا.

وسلاطين البُعد: يهاجمون ذاكرة ويبعثرون ترتيبا، كي يضيع الزمان كله من أصحابه ومعه وعيهم، وهو مكمن إرادتهم!

* * *

وقلت إننى لا أقدم كتابا للأستاذ «التابعى»، وإنما أتقدم إليه باعتذار، وذلك بالفعل شعورى إزاء رجل أعتبره من أساتذتى الكبار، وأستاذا لكثيرين غيرى من نفس الجيل الذى خطا إلى عالم الصحافة العربية أعقاب الحرب العالمية الثانية وبالتحديد مع مطالع الأربعينيات من القرن العشرين.

وقد كان من حسن حظى أننى عملت مع «التابعى» وهو وقتها صاحب ورئيس تحرير مجلة «آخر ساعة» أيام عزها قادما إليه من جريدة «الإجيبشيان جازيت» بتوصية من رئيس تحريرها فى ذلك الوقت «هارولد إيرل»، وأظننى ولعل ذلك كان رأيه أيضا كنت آخر قائمة طويلة من الشباب (وقتها) تتلمذوا عليه.

ويُقال عن رجل إنه صاحب مدرسة فى علمه أو فنه إذا وصل تأثيره فى مجاله إلى درجة يختلف بها ما بعده عما قبله، بمعنى أنه إذا حذف دوره من المجرى العام للتطور، انقطع الخط على فجوة واسعة.

وذلك نموذجى فى حالة «التابعى»، فقد اختلف مجال الكتابة الصحفية بعده عما كان قبله، وفى هذا الاختلاف بين السابق واللاحق يتبدى حجم تأثيره، مثله فى ذلك مثل غيره من مستواه فى مسيرة أى علم أو فن.

ولكى أكون واضحا ومنصفا، فليس المقصود أن الكتابة الصحفية قبل «التابعى» كانت أقل وزنا أو أدنى قيمة، فذلك بعيد عن القصد لأنه كان هناك قبل وغير «التابعى» كُتَّاب لهم شأن ومقام، لكن «التابعى» أضاف شيئا آخر إذ صاغ أسلوبا مختلفا فى التناول الصحفي، وهذا الاختلاف الذى أحدثه «التابعى» هو نعومة الكلمة، وانسياب الكلام.

أى أن هناك إضافتين تُحسبان لـ «التابعي» : إحداهما فى اللفظ، والثانية فى السياق .

* وبالنسبة للإضافة الأولى : فإنه يبدو وكأن الألفاظ كانت على نحو ما فى حالة عشق مع قلم محمد التابعي، فما إن يضع سن القلم على صفحة الورق حتى تذوب المعانى والصور لينة سائلة على السطور .

* وبالنسبة للسياق : فإن أى قارئ لكتابات التابعى سوف تنكشف له قاعدة سمعته يكررها علينا كثيرا، مؤداها : أن القصة فى التفاصيل .

وملخص هاتين الإضافتين:

الأولى : أن اللفظ الصحفى فى عرض خبر أو قصة إخبارية لا بد له أن يكون رفيقا رقيقا مع قارئ لا يجلس على مقاعد الدرس والتحصيل يستعد لامتحان آخر السنة وإنما هو قارئ يمسك الجريدة وسط مشاغله، وهدفه أن يعرف ما يريده فيما يجرى حوله ليزيد اطلاعه على ما يهمه ويعنيه بينما هو يمارس حياة كل يوم، وإذن فهو ليس طالبا فى نظام تعليمى مع منهج مقرر ومفروض، وإنما قارئ يختار لنفسه وبرغبته وشهيته!

والإضافة الثانية : أنه إذا كانت القصة فى التفاصيل، فإن أهم لوازم أى قصة أن تستوفى حقها بزيادة البحث فى وقائعها، وبالاقتراب أكثر من ناسها وأهلها، والاهتمام بدوافعهم ومشاعرهم، وتلك ترجمة صحفية للقول المأثور بأن كل قصة فى دنيا الأدب هى فى المحصلة النهائية حكاية رجل وامرأة، وربما دخول طرف ثالث بينهما أى امرأة أخرى أو رجل آخر، لكن الفارق بين قصة وأخرى فى الأدب وفى الصحافة أيضا هو التفاصيل ونبضها بالحياة وبالإنسانية، وتدفقها مع الرواية الواصلة بالتحقيق إلى أدق التفاصيل .

* * *

ولقد حاولت وحاولنا جميعا جيلا بأكمله أن نتعلم من «التابعى»، وقلت إننى كنت أسعدهم حظهم، ربما لأنى كما أسلفت آخر من تتلمذ على يديه، والسبب

غالبا أننى وصلت إلى صحبته قرب آخر النهار، فى مرحلة من الحياة لها خواصها مع الناس وفى الطبيعة، وهى مرحلة ما بين الأصيل والغروب.

وعندما حضرت الأصيل فى حياة «محمد التابعى» فقد لفتنى الوهج المهنى والسياسى والاجتماعى المحيط بجوانبها، وكان ذلك حظي.

ثم كان لسوء الحظ أننى حضرت نزول الغروب أيضا حين قرر «محمد التابعى» أن يبيع «آخر ساعة» إلى دار «أخبار اليوم»، وأصحابها الأستاذان «مصطفى» و«على» أمين، وكان البيع لنفس الأسباب التى ضاعت بها من قبل حصة «التابعى» فى جريدة «المصرى»، وقد باعها إلى شريكيه فى إنشائها، وهما الأستاذان «محمود أبو الفتح» و«كريم ثابت».

كان السبب فى الحالتين أن الرجل فنان لا يعرف قواعد الحساب أو يتجاهلها، بظن أن مواهبه فوقها، وكذلك راحت أعباؤه تزيد عن طاقته، أو بمعنى أكثر صراحة راحت ديونه تضغط على دخله بشدة تزداد وطأتها كل يوم، لكنه طول الوقت يرفض النظر إلى العواقب فى عينيها كما يقولون.

وفى الحقيقة فقد كانت هناك علاقة بين التوهج والغروب، وهى علاقة مرئية بوضوح سواء فى الطبيعة أو فى الناس فهى فى الطبيعة سابق ولاحق، وهى فى حياة الناس سبب ونتيجة.

وفى حياة «التابعى» بالذات فقد كان التوهج الاجتماعى والرغبة فى الحفاظ عليه خصوصا مع تقدم السن وتباين الظروف معاناة باهظة.

وبمقدار ما حاولت وحاول غيرى فى مرحلة الغروب أن نعبر للرجل عن عرفاننا بفضله فإن نور الحياة انطفأ عن «محمد التابعى» رجلا ثقيلة همومه، كسيرا قلبه، جريحة كبرياؤه، برغم أنه مَلَكَ فى لحظات الأزمة شجاعةً، أن لا يرمى المسئولية على غيره، بل يلوم نفسه، وأحيانا بمرارة كما تكشف أوراقه.

* * *

لعل صفحات هذا الكتاب صورا من أحوال التوهج الاجتماعى للأستاذ «التابعى»، وفى نفس الوقت شهادة على التكاليف الباهظة لذلك التوهج، ومع أن

موضوع هذا الكتاب ملامح من القصة الحقيقية للملك «فاروق»، ومأساته التى جعلت منه كما قلت وكررت دائما من ضحايا التاريخ، قبل أن يكون من مذنبيه فإن نفس الصفحات تظهر لمحات من حياة «محمد التابعى»، وكذلك أيضا مأساته، وهى تكشف دون قصد عقدة معروفة ومرصودة فى قصة صعود الصحافة إلى استحقاق الإمارة، وما هو أكثر بأوصاف مثل «صاحبة الجلالة»!

وفى مجتمعات سبقت إلى التقدم فى أوروبا وأمريكا، ومع صحافة استحقت الإمارة، فقد وصل رجال مثل «هيرست» و«ليبمان» و«ثور كليف» و«بوف ميرى» إلى مخالطة القوة والثروة والسلطة، ومن درجة التكافؤ والتساوي، ولم تتعقد الأمور لأن المواقع كانت أكثر جلاءً، وبالتالى أكثر توازنا.

لكن المشكلة فى الصحافة العربية أن الأستاذ «محمد التابعى» كان ظاهرة مستجدة على العلاقة بين الصحفى والأمير ولذلك كان احتمال الخلط واردا.

فقد كتب التابعى عن الملك «فاروق»، وعن الملكة «نازلى»، وعن «أحمد حسنين»، وعن غيرهم من موقع المعايشة، وفى بعض المشاهد فإنه هو نفسه كان جزءاً من الصورة.

وكان المأزق فى تجربة «التابعى» أنه وهو يعايش الأمراء، تصور أن يجارى الأمراء بظن أنه ليس أقل منهم، ولم يكن بالفعل أقل منهم، بل لعله كان أفضل فهو أمير بالقيمة، والآخرون ودون تعميم أمراء بالألقاب، لكن التعامل مع هذا الوضع يقتضى حدودا واضحة، وانضباطا لا تساهل فيه، ومراعاة للحدود بين المظهر والجوهر.

* * *

وأخيرا فلعل حياة «التابعى» نفسها قصة تستحق أن تُروى بالتفاصيل فى كتاب أو كُتب.

وهى قصة أخاذة مشوقة فى فصولها ووقائعها ومشاهدها.

إضافة إلى ذلك فلعلها قصة مليئة بالدروس المهنية والتاريخية والإنسانية قبل الاثنين.

مقـدمـة

الأمانة الصحفية .. وسـر المهنـة

اقترح علي كثيرون من الأصدقاء أن أكتب مذكراتي . . عن الساسة والزعماء والنساء والرجال الذين عرفتهم في حياتي . . وعن الحوادث والأزمات . . إلى آخره . .

ورفضت . وكانت حجتي أنني لم أدون مذكراتي إلا في فترات متقطعة . . متباعدة . . فالتسلسل مفقود والسياق مضطرب والدقة في الرواية غير مأمونة أو مضمونة .

ثم شيء آخر وهو الأهم عندي . . من الذي يستطيع دائما أن يقول الحق . كل الحق ولا شيء غير الحق؟ . .

وإذا نشرت مذكراتي فهل أقول فيها كل ما أعرف . وكل ما سمعت . وكل ما رأيت . . وبين الذين سوف تتناولهم هذه المذكرات أشخاص قد انتقلوا إلى رحمة الله . ونحن اليوم نحيطهم بهالة من الإجلال والإكبار؟

وبينهم من لا يزال على قيد الحياة ومن هو معدود من الأعلام والصفوة الممتازة في هذا البلد . . هل أقول كل ما أعرف عن هؤلاء وهؤلاء؟

هل أروي مثلا حديث الزعيم فلان عن الزعيم فلان . . وهو حديث مملوء غيرة وحقدا؟ . . وهل أروي مثلا وأصف صور الضعف والاستهتار . . صور الخنوع والذل والاستمساك بالحكم بأي ثمن؟ . . وصور الطمع والجشع . . والنفاق وعدم الوفاء . . وقصص الخلاعة والمجون وأبطالها زعماء وساسة مبرزون؟ . .

* * *

ثم مسألة أخرى . . ما هو الحد الفاصل بين ما يجوز نشره وما لا يجوز نشره؟ والأمانة الصحفية وسر المهنة؟ . . ما هي حدود هذه الأمانة وهذه السرية؟ . .

لقد اشتغلت بالصحافة ثلاثين عاما . وعرفت فيها عشرات وعشرات من الزعماء والساسة وربطتني ببعضهم أواصر الصداقة والثقة . وبوحي هذه الصداقة والثقة أفضى إليّ بعضهم بأسرار كثيرة . . وكشف أمامي بعضهم عن مكنون صدره بل وعن خفايا ضعفه . . فهل أروي اليوم كل ما سمعت أو بعض ما سمعت؟

ورواية الكل قد تنفع المجموع . . وتؤذي الفرد . . ورواية البعض قد لا تفيد المجموع ولا تؤذي الفرد، أي الزعيم المروي عنه . . وإذن ما الفائدة وما الغاية من نشر رواية ناقصة أو مبتورة؟

وفي نشر الرواية كلها فضيحة أو خيانة للأمانة .

وفي خلال هذه الثلاثين عاما التي اشتغلت فيها بالصحافة قابلت كثيرين من الساسة وقادة الرأي العام في مصر وفي بلاد غير مصر . بل وقابلت رؤساء دول ورؤساء حكومات . وكثيرا ما تحدث إلي الواحد منهم وأطال الحديث ثم قال :

ـ تستطيع أن تنشر كذا وكذا . . ولكن لا تنشر كيت وكيت .

وبعض هذه الأحاديث قد مر عليها عشر سنوات أو عشرون سنة . . وأتساءل اليوم : هل «حظر النشر» لا يزال قائما؟

هل «سرية المهنة» سرية مطلقة مؤبدة . . أو موقوتة بفترة من الزمن؟ وما طول هذه الفترة؟ هل تكفي مثلا العشرة أعوام أو العشرون عاما لكي تحل الصحفي من وعده بعدم النشر؟ أي هل أستطيع أن أنشر اليوم ما وعدت منذ عشرين عاما بعدم نشره؟

هل أستطيع أن أنشره دون أن يتهمني أحد بخيانة الأمانة والخروج عن مبدأ سرية المهنة وهو المبدأ الذي تقدسه الصحافة ويحترمه الصحفيون؟

* * *

ثم اعتراض رابع أو خامس : هل يستطيع الصحفي أن يقدم دائما واجب المهنة على كل اعتبار؟ هل يستطيع أن يذكر دائما أنه صحفي . . وينسى دائمًا أنه إنسان؟

لقد قابلت مثلا ملك الأفغان الأسبق الملك أمان الله . . قابلته مرتين . . فى سويسرا فى مدينتى مونتريه وزيوريخ . . وكان أمان الله فى المقابلتين رجلا كسير الخاطر محطم الآمال . . كان يمشى تحت وابل المطر . . يتسكع ـ كما قال هو نفسه ـ ليقتل الوقت .

وكتبت عنه فى المرتين ورويت الحديث الذى دار بيننا . . إلا جزءا منه . . إلا جزءا خاصا بزوجته السابقة الملكة ثريا . . لقد أبقيته حتى اليوم فى صدرى . هذا الجزء من حديث الرجل الكسير الخاطر المحطم الآمال . . كتمته ولم أنشره لأننى لم أستطع أن أنسى أننى ـ قبل أن أكون صحفيا ـ أننى إنسان .

* * *

وفاروق الطاغية . . فاروق هذا نفسه لا أستطيع أن أكتب وأروى عنه كل ما أعرف لأننى . . إنسان .

لقد قاومت طغيانه وحاربته قدر ما استطعت . . وهو ملك وحاكم بأمره فكتبت مثلا مقالا عنوانه : «يحيا الظلم» فى آخر ساعة عدد ١١ أكتوبر سنة ١٩٥٠ قلت فيه بين ما قلت :

نعم . يحيا الظلم . . ظلم كل جبار عاتية معتز بسلطانه وسطوته يدوس القوانين ولا يبالى ، وظلم كل كبير فاسق وكل عظيم فاجر يسرق ولا يبالى ويختلس ولا يبالى . . ويثلم الأعراض ولا يبالى . ويهدر الكرامات ودم الوطن ويجعل من مصر أمثولة السوء وبصقة كريهة فى فم الزمن .

نعم . يحيا الظلم . . ظلم كل مطالب باحترام القانون ولا يحترمه . وكل قادر على حماية القانون ولا يحميه . . وظلم كل عابث ماجن إباحى مستهتر يضرب للناس أسوأ الأمثال . .

نعم . يحيا الظلم لأنه خير مرب للنفوس . . ونفوس المصريين تجيش اليوم بمعنى واحد . . لقد صبرنا طويلا ولن نصبر بعد اليوم . وتحملنا كثيرا ولن نتحمل بعد اليوم .

* * *

وقرأ فاروق المقال. وأشر بالقلم على هذه العبارات.. ثم سأل بعض رجال ديوانه «الملكى» ـ ولا داعى لذكر أسمائهم ـ سألهم.. «من العظيم الفاجر الذى يسرق ويعتدى على الأعراض»؟

وسكتوا عن الرد. وعاد يسألهم.. «من الذى يعنيه التابعى»؟ ولم يجب أحد منهم. وابتسم فاروق ابتسامة صفراء لأنه عرف بكل تأكيد من سكوت رجال حاشيته.. أنه هو المقصود.

* * *

وكتبت عن فاروق بعد خلعه وطرده.. كتبت ولم أرحمه وأسهبت فى سرد قصص مخازيه وفضائحه. ومع ذلك فإننى لم أنس فى كل ما كتبت أننى إنسان.. فلم أذكر مثلا لماذا بكى ذات يوم فى دار صغيرة فى حى چناكليس برمل الإسكندرية فى صيف عام ١٩٣٧.

وكان فاروق يومئذ لا يزال الملك المأمول.. لم تفسده الدنيا. ولم ينس ربه ودينه.. بكى كالطفل الصغير حتى بلل الدمع خديه.. لم أكتب ولم أذكر التفاصيل.. لأن «فاروق» بكى ساعتئذ كإنسان.. لا كملك.. ولأننى لا أستطيع أن أنسى دائمًا أننى.. إنسان.

* * *

الذكريات كثيرة.. وما أعرفه كثير.. وما وقع لى فى حياتى مختلف الألوان.. والصعوبة فى الاختيار.. أيها يصلح للنشر.. وأيها لا يصلح.

أيها يجوز نشره.. وأيها لا يجوز.. وأيها يرضى أصحابه وأشخاصه وأبطاله، أو يسكتون عن نشره.. وأيها الذى لا يرضيهم نشره.. هل أروى مثلا ما سمعته من الدكتور محمد صلاح الدين أيام اشتداد الخلاف بين رئيس الوفد مصطفى النحاس وسكرتير الوفد مكرم عبيد؟

ومن الذين سعوا مخلصين لتسوية أسباب الخلاف والإبقاء على وحدة الوفد.. ومن الذين سعوا وعملوا على توسيع شقة الخلاف بين مصطفى النحاس ومكرم عبيد؟

وهؤلاء وهؤلاء من أعضاء الوفد أو من كبار الوفديين.

وهل أستطيع مثلا أن أروى تفاصيل حديث دار فى مسكنى ذات مساء فى شهر مايو أو يونية عام ١٩٤٢ بين فؤاد سراج الدين وبينى عن مكرم عبيد؟ وهل من الصواب فصله الآن من الوفد. . أوالانتظار أو الأسباب «الوجيهة» التى أبداها الأستاذ فؤاد سراج الدين للتعجيل بفصل الأستاذ مكرم عبيد؟

وهل أذكر الحديث الذى دار بالتليفون بين مصطفى النحاس ـ وكان فى فندق مينا هاوس ـ ومكرم عبيد وكان فى المنيا ذات مساء إبان الاستعداد للانتخابات التى جرت بعد قيام وزارة ٤ فبراير ١٩٤٢.

وهل أروى ما سمعته من فم رئيس الوفد ورئيس الوزارة مصطفى النحاس عن «الملك» فاروق وموقف الوزارة منه ومن الإنجليز؟

وهل من الأمانة الصحفية أن أروى حديثا أو كلاما لم يقله مصطفى النحاس باشا أمامى إلا وهو مطمئن إلىّ وواثق منى؟!!

وهل أستطيع أن أروى كل ما أعرف وكل ما سمعته من صديق راحل كريم هو أحمد محمد حسنين، وللصداقة حقوق، وعليها واجبات؟

وهل مما يستقيم مع حقوق الصديق ولا يتنافى مع واجبات الصداقة أن أروى وأذكر كل ما عرفت وكل ما سمعت؟!

* * *

هذه هى الصعوبة. بل هذا هو الصراع بين الصحفى والأمانة الصحفية. . وبينه وبين سرية المهنة. . ثم الصراع بين الصحفى والإنسان.

الكتاب الأول

أحمد محمد حسنين

فى الحياة الخاصة

هذا الرجل الغامض..
هل هو بطل؟ هل هو خائن؟

قلت فى المقدمة إننى لا أكتب هنا «مذكرات» بالمعنى المعروف، بل هى صور وقصص من حياتى وحياة الآخرين. . صور وقصص بلا تسلسل أو ترتيب.

وقد اخترت أن أبدأ بصورة للمرحوم أحمد حسنين باشا لا لسبب إلا لأن شخصيته كانت موضوع خلاف بين الذين عرفوه.

هل هو بطل؟ ومصرى وطنى مخلص يقدم مصلحة بلاده على كل ما عداها؟ . . أم هو خائن وصنيعة للإنجليز؟ ولا بأس من أن يضحى بمصلحة مصر فى سبيل مصلحة ذاتية يحققها له الاستعمار؟ هل هو السبب المباشر فى فساد الحكم وفساد فاروق؟ وفساد الأسرة المالكة والفضائح التى وقعت فى السنوات القليلة السابقة على قيام الثورة؟

تباينت الآراء واختلفت فى هذا الرجل. . أحمد محمد حسنين.

أحمد محمد حسنين ابن الشيخ الأزهرى محمد حسنين. . ومع ذلك! ومع ذلك فهو خريج جامعة أكسفورد. . وصهر الأسرة المالكة!

ولقد عدوها أعجوبة من عجائب العصر يوم تزوج سعد زغلول الأزهرى النشأة وابن الفلاح المصرى من ابنة مصطفى فهمى باشا التركى الأصل. ورئيس الوزارة المصرية.

وها هو ذا مصرى آخر وابن فلاح وشيخ أزهرى يتزوج من ابنة الأميرة شويكار مطلقة الملك فؤاد وحفيدة محمد على مؤسس الأسرة المالكة.

إنها إذن أعجوبة العجائب! وكانت أعجوبة أخرى أن هذ المصرى - ابن الفلاح - يطلق فيما بعد طواعية واختيارا زوجته هذه لطفية ابنة الأميرة شويكار التى كان مقدرا لها أن ترث الملايين. . وهو الفقير المعدم الغارق فى الديون!

كيف كان هذا؟ ولماذا؟

هل طلق حسنين زوجته كرها فيها؟ . . وحبا فى نازلى ملكة مصر؟ أم أنه طلقها وهو يبكى وقلبه يقطر دما؟ . . ولماذا طلقها إذن؟

* * *

أحمد محمد حسنين خريج جامعات إنجلترا. . والمفتش بوزارة الداخلية إبان الحرب العالمية الأولى. . والسكرتير بسفارة مصر فى واشنجطون، والأمين الثانى للملك فؤاد.

ورائد صاحب السمو الملكى الأمير فاروق ولى العهد وأمير الصعيد.

والأمين الأول لجلالة الملك، ثم رئيس ديوان جلالة الملك فاروق والرجل الذى كان يمسك بخطوط السياسة المصرية فى فترة حرجة حالكة فى تاريخ مصر ما بين عام ١٩٤٠ وعام ١٩٤٦.

الرجل الذى كان يقيم الوزارات ويسقط الوزارات. . وهو فى نفس الوقت حريص على أن يبدو فى تصرفاته وأقواله كرجل لا يعرف شيئا مما يقع فى البلد! ولا يد له فى أى أمر يقع. بل ويؤكد لمعارفه أنه لا يفهم شيئًا فى السياسة!

* * *

كان فى وقت ما بطل مصر فى «الشيش» أو المبارزة فى السيف، ونازل أبطال هذه اللعبة فى أوروبا وانتصر على كثيرين منهم.

وحاول فى يوم ما أن يكون أول مصرى يقود طائرته الخاصة بمفرده من أوروبا إلى مصر. . وسقطت به الطائرة مرتين. . فى فرنسا وفى إيطاليا. ونجا من الموت فى المرتين. وأصلح عطب الطائرة واستأنف طيرانه. . لولا أن الملك فؤاد أرسل إليه برقية يأمره فيها بالعدول عن الطيران إلى مصر والعودة بأول باخرة.

وجاب مجاهل الصحراء الغربية مع الرحالة الإنجليزية السيدة روزيتا فوربس وكان حسنين صاحب الفكرة ومنظم الرحلة وعقلها المدبر وقائدها . . وقد تستر على زميلته الإنجليزية فزعم أنها مسلمة وأنها زوجته ، وألبسها ثيابا عربية وأسدل على وجهها حجابا كثيفا . . وإلا لما كان زعماء القبائل سمحوا لهذه المسيحية الأجنبية بالتوغل فى مجال سلطانهم وأسرار الصحراء .

وعاش أحمد حسنين مع روزيتا فوربس أسابيع عديدة فى مجاهل الصحراء . وكانا ينامان فى خيمة واحدة . . ولكنه لم يحاول أن ينال منها . . أما هى فقد حاولت . . ولكنه أبى وأعرض . وسألتُه مرة :

ـ وهل قَدَّتْ قميصك من دبر؟!

وضحك رحمه الله وقال :

ـ كلا . . فإن المسألة لم تصل إلى هذا الحد .

قلت : لكننى لا أفهم! . . لقد كنت يومئذ فى عنفوان شبابك . . وروزيتا امرأة جميلة تُشتهى . . وكنتما فى الصحراء أسابيع عديدة . . ووحدكما عشرات الليالى فى خيمة واحدة . وكان مرافقوك من البدو يعتقدون أنها زوجتك . . وما أنت دائما بولى الله أو قديس . . إذن ماذا؟

ضحك مرة أخرى وقال :

ـ لأن الأزهر انتصر فى هذه المرة على أكسفورد . . !

وكان أبوه الشيخ محمد حسنين من علماء الأزهر الأجلاء . . والمعنى الذى أراده حسنين هو أن النشأة الدينية فى دار أبيه وما ورثه فى دمه عن أبيه العالم الأزهرى المستمسك بأحكام دينه الحنيف . . كل هذا انتصر على عوامل التحرر أو التحلل التى تركتها فى نفسه دراسته فى جامعة أكسفورد .

سألتُه :

ـ وهل انتصر الأزهر دائما فى جميع المعارك الشبيهة التى نازلت فيها امرأة أو تحدتك فيها امرأة؟

قال: كلا. . ولكننى فى هذه المرة كنت حريصا على رضاء ربى ورحمته. فقد كنا فى صحراء مجهولة. . وأسباب الهلاك تحيط بنا من كل جانب. . وكنت أعد نفسى مسئولا عن سلامة القافلة ونجاة أفرادها.

وضحكت بدورى وقلت:

- إذن فقد تأبيت وأعرضت لا زهدا فى روزيتا. . وإنما خوفا من أن يحل بك غضب الله وأنت فى جوف الصحراء؟

قال: نعم. .

قلت: ولولا هذا. . ؟

قال: لا تكن لحوحا!

* * *

وعادت روزيتا إلى إنجلترا ووضعت كتابا عن الرحلة، وأشارت فيه إشارة عابرة - فى سطور - إلى أحمد حسنين وكيف أنه كان أجيرها ومترجما لها أثناء الرحلة المذكورة. . وأنه لم يكن يعنى إلا ببيجامات نومه الحريرية وزجاجات الكولونيا التى حملها معه فى رحلته عبر الصحراء!

. . وأنها هى كانت كل شىء وصاحبة الفضل فى كل شىء. . وهو لا شىء! وأخذت بروايتها صحف عديدة فى إنجلترا وأوروبا وأمريكا. . وهكذا غلب كبرياء المرأة. . فضيلة الصدق!

وألح بعض كبراء الإنجليز من أصدقاء حسنين الذين كانوا يعرفون حقائق الرحلة وأن حسنين هو صاحب الدور الرئيسى وصاحب الفضل الأول والأخير فيها. . ألحوا عليه أن يرد على روزيتا فوربس ويفند مزاعمها، ولكنه رفض.

رفض أن ينازل امرأة. . أو «يَقُدَّ قميصها من قُبل!». سكت إذن ونفسه مملوءة ألما وحزنا ومرارة.

ولكنه قام فى العام التالى - وبمفرده - برحلة ثانية فى جوف الصحراء واكتشف واحة الكفرة. . وكان لاكتشافه الخطير دوى كبير فى جميع أنحاء العالم واجتمعت

الجمعية الجغرافية الملكية فى لندن ومنحته ميداليتها الذهبية وهى أسمى وسام يمكن للجمعية أن تقدمه لكبار المكتشفين.

وانهالت عليه الأوسمة والنياشين من مختلف الدول تقديرا لهذا الاكتشاف. ومنها وسام سان لازار الذى أنعمت به عليه حكومة إيطاليا وهو من أرفع الأوسمة شأنا فى إيطاليا.

وفى حفلة ساهرة أقيمت فى روما التقى أحمد محمد حسنين مع روزيتا فوربس.. وكان يعلق على صدر سترته وسام سان لازار الرفيع الشأن.

واقتربت منه روزيتا وحيته ثم سألته ساخرة:

ـ هذا وسام سان لازار؟.. ترى أى عمل استحققت عليه هذا الوسام؟

وأجابها حسنين.. بالإنجليزية طبعا: For my chastity, Rosita

أى استحققته بفضل طهارتى يا روزيتا!

وامتقع لون روزيتا فوربس.. وولته ظهرها! فقد كانت الغمزة صريحة مكشوفة مفهومة!

وقال لى حسنين:

ـ نعم. لقد ثأرت لنفسى. ولكنه كان انتقاما خسيسا ندمت عليه فيما بعد.. بل إن العبارة لم تكد تخرج من بين شفتى حتى أدركت أننى تصرفت بخسة وفظاظة.. وندمت وفكرت فى أن أعتذر إليها ولكنى أشفقت من أن اعتذارى قد يزيد فى جروحها وألمها.

* * *

وسافر إلى واشنجطون ليتولى منصبه فى سفارة مصر..

وعرضت عليه إحدى الهيئات أن يقوم برحلة يطوف فيها ببعض المدن الأمريكية الكبيرة ويلقى فيها محاضرات عن رحلته فى الصحراء وعرضوا عليه مبلغ خمسة وعشرين ألف دولار وكانت تساوى وقتئذ خمسة آلاف جنيه وفى مقابل اثنتى عشرة محاضرة.

واشترطوا عليه أن يلقى هذه المحاضرات وهو يرتدى الثياب البدوية التى كان يرتديها فى الصحراء أثناء رحلة الاستكشاف.

ورفض أحمد حسنين هذا العرض.

وكان يومئذ ـ كما كان دائمًا ـ فقيرا ومدينا لأحد زملائه فى السفارة بمبلغ خمسين دولارا!

ولكنه رفض أن يكون «أراجوز» كما قال لى.. لكى يرضى فضول الأمريكان ويكسب خمسة آلاف جنيه.

وارتداء ثياب البدو فى الصحراء شىء.. والظهور بها على مسرح فى مدن أمريكا شىء آخر.

* * *

هذه لمحات خاطفة ـ وتافهة ربما ـ من حياة حسنين.

وإذا كنت قد وقفت عندها بعض الوقت فما ذلك إلا لأنها ـ فى رأيى ـ تلقى شيئًا من الضوء على خلق حسنين وعقليته ونفسيته ومذهبه فى الحياة.

يرفض امرأة ويتأبى عليها.. لأنه يخاف غضب الله فى وقت كان فيه أحوج ما يكون إلى استرضاء الله واستجلاب عطفه ورحمته.. وإلا..!

ويرفض أن ينازل امرأة أو يهاجمها أو يكذبها علنا.. ولكنه ـ فيما بينها وبينه ـ يجرحها ـ كما يقول هو نفسه ـ بخسة وفظاظة لأنه ذكرها بأنها عرضت جسدها عليه ولكنه رفض وظل طاهرا.

ويرفض ـ وهو الفقير المدين ـ يرفض خمسة آلاف جنيه لأنه يأبى أن يظهر على المسرح فى ثياب قد تثير ضحك الأمريكان.

* * *

لمحات خاطفة.. وربما تافهة. ولكنها تساعد على رسم صورة لأحمد محمد حسنين الذى اختلفت فيه آراء الناس وتعددت الصور التى يرسمونها له.

الذين عرفوه وأحبوه.. رسموا له صورة بطل! وبعض الذين لم يعرفوه رسموا

له صورة كريهة قاتمة . . صورة صنيعة الإنجليز . الخائن الذى يخدم مصلحة خصوم بلاده من المستعمرين!

وبعض الذين عرفوه وكرهوه . . أو لم يحبوه جعلوا منه شيطانا رجيما ، ومنافقا لئيما ، ونفعيا وصوليا نهازا للفرص!

وغير هؤلاء وهؤلاء . . فريق من الساسة والصحفيين رسموا لأحمد محمد حسنين صورة الرجل المدين بكل شيء للصدفة . . الرجل العادى . . الكسول . . الذى يحب العيش الهنيء . . والذى لم يؤت من الذكاء والعلم إلا قليلا ، ولا يفهم في السياسة شيئًا بل سار فى دروبها ليخبط خبط عشواء .

وهذه الصورة هى الصورة التى كان حسنين باشا نفسه يحرص على أن يطبعها فى نفوس جميع الذين كان يلقاهم من الساسة والزعماء!

كان ـ رحمه الله ـ يحب أن يعتقد الناس فيه الغباء بل «الهبل»! وأنه رجل لا يخشى شره! أو طرطور! أو ساعى بريد ينقل إليهم «الأوامر السامية» من جلالة الملك . . أو «يرفع» آراءهم ونصائحهم إلى «السدة العلية الكريمة» . . ومن غير أن يكون له هو رأى أو مشورة فى الموضوع .

وصدقه بعضهم فى أول الأمر . ثم اكتشفوا الحقيقة وعرفوه . . وكرهوه!

وآخرون عرفوا الحقيقة عندما عرفوه . . فأحبوه! وغير هؤلاء وهؤلاء فريق من الساسة الذين «كشفهم» حسنين باشا أمام فاروق . وكشف عن ألاعيبهم ومناوراتهم وأطماعهم وأكاذيبهم .

كشفهم وأضاع عليهم نفوذهم عند فاروق . . وفوت عليهم فرص الفوز بمقاعد الحكم وجاه السلطان .

ويبقى السؤال قائما . . هل كان أحمد محمد حسنين بطلا ومصريا وطنيا وخادما أمينا لبلاده؟

أم كان خائنا وصنيعة أو ذنبا من أذناب الاستعمار؟ الرأى عندى أنه ـ رحمه الله ـ لم يكن هذا ولا ذاك .

لم يكن بطلا . . ولم يكن خائنا لبلاده . . وإنما كان رجلا ذا مطامع واسعة كثيرا

مـا أفلح فى إخـفـائهـا وراء قناع من الزهد فى المناصب . . والجـهـل بالسـيـاسـة وأسرارها .

كان يطمع فى أن يكون رئيس الوزارة والرجل الأول فى الدولة .

ولكنه لم يمض إلى هذا الهدف مباشرة وفى خط مستقيم . . كلا فإن هذه لم تكن سياسة أحمد محمد حسنين الذى كتب عنه مرة زميله فى الدراسة وصديقه حفنى محمود فقال : إنه فاجأه مرة وهو يقرأ كتابا ما .

وحاول حسنين أن يخفى الكتاب عن صديقه حفنى محمود . ولكن حفنى استطاع أن يقرأ عنوان الكتاب .

وكان الكتاب هو «الأمير» لمؤلفه الفلورنسى الداهية «ماكيافيللى»! الذى وضع كتابه على أساس أن الغاية تبرر اتخاذ كل وسيلة! وهكذا فضح حفنى محمود سياسة صديقه حسنين «السياسة الماكيافيلية!» سياسة الخبث واللف والدوران . . وكل وسيلة مشروعة فى سبيل تحقيق الغرض والوصول إلى الهدف!

وكل غرض شريف ما دام فى خدمة الأمير . . أى الحاكم .

وكان الأمير يومئذ هو الدولة . . والدولة هى الأمير .

قصة نازلى
ملكة مصر سابقا
وأحمد محمد حسنين

قلت إن حسنين باشا لم يكن بطلا معدودا من أبطال الوطنية المصرية . . ولم يكن خائنا لبلاده أو صنيعة للاستعمار كما اتهمه بعض خصومه . وبعض الذين لم يعرفوه . . أو الذين عرفوه ولم يحبوه .

ولكنه كان رجلا ذا مطامع واسعة . وكان كل نجاح يلقاه يغريه بالتماس نجاح آخر . . وكل منصب يرقى إليه يغريه بالسعى وراء منصب آخر يفوقه سلطة ونفوذا .

وكانت خطواته مطردة دائمًا . . إلى الأمام . لم يتعثر مرة واحدة . ولم يقف أو يتقهقر أو يرتد إلى الوراء مرة واحدة . دائمًا إلى الأمام . . وإلى ما هو أعلى وأقوى وأوسع نفوذا .

كانت حياته سلسلة من الانتصارات . . ولم يعرف الهزيمة سوى مرة واحدة . . وكان ذلك فى حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ . ولكنه استطاع أن يثأر لنفسه بعد عامين يوم دبر إقالة وزارة مصطفى النحاس فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ .

وهكذا رد اللطمة للسفير البريطانى سير مايلز لامبسون أو لورد أوف كيلرن . . كما ردها مضاعفة للسيد مصطفى النحاس .

* * *

وكان أحمد محمد حسنين يضع خططه بدقة وإحكام . وينفذها بكياسة ومهارة وحذر . ولا يضيق صدره ولا يخونه صبره مهما طال الأجل . . أو لاقى من صعوبات .

وكانت الخطة الأولى أو الخطوة الأولى الواسعة فى طريق تحقيق مطامعه هى مصاهرة الأسرة المالكة .

ولقد استطاع الشاب النحيل القامة الوسيم الطلعة الأنيق فى ملبسه . . الساحر

فى حديثه . . الرشيق فى حركاته . الرياضى البطل فى دنيا الرياضة والمغامرات . والرحالة الذى جاب مجاهل الصحراء وواجه الموت مرارا فى رمالها المحرقة وفيافيها الجدباء والذى أغدقت عليه صحف العالم من الثناء والإعجاب مالم تغدق مثله إلا على قليلين من كبار المكتشفين . .

استطاع هذا الشاب أحمد محمد حسنين ـ ابن الشيخ محمد حسنين المدرس بصحن الأزهر الشريف ـ استطاع أن يفتن ويخلب لب الفتاة «لطفية» كريمة صاحبة السمو الأميرة «شويكار» مطلقة الملك أحمد فؤاد وأم ابنته صاحبة السمو الملكى الأميرة «فوقية» .

وتزوج حسنين من لطفية وأصبح من أصهار الأسرة المالكة وزوجا لأخت الأميرة فوقية كريمة الملك فؤاد .

وكان فؤاد قد تصالح قبل ذلك بسنوات مع مطلقته شويكار .

وهكذا عزز حسنين مركزه وثبت قدمه على أولى درجات السلطة فى دنيا المناصب والجاه والنفوذ . . وإلا فأى رئيس أو وزير بل وأمير كان يجسر يومئذ أن يتجاهل هذا الشاب ـ أحمد حسنين ـ صهر الأسرة المالكة وزوج كريمة الزوجة الأولى لصاحب العرش والتاج ؟

* * *

كانت هذه هى الخطة أو الخطوة الأولى .

وقد أسميتها خطة أوخطوة لأنها كانت مرسومة . ولأن الزواج لم يكن مقصودا لذاته . . بل كان وسيلة للوصول إلى غرض أو هدف مقصود فى طريق النجاح وتحقيق المطامع الواسعة .

والدليل الذى لا يحتاج معه أو بعده إلى دليل آخر أن حسنين يوم تزوج من المغفور لها السيدة لطفية لم يكن يحبها .

لقد استطاع أن يفتنها ويخلب لبها ويوقعها فى حبه . أما قلبه هو فكان خاليا من أى حب لها .

صحيح أنه لم يكن يكرهها . . كلا . . ولكنه لم يكن يحبها يوم خطبها ويوم

تزوج منها . . وبعد الزواج ـ لا قبله ـ وبعد المعاشرة أو «العشرة» وبعد أن أنجبت له أولاده . . أحبها حسنين . أو كما قال لى هو نفسه . . «إن لطفية كريمة رقيقة حنون تستحق كل حب، وهى أم مثالية . ولقد أحببتها بعد الزواج كما لم أحب امرأة أخرى»!

والآن وقد عرفنا كيف ولماذا تزوج حسنين من لطفية ابنة الأميرة شويكار . . يبقى أن نعرف لماذا طلقها مع أنه ـ باعترافه ـ كان يحبها كما لم يحب امرأة سواها؟!

كان زواجه منها خطوة فى سبيل تحقيق مطامعه الواسعة وكان طلاقه لها خطوة أخرى فى نفس الطريق . . وسأذكر الطريق فيما بعد .

* * *

ونعود الآن إلى يوم توفى الملك أحمد فؤاد فى ٢٦ إبريل ١٩٣٦ . لم تمض أسابيع قليلة على وفاته حتى كثر الهمس بين موظفى القصر وفى الأوساط الخاصة المتصلة به، أن «السجينة» قد حطمت قيودها وانطلقت ـ وهى لا تزال بعد ترتدى ثياب الحداد ـ انطلقت تمرح وتحاول أن تعوض ما فاتها وتنهل من عيون الحياة وينابيعها .

وكانت «السجينة» المذكورة هى الملكة نازلى . . وهى نفسها التى كانت تقول لكل من يقابلها وتأمن جانبه . . «أنا سجينة الملك فؤاد» .

ولقد تعددت الروايات واختلفت عن زواج «السلطان» أحمد فؤاد من نازلى كريمة المرحوم عبد الرحيم صبرى باشا . ولكن الذى سمعته من رواة ثقات من أقاربها هو أنها أرغمت على هذا الزواج . . وأنها كانت تحب شابا من أقربائها، وأكتفى بذكر الحروف الأولى من اسمه (ش . ش) لأنه لا يزال بيننا على قيد الحياة .

كانت نازلى تحب قريبها الشاب . وكان أملها فى الزواج منه كبيرا إلى أن خطبها «عظمة السلطان» أحمد فؤاد من أبيها .

وفى اليوم المحدد لعقد القران هربت نازلى ـ فى الصباح الباكر ـ من قصر أبيها . . ولجأت إلى حبيبها ش . ش .

وراح الفتى يتنقّل ـ وهى معه ـ طول اليوم من دار صديق إلى دار صديق . . خوفا

من مطارديه فقد انطلق الأقارب وسلطات الدولة كلها تبحث فى كل مكان عن خطيبة عظمة السلطان.

وأخيرا أدرك الفتى ألا فائدة! ولعله كذلك خاف مما قد يصيبه من بطش السلطان فأركبها عربة حنطور وأعادها إلى قصر أبيها. . فى المساء.

وعقد القران. . وأصبحت نازلى صاحبة العظمة السلطانة. سلطانة. . ولكنها حبيسة فى القصر. . عليها فى كل ردهة وكل رواق وغرفة عيون وأرصاد، ولا تغادر القصر إلا بإذن. . ولا تزور ولا تزار إلا بإذن. . قد كان أحمد فؤاد شديد الغيرة على زوجته الشابة الجميلة.

ولقد أصاب نازلى من فؤاد عدة أمراض ليس أقلها شأنا تقيح اللثة أو «البيورى».

قال لى الدكتور ستانكيفتش طبيب الأسنان، وهو روسى الأصل وكان متزوجا من أميرة بولونية. . وكان طبيب الأسنان الخاص للملك فؤاد وأسرته قال لى مرة بعد وفاة الملك: إن فى فم الملكة نازلى تسع أسنان عايمة أو ملخلخة بسبب تقيح اللثة. . ولما كان يعرف أن الملك فؤاد عنده نفس الداء «تقيح اللثة» فقد سألها ذات يوم لكى يتأكد من أصل العدوى وسببها. . سألها:

ـ هل جلالة الملك يقبلك فى فمك؟

وضاقت عيناها قليلا وقد بدا فيهما حقد وسخط، وقالت:

ـ يقبلنى فى فمى؟ إنه لا يكتفى بمجرد التقبيل!

وكانت عيناها وصوتها وقسمات وجهها تنطق بالاشمئزاز والكراهية.

هذه رواية دكتور ستانكيفتش وقد أيدتها مصادر أخرى وهى أن نازلى لم تكن تحب زوجها أحمد فؤاد.

* * *

وبقيت نازلى سجينة القصر أو فى «قفص من ذهب» سبعة عشر عاما هى الربيع وخير ما فى العمر وسنوات الصبا والشباب.

وأخيرا، تحررت يوم مات «سجانها» الملك أحمد فؤاد. وكان ربيع عمرها ولى ومن بعده الصيف أوشك كذلك أو يكاد.

وانطلقت نازلي ـ بشراهة ونهم ـ تنهل من عيون الحياة وتطفئ نار الظمأ الذى أحرق حشاها السنوات الطوال!

وكثر الهمس. وذكرت أسماء بعض ضباط الحرس وموظفى القصر. ثم تركزت الإشاعات حول اسمين اثنين وهما أحمد محمد حسنين والياور (البكباشى يومئذ) عمر فتحى.

وما من شك فى أن ملكة مصر يومئذ ـ نازلى ـ كانت تريد أن تلهو بالرجلين وأن تضرب أو تضارب أحدهما بالآخر وأن تثير الغيرة فى صدر هذا ضد ذاك، وأن تتلذذ بمشاهدة الغيرة والمنافسة بين رجل الحاشية الوسيم وضابط الحرس الرشيق.. وأن تعبث وتلهو.

ولقد سمعت من حسنين هذه الحكاية.. طلبت منه الملكة نازلى ذات يوم أن يمر عليها فى الساعة كذا لكى يصحبها إلى حفلة ما فى المساء.

وذهب حسنين فى الموعد المحدد ووقف ينتظر.. وأخيرا سأل عن جلالة الملكة.. وطلب من إحدى الوصيفات أن تذكر صاحبة الجلالة بموعد الحفلة وأن حسنين فى الانتظار.

وقالت الوصيفة: «ولكن جلالة الملكة غادرت القصر منذ ساعة وذهبت فعلا إلى الحفلة».

وسألها حسنين:

ـ ذهبت وحدها؟

قالت الوصيفة:

ـ كلا.. فقد صحبها عمر فتحى بك!

* * *

روى لى حسنين هذه الواقعة وقال:

ـ ولقد سألت الوصيفة عما إذا كانت جلالة الملكة خرجت وحدها وأنا أعرف

مقدما أن الجواب سيكون أنها خرجت مع عمر . . فلم تكن تلك أول مرة تحاول فيها أن توقع بينى وبين صديقى عمر فتحى .

ومن ذلك أيضا أنها دعت مرة عمر فتحى لكى يصحبها إلى «المكس» لتتناول طعام العشاء فى مطعم هناك اشتهر بطهو أصناف السمك .

واعتذر عمر فتحى من عدم تلبية طلبها لأن جلالة الملك متوعك المزاج وأن عليه ـ على عمر فتحى ـ أن يلازمه هذا المساء .

وهزت نازلى كتفيها برشاقة ونظرت إلى الياور عمر فتحى بطرف وقالت :

ـ على كيفك ! إذا كنت مش فاضى . . حسنين دائمًا فاضى علشانى !

* * *

ولكن لعبتها لم تطل لأن أحد الرجلين ـ عمر فتحى ـ لم تكن له مطامع . ولأنه طول خدمته فى القصر كان حريصا دائمًا على أن يكون فى «حاله» وأن يؤدى واجبات منصبه . . فقط . . ومن ثم فقد انسحب باختياره وترك الميدان خاليا أمام حسنين .

هذا من جهة . . ومن جهة أخرى فإن أحمد محمد حسنين كان أدهى بكثير مما قدرت نازلى ملكة مصر .

لقد كان فى قصر «كنرى هاوس» بلندن فى معية صاحب السمو الملكى التلميذ الأمير فاروق ولى العهد وأمير الصعيد يوم جاءهم نبأ وفاة الملك فؤاد والمناداة بفاروق ملكا على مصر .

وعاد حسنين فى صحبة الملك الجديد إلى مصر وفى رأسه خطة مدروسة مرسومة محكمة التفاصيل .

كان يعرف عن نازلى أكثر مما يعرف أى موظف آخر من موظفى القصر . . كان يعرف الكثير عن «سجنها» وعذابها وغيرة زوجها الملك فؤاد وحسرتها وتلهفها على الحياة المرحة الطليقة . . ومن هنا عاد إلى مصر ـ وإلى القصر ـ وقد قرر فى نفسه أمرا . . أن يتركها ـ يترك نازلى ـ تشده وتصده . . وتعرض وتقبل . . وتروح

وتعود . . وأن تغازل هذا و«تستلطف» ذاك . . وهو دائمًا هادئ يبتسم . . لا يغار ولا يثور .

وأن يمد لها فى حبال الصبر كما يمد الصياد الماهر المجرب فى خيط الصنارة . . التى علقت بها سمكة عنيدة .

السمكة تشد وتجذب وتقفز . وتغوص وتطفو . . وتقاوم . . والصياد يرخى من خيط الصنارة حينا . . ويشده حينا . . وهكذا إلى أن تخور قوى السمكة وتستسلم .

وهكذا فعل حسنين .

إلى أن تعبت نازلى واستسلمت أو أسلمت قيادها لأحمد حسنين . . وبدأت هى التى تغار والتى تحاسب حسنين أين كان ، ومع من وماذا فعل ، وكيف أمضى سهرته؟

إلى آخر ما تفعله المرأة التى تحب بعد أن تكون قد جاوزت سن الشباب .

* * *

وهو . . هل كان يحب نازلى؟

كلا . ولكنه كان حريصا على استرضاء «ملكة مصر» . . وأم ملك مصر . . وصاحبة النفوذ الأعلى عند ابنها فاروق فقد كان فاروق يومئذ يحب أمه ويحترمها بل ويخشاها ويخشى غضبها ويعمل لها حسابا ولا يخالف لها أمراً . . وكان حسنين يعرف هذا كله . . ويدرك أن الذى يسيطر على نازلى يستطيع ـ عن طريقها ـ أن يسيطر فى نفس الوقت على الملك فاروق .

* * *

عاد فاروق من إنجلترا ـ حيث كان بدأ دراسته ـ عاد فى الأسبوع الأول من شهر مايو ١٩٣٦ .

وكان هناك مجلس وصاية على العرش مؤلف من صاحب السمو الملكى الأمير محمد على توفيق وصاحبى المقام الرفيع عبد العزيز عزت باشا ومحمد شريف صبرى باشا خال فاروق .

وكانت الوزارة يومئذ وفدية برياسة «صاحب المقام الرفيع» مصطفى النحاس «باشا».

واقترح الأمير محمد علي ـ وهذه شهادة حق أقررها للتاريخ ـ اقترح رفع سن الرشد للملك إلى سن ٢٥ سنة وأن يعود فاروق إلى إنجلترا ليكمل دراسته.

ولكن الوزارة رفضت هذا الاقتراح. وأعلن السيد مصطفى النحاس أن وزارته تحترم وتستمسك بأحكام الشريعة والقانون والدستور.. وأن هذه جميعها تقرر أن سن الثامنة عشرة هلالية هي سن الرشد والبلوغ. وأن جلالة الملك يتولى ويمارس سلطاته الدستورية، والحالة هذه في يوم ٢٨ يولية عام ١٩٣٧.

ولم يكن الاستمساك بأحكام الشريعة والقانون والدستور سوى ذريعة أو حجة. والحقيقة أن زعماء الوفد كانوا يعتقدون ـ بعد أن أراحهم الموت من خصمهم العنيد أحمد فؤاد ـ كانوا يعتقدون أن في إمكانهم أن يضعوا فاروق الملك الشاب في «جيوبهم» وأن يسيروه ويوجهوه كما يريدون.

ما حاجتهم إذن بمجلس وصاية يمارس سلطات الملك سبع سنوات؟ ما حاجتهم إلى هذا المجلس الذي يرأسه أمير من الطراز التركي القديم؟ أمير كثير الطلبات.. كثير المعارضة.. يخرف حينا.. ويثرثر حينا.. ولا يمل الحديث عن أجداده العظام.. وإذا ذكرت حقوق الشعب أمامه تململ أو هز كتفيه استخفافا!

كلا.. سن الرشد هي الثامنة عشرة.. وهلالية لا ميلادية.. ويتولى فاروق سلطاته كملك دستوري بعد عشرة شهور لا سبعة أعوام.

* * *

وهنا رُئي أن يقوم الملك الشاب نصف الأمي والذي لم يكمل دراسته ولم يحصل من العلم إلا أقل القليل.. رُئي أن يقوم برحلة طويلة إلى أوروبا لعل الرحلة تزيد في تجاربه ومعلوماته ولو قليلا.

وتقرر أن يصحبه في هذه الرحلة أمه الملكة نازلي وشقيقاته الأميرات فوزية وفايزة وفايقة وفتحية ومعهن المربيتان الإنجليزيتان وأستاذهن للغة العربية الرجل

الطيب الأستاذ أحمد يوسف. ومستر فورد مدرس التاريخ والجغرافيا للملك الشاب.

والسيدة الجليلة زينب ذو الفقار بصفتها «السيدة المرافقة» للملكة نازلى، وكريمتها الآنسة صافيناز ذو الفقار.

وخال الملك فاروق حسين باشا صبرى والسيدة الكريمة زوجته شهيرة الدرمللى.

وعلى رأس الحاشية «رائد الملك» أحمد محمد حسنين. ومعه ياور الملك الخاص عمر فتحى (وقد أنعم عليه برتبة القائمقام المحلية) وطبيب الخاصة الملكية دكتور عباس الكفراوى والأمين الثالث على رشيد (وهو اليوم كبير الأمناء) ودكتور حسين حسنى مساعد السكرتير الخاص للملك.

وأوفدت وزارة الداخلية اثنين من ضباط البوليس ليكونا فى حراسة الملك.. وهما اليوزباشى أحمد الطاهر واليوزباشى أحمد كامل الذى أصبح فيما بعد الأميرالاى وقائد قوات بوليس السراى. وتحدد يوم ٢٧ فبراير ١٩٣٧ السفر من بور سعيد على ظهر الباخرة «فايسروى أوف إنديا».

وكانت ثورة قد قامت فى بيت أحمد محمد حسنين.

* * *

كان قد ترامى إلى سمع زوجته الرقيقة الطيبة التى تحبه.. إشاعات وأخبار وروايات وحكايات عما بين ملكة مصر نازلى.. وبين زوجها أحمد حسنين.

وطلبت لطفية من حسنين أن تسافر معه.. فى هذه الرحلة.. ووعدها حسنين بعرض الأمر على فاروق.

ولكنه لم يعرض الأمر على فاروق بل تحدث فيه مع نازلى.. ورفضت نازلى طبعا. وعاد حسنين وأبلغ زوجته أن جلالة الملك لا يوافق على سفرها.. لأن الرحلة شبه رسمية ولا مكان فيها لزوجات الموظفين من رجال الحاشية.

ولكن لطفية ـ رحمها الله ـ لم تقتنع. وذهبت تسأل وتستقصى إلى أن علمت

وتأكدت أن زوجها لم يحدث «فاروق» فى أمرها وأن «فاروق» خالى الذهن تماما من هذا الموضوع .

وهنا أدركت أن نازلى هى التى تعارض فى سفرها! أو لعله هو ـ حسنين ـ الذى لا يريد أن تسافر معه . . مراعاة لخاطر الملكة!

والإشاعات إذن صحيحة . ونشبت الثورة . . وعلا الصراخ والبكاء فى بيت أحمد محمد حسنين وانفجرت الزوجة الرقيقة الطيبة القلب .

* * *

وكان أحمد محمد حسنين ـ كما قلت فى فصل سابق ـ يحب زوجته لطفية حبا أكيدا . . ولكنه كان يحب السلطة والمجد أكثر مما يحب زوجته . ولقد عرفت حسنين اثنتى عشرة سنة واختلطت به عن قرب وكثيرا ما رفعنا «الكلفة» فى مناسبات عديدة وفتح كل منا قلبه لصاحبه . . وأستطيع اليوم أن أقول إن حسنين باشا ـ رحمه الله ـ لم يكن الرجل الذى يلبى نداء قلبه ويعرض عن حكم العقل! كلا!

كان العقل عنده دائمًا مقدما على القلب .

والخطة التى درسها ورسم خيوطها لا بد أن تنجح ولو كان الثمن على حساب حبه وحب زوجته .

ومن أجل أن تنجح هذه الخطة كان لا بد أن تبقى زوجته لطفية فى مصر . . بل لو أن الملكة نازلى نفسها كانت طلبت من حسنين أن تصحبه زوجته فى هذه الرحلة ولو من باب التعمية وذر الرماد فى العيون لكان حسنين قد رفض طلب نازلى وأصر على أن تبقى زوجته فى مصر . ذلك لأنه كان يعرف زوجته حق المعرفة ويعرف مقدار حبها له وغيرتها عليه . وأنها وهى ابنة الأميرة شويكار ومن أفراد البيت المالك لن تبالى إذا اضطرمت نار غيرتها أن تقذف بالاتهام فى وجه نازلى ملكة مصر! وبعد! من تكون نازلى هذه؟! إنها ابنة عبد الرحيم باشا صبرى المدير السابق لمديرية المنوفية! أما هى ـ لطفية ـ فإنها ابنة شويكار وحفيدة محمد على!

وهذا كلام سبق أن سمعه حسنين من فم زوجته لطفية! ماذا يحدث إذن لو أنه سمح لها بالسفر معه إلى أوروبا . . ولاحظت هى . . بإحساس الغيرة المرهف

وعينى الزوجة المفتوحتين، ماذا يحدث لو لاحظت ما هنالك أو بعض ما هنالك بين نازلى وحسنين؟

سوف تكون فضيحة ومشهدا مثيرا . . وتفشل الخطة التى رسمها ليحقق مطامعه وهى أن يصبح الرجل الأول فى الدولة . . بعد الملك . . وأن يسيطر على الملك فاروق عن طريق أمه نازلى!

كلا، لا بد أن تبقى لطفية فى مصر.

وهكذا كان. وخرج حسنين من داره فى يوم ٢٧ فبراير ١٩٣٧ ليرافق الملك فى القطار الخاص إلى بورسعيد. والباخرة . . وأوروبا، وترك وراءه زوجة ثائرة تسب وتشتم وتهدد وتتوعد بأنها لن تسكت على نازلى . . كلا . . ولا ألف مثل نازلى!

* * *

وكان الوزراء ورئيسهم «رفعة» مصطفى النحاس باشا قد رافقوا «فاروق» فى القطار الخاص إلى بور سعيد ثم صعدوا إلى ظهر الباخرة وودعوه.

وفوجئ النحاس باشا ومكرم باشا برؤيتى على ظهر الباخرة مع أفراد الحاشية التى ترافق «فاروق» فى رحلته إلى أوروبا.

- تسافر؟! . . إزاى الكلام ده . . إزاى . . إزاى؟!

وكررها نحو عشر مرات.

- وسايب الجرنال لمين؟

قلت: البركة فى محمود وكريم.

وقال «رفعته»: محمود وكريم! . . محمود وكريم! . . لا . . لا . . لا . . ياسى التابعى . . لا . . لا ياسى التابعى.

وكررها نحو عشر مرات . . وتدخل مكرم باشا وقال وهو يهدئ من غضب رئيس الوفد:

- صحيح الأستاذ التابعى غلطان . . كان يجب يقول لنا ويستأذن من رفعتك . . لكن أنت تعرف يا باشا أن الأستاذ التابعى يحب السفر . . والتهييص.

قال هذا وهو يضحك ويربت على كتفى .

ولكن النحاس باشا انطلق مرة أخرى يقول :

ـ التهييص . . التهييص . . تهييص إيه . . تهييص إيه؟!

وكررها نحو عشر مرات . . ثم عاد وانطلق :

ـ والجرنال . . والجرنال يا مكرم؟

ذلك لأن النحاس باشا لم تكن له يومئذ أقل ثقة فى صدق أو إخلاص وفدية شريكيه الاثنين محمود أبو الفتح وكريم ثابت ـ وخصوصا محمود ـ وكنا نحن الثلاثة قد أصدرنا فى شهر أكتوبر السابق أى منذ نحو خمسة أشهر جريدة «المصرى» على «مبادئ وسياسة الوفد المصرى» .

والتفت رفعته يسألنى مرة أخرى :

ـ ومسافر وسايب الجرنال لمحمود وكريم؟! وعاوزنى أقول لك إيه؟! أقول لك مع السلامة يا سى التابعى؟! طيب مع السلامة ياسى التابعى! . . آه . . مع السلامة . . مع السلامة . . آه . . وادى كمان بوسة ياسى التابعى .

وعانقنى الرجل الطيب القلب وقبلنى . . وغادر «رفعته» والوزراء والمودعون السفينة .

وبعد منتصف الليل بقليل تحركت السفينة «فايسروى أوف إنديا» وغادرت الميناء .

* * *

وكان على واجب يجب أن أؤديه .

كانت «المصرى» قد أوفدت ـ فيما أذكر ـ الأستاذ عبد الحليم الغمراوى ليوافيها بأنباء الرحلة الملكية من القاهرة إلى ساعة قيام الباخرة من بور سعيد .

وكان على أن أوافى الجريدة بأنباء الرحلة بعد قيام الباخرة . . وماذا فعل الملك

والملكة والأميرات وأين تناولوا العشاء وكيف أمضوا السهرة الأولى على ظهر الباخرة. . إلى آخره.

ورحت أطوف بالباخرة وأجمع المعلومات والتفاصيل بعضها بالمشاهدة وبعضها الآخر من رجال الحاشية. . ثم كتبت البرقية التى كان على أن أرسلها فورا عن طريق اللاسلكى إلى جريدة المصرى لتظهر فى عدد الصباح.

ولكن أين مكتب اللاسلكى فى هذه الباخرة الضخمة وهى من عابرات المحيط وكانت قادمة من أستراليا وفى طريقها إلى إنجلترا؟

وسألت. . وقيل لى إنه فى أعلى سطح السفينة. . حيث توجد غرفة القيادة وغرفة نوم القبطان. . وبعض زوارق النجاة. . ولا شىء آخر.

وتسلقت عدداً كبيرا من السلالم الضيقة ـ ذات الدرجات الحديدية بين سطح وسطح ـ إلى أن وصلت إلى السطح الأعلى.

وكان الظلام تاما وشاملا إلا من نور خافت ينبعث من غرفة مكتب تلغراف اللاسلكى.

ودخلت وناولت البرقية إلى عامل اللاسلكى وانتظرت حتى قرأها. . وخرجت. . ووقفت قليلا ريثما تعتاد عيناى الظلام.

وهنا تبينت ـ على مسافة غير بعيدة ـ شبحين مستندين إلى حاجز الباخرة. . وكأنهما كانا يتفرجان على أنوار بور سعيد وهى تومض من بعيد. . وكانا الملكة نازلى وأحمد حسنين! ولم يكن فى وقفتهما معا شىء يريب. . الملكة تريد أن تتفرج على بور سعيد من على ظهر الباخرة. . أو لعلها كانت تريد أن تلقى نظرة أخيرة على شاطئ الوطن! ويصاحبها كبير الحاشية ورائد ابنها الملك.

لا شىء عجيب أو مريب فى هذا كله. . فقط!

فقط كانت الملكة تتكئ على حاجز السفينة. . وكانت يد حسنين تتكئ على كتفها!

وكانت هذه أول «علامة» أكدت عندى صدق الإشاعات!

وحدث ذات مساء - أثناء رحلتنا بالباخرة وكنا فى قاعة الرقص - أن تقدم إنجليزى كان قد تناول من الخمر أكثر مما يحتمل رأسه - وكانت الباخرة مزدحمة بالإنجليز العائدين من أستراليا والهند وعدن - تقدم هذا الإنجليزى المخمور من السيدة زينب ذو الفقار وانحنى أمامها باحترام وهو يكاد يفقد توازنه من فرط السكر والتمس من «جلالتها» أن تسمح له بهذه الرقصة!

وكانت أوركسترا الباخرة تعزف موسيقى رقص. . وتلفتت زينب هانم حولها. . كأنها تبحث عن منقذ أو منفذ للنجاة. . فلم تجد!

وكان الرجل مخمورا كما قلت. . ولحوحا ولو أن إلحاحه كان فى أدب يليق بمن يقف أمام «صاحبة الجلالة ملكة مصر»!

ورأت زينب هانم أنه من الأفضل ألا تثير ضجة أو تلفت الأنظار، فقامت وراقصت الرجل. . ثم غادرت القاعة فورا.

هذا والرجل يعتقد وأصحابه يعتقدون أن السيدة التى رقص معها هى ملكة مصر!

واتصل الخبر بفاروق فغضب غضبا شديدا وتساءل: أين كان حسنين؟ ولماذا لم يتدخل ويوقف الرجل عند حده أو يأمر ضباط السفينة بطرده من القاعة؟ . . إلى آخره.

ولكن حسنين كان كالعادة يلازم الملكة نازلى. . أو يتنزه معها فى مكان ما أو ركن ما على ظهر الباخرة الضخمة!

وفى الصباح ذهب حسنين إلى الإنجليزى المذكور - وكان قد فاق من سكره وقال له أمام أصحابه إنه أخطأ مرتين.

أولاً - أخطأ لأنه ألح على سيدة ما بأن ترقص معه.

وثانيا - أخطأ لأن هذه السيدة ليست ملكة مصر كما يعتقد. . بل هى السيدة المرافقة لجلالة ملكة مصر!

واعتذر الرجل. . وعرض أن يقدم اعتذاره لملكة مصر. . وللسيدة التى رقص معها، ولكن حسنين اكتفى بقبول الاعتذار بالنيابة عنهما.

وعاد حسنين وأبلغ «فاروق» النتيجة . . وغضب فاروق وصاح فى حسنين :

ـ كان لازم تضربه قلمين!

وأجاب حسنين :

ـ وهل كان يسكت على القلمين؟ . . أبداً . . كان ضربنى بوكس! وكنت ضربته بوكس ووقعنا فى خناقة وفضيحة على ظهر الباخرة! وكان الخبر طار باللاسلكى إلى صحف أوروبا وأمريكا . . والحكاية كبرت . . والإشاعات كثرت عن سبب الخناقة . . وكانت ألف حكاية وحكاية خرجت تتحدث وتروى ما حدث وما لم يحدث عن الرجل السكران الذى رقص مع ملكة مصر!

* * *

وكانت أول مرحلة فى الرحلة الملكية سويسرا . . وسان موريتز التى كانت الثلوج تغطيها فقد كنا لا نزال فى موسم الشتاء .

وحاول فاروق فى أول الأمر أن يتعلم «السكى» ski أى الزحلقة على الجليد، ولكنه وجدها رياضة شاقة وخطرة فانصرف عنها . . إلى اللهو ومغازلة من فى الفندق ـ فندق سوفريتا ـ من فتيات . . ولكنه كان غزل أطفال وأشهد أن وجه فاروق كان يومئذ يعرف الحياء والاحمرار . . وكان يرتبك إذا ابتسمت له فتاة . . أو وقفت تتحدث إليه . . وكان لا يعرف ماذا يفعل بيديه! فكان يشبك أصابعهما حينا . . ثم يضع إحداهما فى جيب البنطلون . . ثم يخرجها ويمسك بإصبعين منها طرف جيب الصديرى . . هذا وهو يضع ثقله حينا على قدمه اليمنى . . وحينا آخر على قدمه اليسرى . . وهكذا!

وكانت أول غزوة له مع شقيقتين من نبيلات السويد فكان يخرج معهما للنزهة على ظهور الجياد .

وبعد أن سافرت الشقيقتان السويديتان . . أخذ «يلتفت» إلى فتاة مجرية ولكنه لم يلبث أن سئمها وتضايق منها لأنها كانت تلاحقه فى كل مكان يذهب إليه .

وكان حسنين باشا يرى ويسمع ويراقب ولكن فى حذر شديد بل كان يتظاهر

ـ وأمام فاروق ـ بأنه لا يرى ولا يسمع ولا يعرف شيئًا عن مغازلات ومغامرات صاحب الجلالة .

وقال لى مرة :

ـ إن الملك لا يزال ينظر إلى ـ ومنذ أيامنا فى لندن ـ نظرة التلميذ إلى الأستاذ . . وبيننا الآن ما يكون بين الاثنين من كلفة وتحفظ . وهذا كما أعتقد من مصلحته ومصلحتى . . ويوم يشعر فاروق أننى أعرف كل شىء عن مغازلاته ومغامراته هو يوم تزول الكلفة ويخرج على المكشوف ويفقد كل احترامه لى ولا يبالى بعدها بشىء .

وفى مرة أخرى قال لى وعلى فمه ابتسامة ساخرة :

ـ عقب وفاة الملك فؤاد وعودتنا من لندن اتصلت بى سيدات كثيرات من هوانم مصر وبنات أعرق الأسر فيها . . اتصلن بى وتحدثن إلى فى لباقة ودبلوماسية رفيعة عن الملك . . الشاب الممتلئة عروقه بدم الشباب الحار . . وعن صحته وما تتطلبه هذه الصحة الغالية . . وتحدثن كذلك عن السن الحرجة ـ سن الخامسة عشرة والسادسة عشرة ـ وعن المتعة الصحية التى لا بد منها لشاب موفور الصحة مثل «مولانا الملك» . . وعرضن بكل لباقة ورقة وكياسة ـ وبكل أمانة وحرص وحذر ـ عرضن خدماتهن على جلالة الملك . . وأبدين استعدادهن لأن يقدمن «البضاعة الصحية» إما فى قصورهن . . أو إلى القصر الملكى مباشرة . كما يشاء . . !

وروى لى حسنين ـ رحمه الله ـ تفاصيل كثيرة وأسماء كثيرة . . إلى آخر ما لا يمكن ولا يجوز أن يشار إليه ولو تلميحا أو من بعيد .

وقال :

ـ وكنت أقول لهؤلاء الهوانم إن «مولانا الملك» لن يرضى ولن يوافق إذا عرف أن لى دخلا فى هذا الموضوع أو أننى مطلع على أسراره «الصحية» ، وأن الأفضل والحالة هذه أن يحاولن الاتصال بجلالة الملك وعرض خدماتهن عليه من طريق آخر غير طريقى .

* * *

ولعل رجولة أحمد حسنين ـ وما من أحد حتى من خصومه أنكر عليه رجولته ـ أقول لعل رجولته نفرت وأبت عليه أن ينزل إلى القيام بمثل هذا الدور أو هذه الوساطة.

وبعد.. لقد كانت خطة حسنين تفرض عليه ـ إذا قدر لها النجاح ـ أن يكون قائد الملك.. لا قواده.. أن يكون الرجل القوى الذى يوجه الملك ويرشده ويسيطر عليه ـ عن طريق أمه الملكة نازلى ـ لا الرجل الذليل الرخيص الذى يشترك فى «توريد البضاعة أو المتعة الصحية» للملك الشاب!

وهل كانت نازلى كامرأة لها كبرياؤها.. هل كانت ترضى عن حسنين وتخضع له وتأتمر بأوامره، لو أنه قام لابنها بدور القواد.. لا دور القائد؟

كل شىء إذن.. وكل مصلحة.. وكل سبب.. فضلا عن دواعى الرجولة والخلق القوى.. كل شىء إذن كان يفرض على أحمد حسنين أن يبتعد عن هذا الجانب من حياة فاروق.

ولعل فى هذه الصفحة الموجزة ردا على الذين زعموا أن حسنين هو الذى علم فاروق الفسق والفجور!

* * *

وكان حسنين طول هذه الرحلة حريصا على مقامه واحترامه فى نفس فاروق.. وحريصا فى نفس الوقت على تقوية قبضته على نازلى الملكة وأم فاروق.

وكانت الأميرات الشقيقات قد بدأن يتعلمن فى ساحة الفندق المغطاة بالجليد.. الزحلقة بالقبقاب skating، وكانت أكثرهن حماسة ورغبة فى التعليم فتحية التى كانت لا تزال يومئذ فى السابعة من عمرها.. ولم تكن تبالى أن تقع عشر أو عشرين مرة فى كل صباح.

وذات يوم نزلت الملكة نازلى نفسها تريد أن تتعلم هى أيضا.. وأمسك المدرب بذراعها.. وأحاط خصرها بيده.. وراح يعلمها كيف تنقل قدميها والقبقاب فوق الجليد.

وصاحبة الجلالة تتثنى وتتمايل . . والمصورون يلتقطون لها الصور فى هذه الأوضاع .

ووقف حسنين على درج السلم الخشبى الموصل بين الشرفة وساحة الزحلقة . . ومضت دقائق والملكة نازلى تحاول أن تتعلم وتمشى بالقبقاب . . وتحفظ توازنها . . وتضحك . . وأخيرا عادت أدراجها وخلعت قبقابها . .

هذا وحسنين واقف ينتظر وعلى عينيه نظارة تحمى البصر من وهج الثلوج .

وأقبلت نازلى . .

وانفجر حسنين . . ولكن صوته لم يعل عن طبقته العادية :

ـ لا . . لا . . مش كده يا ست ! . . مش كده أبدا . . بكره راح نسمع كلام فارغ كثير بسببك !

ولم تزد هى ـ صاحبة الجلالة ـ عن أن تبتسم فى وجهه . . وهى تصعد إليه درجات السلم الخشبى . . حتى إذا وصلت أخذت بذراعه وهى تقول :

ـ طيب خلاص . . مرة وفاتت !

وعجبت لهذه اللهجة التى يخاطب بها موظف القصر صاحبة الجلالة الملكة وأم ملك مصر .

وعجبت أكثر وأكثر لخضوع صاحبة الجلالة ! . . فهى لم تغضب . . بل اعتذرت . . وتابت !

* * *

وكان ما خاف حسنين أن يكون . . ونشرت صحف مصر بعض هذه الصور التى ظهرت فيها الملكة نازلى وهى تتزحلق على الجليد .

وقامت مظاهرة من طلبة الأزهر الشريف وتعالت فيها أصوات الاحتجاج والمناداة بالحياة والسقوط .

وبادر رئيس مجلس الوصاية وولى العهد الأمير محمد على توفيق وأرسل إلى حسنين باشا خطابا شديد اللهجة يوبخه فيه بقسوة على سماحه للمصورين بالتقاط

هذه الصور . . وعلى سماحه لملكة مصر بالزحلقة على الجليد . . وعلى . . وعلى . . . إلخ .

ـ وهز فاروق كتفيه . . وقهقه ضاحكا . . أما نازلى فقد غضبت وثارت وعلا صوتها وهى تصيح :

ـ كفاية بأه . . كفاية سبعتاشر سنة وأنا محبوسة ! . . خدوا الكورونا من على رأسى . . مش عايزاها . . (والكورونا معناها التاج) !

غضبت الملكة نازلى من خطاب الأمير محمد على توفيق وأعلنت أنها وقد أمضت فى سجن الملك فؤاد سبعة عشر عاما تريد اليوم أن تكون حرة . . وإلا فإنها لا تريد هذا التاج على رأسها . . ثم انطلقت تسب الأزهر والأزهريين وتدعو الله أن يصيب «البرنس» محمد على بكذا وكذا وكيت . .

ولزمت صاحبة الجلالة جناحها الخاص بالفندق يومين غاضبة وانقطعت عن تلقى دروسها فى الزحلقة على الجليد . .

وفى نفس الوقت تلقيت «أمرا ملكيا» من فاروق أن أكتب إلى زملائى الصحفيين فى مصر وأطلب منهم أن يكفوا عن نشر أية صور لجلالة الملكة نازلى . . اللهم إلا الصور التى تظهر فيها مع جلالة الملك فاروق .

أما صورها وحدها . . أو مع الأميرات فممنوع النشر . وصدعت بالأمر الملكى وكتبت فى هذا المعنى خطابات خاصة إلى : «الأهرام والمقطم والمصرى ودار الهلال واللطائف المصورة» إلى آخره . .

واستجاب الزملاء لرجائى ولم يشر أحد منهم إلى خطابى الخاص . . ما عدا المرحوم إسكندر مكاريوس صاحب مجلة اللطائف المصورة، فقد نشر على صفحة كاملة من مجلته خلاصة لخطابى الخاص وتعليقا له قال فيه : إن الصحافة حرة، فى حدود القانون . . وإننا فى القرن العشرين وعصر الديمقراطية وحقوق الإنسان وإن «صاحبة الجلالة» الصحافة حرة فى نشر ما يحلو لها من صور أصحاب وصاحبات الجلالة . . ولتفعل بنا القوة ما تشاء ! . .

وكلام فخم كثير فى هذا المعنى! ومن يومها حرمت «اللطائف» وصاحبها من العطف الملكى السامى! فلم تدع أو يدع صاحبها إلى أى حفلة من الحفلات التى كانت تدعى إليها الصحف وأصحابها ورؤساء تحريرها فى قصر عابدين.

* * *

غضبت الملكة نازلى.. ولزمت جناحها الخاص... وشكا جميع من كانوا معها من «عصبيتها» وحدة لسانها..

وذات صباح تلقى فاروق من مصر برقية تقول إن صاحب السمو الملكى الأمير محمد على قد أصيب بذبحة صدرية وإن حالته خطرة..

وهنا عادت الابتسامة إلى شفتى الملكة نازلى وقالت لمن حولها: «أبواب السماء كانت مفتوحة لما دعيت عليه!.. دنا دعاياماينزلش الأرض!».

وغادرنا سان موريتز فى مساء ٢٥ مارس إلى جنيف. فوصلنا إليها صباح اليوم التالى ٢٦ مارس..

وجنيف مدينة تتوافر فيها أسباب اللهو لمن يريد أن يلهو.. وفيها أركان منعزلة.. ومحلات أنيقة لتناول الشاى وصالونات خاصة.. ونزهات بالسيارة خارج المدينة.. أو بزورق بخارى فى بحيرة ليمان الشهيرة..

وفى جنيف بدأنا نلاحظ كثرة خروج أحمد حسنين مع الملكة نازلى وحدهما.. وأحيانا معهما السيدة الجليلة زينب ذو الفقار.

ثم فوجئنا بخبر سفر حسين صبرى باشا خال فاروق مع السيدة الكريمة زوجته عائدين إلى مصر، مع أنه كان مقررا أنهما سيلازمان الملك والملكة طول الرحلة فى أوروبا..

ودار همس خفى بأنهما سافرا لأنهما غير راضيين عن سلوك الملكة نازلى معهما!.. فقط؟ أم هناك شىء آخر؟.. لا أعرف. ولقد بقى السر معهما حتى اليوم.

* * *

وهكذا . . أقمنا أياما فى مدينة چنيف . . وكان أحمد حسنين يخرج مع الملكة !

والقائم مقام عمر فتحى يخرج مع الملك !

ولم يخرج الأربعة معا إلا فيما ندر!

وذات صباح ـ وكنا وقوفا فى بهو الفندق ننتظر نزول صاحب الجلالة من جناحه الخاص ـ أقبل علينا فاروق و على وجهه مسحة من الحزن والجد وألقى علينا تحية الصباح ثم قال :

ـ البقية فى حياتكم . . الأمير محمد على مات!

وأسدل كل منا على وجهه نقابا من الحزن . . وأطرقنا برءوسنا كما كان ينبغى أن نفعل . . وتمتم بعضنا بعبارات العزاء والدعاء لله أن يطيل فى عمر مولانا . .

وتسللت أنا على أطراف أصابعى إلى غرفة مجاورة فيها مكتب وأدوات للكتابة وجلست أكتب صيغة برقية إلى جريدة «المصرى» وأصف فيها وقع الخبر الأليم فى نفس جلالة الملك وماذا فعل وماذا قال وكيف قدم إليه أفراد الحاشية عزاءهم ضارعين إلى الله أن . . إلى آخره .

وبينما أنا كذلك دخل علىّ حسنين باشا وسألنى ماذا أفعل؟ و على وجهه ابتسامة . . وقلت : إننى أكتب برقية للمصرى بما حدث!

قال رحمه الله . .

ـ برقية إيه يا مدب . . مولانا ضحك عليكم والنهارده أول إبريل! . .

* * *

وفى نفس اليوم ـ على ما أذكر ـ استأذنت من فاروق فى السفر إلى «مونتريه» لكى أوافى جريدة المصرى بأخبار مؤتمر إلغاء الامتيازات الأجنبية ريثما يصل الأستاذ محمود أبو الفتح الذى كان أرسل لى برقية يقول فيها إنه مضطر للبقاء فى مدينة ميلانو بضعة أيام بسبب إصابته بعرق النسا!

وأذن لى فاروق بالسفر وطلب منى أن أبلغ تحياته إلى «رفعة» النحاس باشا وزملائه وتمنيات جلالته لهم بالتوفيق

وسافرت إلى «مونتريه» وبقيت فيها عشرة أيام . . وكان عجيبا حقا أن أسمع هناك لأول مرة ـ ومن الدكتور أحمد ماهر رحمه الله ـ أول إشاعة تربط بين اسم فاروق واسم صافيناز . . فقد خرجنا ذات مساء أنا والدكتور أحمد ماهر وجورج دومانى بك وكلاهما عضو فى وفد مصر لدى مؤتمر إلغاء الامتيازات الأجنبية . . خرجنا نتمشى على ضفة بحيرة ليمان فى الطريق إلى «فيفيه» وسألنى أحمد ماهر :

ـ صحيح جلالة الملك راح يتجوز الآنسة صافيناز؟

ودهشت . وعجبت من أين جاءت هذه الإشاعة ، فقد كان شهر كامل مضى علىَّ أرى فى كل يوم فيه الملك فاروق والآنسة صافيناز ذو الفقار دون أن ألاحظ شيئا . .

كان فاروق يعاملها كما يعامل شقيقاته الصغيرات . . وكان أفراد الحاشية ـ وأنا معهم ـ يعاملونها بأدب جم ولكن بدون كلفة . .

كنا مثلا نبتسم إذا لقيناها ونحييها . .

ـ بونچور مدموازيل! أو بونچور «فافيت»!

و«فافيت» تدليع صافيناز . . وكانت هى ترد التحية بأدب واحتشام وتقول :

ـ بونچور إكسلانس . . أو بونچور يا أستاذ!

ولم يخطر ببال أحدنا ـ أو بالى أنا على الأقل ـ أن هناك شيئا ما بين فاروق وصافيناز . . أو أن «فافيت» هى ملكة مصر القادمة!

دهشت إذن وعجبت وسألت الدكتور أحمد ماهر من أين سمع هذا الخبر؟

وضحك رحمه الله وقد ظن أننى وقد وقفت على هذا السر بحكم ملازمتى لحاشية الملك وأرى من واجبى أن أكتم سر الملك وصافيناز . .

وضحك وقال :

ـ طيب ما تعملش عبيط! . . الحكاية سمعناها فى مصر .

أى أن الخبر طار إلى مصر من قبل أن نلاحظ شيئا نحن الذين كنا مع فاروق وصافيناز!

والتفسير الوحيد عندى هو أن حسين صبرى خال الملك والسيدة زوجته هما اللذن أذاعا السر فى مصر

* * *

وكان فاروق ومن معه قد غادروا چنيف إلى مدينة برن . . وفى برن ـ كما علمت فيما بعد من أصدقائى رجال الحاشية ـ بدت من فاروق أول إشارة تدل على حقيقة عواطفه نحو الآنسة صافيناز . .

كانت صافيناز تتناول طعامها دائما مع الأميرات فوزية وفايزة وفايقة وفتحية . . ثم تنسحب معهن بعد تناول العشاء مباشرة لتأوى كل منهن إلى غرفتها .

وكان غير مسموح لهن بالسهر . .

ولكن حدث فى برن ـ ولأول مرة ـ أن نزلت الآنسة صافيناز وهى ترتدى ثوبا من ثياب السهرة . .

ولم تنسحب بعد تناول العشاء مع الأميرات كما كانت تفعل ، بل بقيت فى قاعة الفندق الكبرى .

ثم دعاها فاروق للرقص معه . . ورقص الاثنان معا أكثر من مرة فى تلك السهرة . . وكانت تلك أول مرة كما قلت . . وكانت هذه أول إشارة أو أول خطوة خطاها فاروق إلى صافيناز . .

ولم تحدث هذه الإشارة أو هذه الخطوة إلا فى «برن» . . ولكن إشاعة الزواج كانت فى مصر قبل أن يصل فاروق وصافيناز إلى برن وقبل أن يرقصا معا ! . .

* * *

وأنهيت مأموريتى فى مونتريه ولحقت بفاروق وحاشيته فى مدينة زيوريخ . . وبعد أيام سافرنا إلى باريس ! . . باريس التى كانت نازلى ـ كما قالت مرارا ـ تشتهى أن تزورها قبل أن تموت !

وكنا جميعا قد انتهينا إلى تقرير أمرين أو حقيقتين وهما :

فاروق يحب صافيناز . .

ونازلى تحب حسنين . .

وحسنين؟ . . هل كان يحب نازلى؟

لا أعتقد ولا أحد غيرى كان يعتقد هذا . . والحقيقة أن الأثر الذى انطبع يومئذ فى نفوسنا هو أن نازلى هى التى تجرى وراء حسنين . . وأن حسنين «تقيل»! ثم لعله كان يتعمد أن يثير غيرتها عليه فى بعض الظروف . . فقد لاحظت أن حسنين كان يحرص على التودد والتظرف والتحدث مع كل سيدة أو آنسة جميلة يلقاها فى قاعة الفندق . . إذا كانت الملكة نازلى موجودة!

. . بل كان يطلب منا إذا رأى مع أحدنا فتاة جميلة من المقيمات بالفندق، كان يطلب منا أن نقدمه إليها . . ثم يدعوها للرقص . . أو لتناول شراب ما . . كل هذا إذا كانت الملكة نازلى موجودة . . ترى وتسجل وتنقر بأصابعها على المائدة الصغيرة أو على ذراعى المقعد بغضب وعصبية!

أما إذا لم تكن موجودة فإن حسنين كان قليل الاكتراث بالسيدات و الآنسات . . وكان لا يتحرك لدخول أى جميلة مهما كان جمالها يبهر الأبصار أو يلفت الأنظار!

وحدث مرة ـ وكنا لا نزال فى سان موريتز ـ أن قام حسنين يراقص فتاة ألمانية كنت أعرفها واسمها «جوى جيجل» وكانت معدودة يومئذ من أبطال التنس فى ألمانيا وحسنين راقص رشيق بارع

والفتاة الألمانية طويلة القامة هيفاء العود .

وطال رقص الاثنين . .

وانتفضت الملكة نازلى واقفة . . ونادت بصوت ينم عن الغضب :

ـ حسنين!

وأرخى حسنين على الفور ذراعه التى كانت تطوق خصر الفتاة وأسرع إلى الملكة نازلى .

ـ أفندم ماچستيه . .

أى أفندم يا صاحبة الجلالة . .

وخرجت «ماجستيه» من قاعة الرقص . . ووراءها أحمد حسنين . .

وتبادل بعضنا النظرات . .

أما فاروق فكان يرقص ساعتئذ مع شهيرة هانم زوجة خاله حسين صبرى باشا ولعله لم يلاحظ شيئا . .

وأكبر ظنى أن «فاروق» لم يكن يومئذ يخامره أى شك فى سلوك أمه أو فى حقيقة علاقتها بأحمد حسنين . .

كان فاروق يومئذ لا يزال يحسن الظن بأمه . . ويحسن الظن برائده أحمد حسنين . .

* * *

قلت : إن أحدا منا لم يكن يعتقد أن حسنين باشا ممثل بارع . وإن كل إشارة منه بحساب وكل خطوة بحساب وكل نظرة وكل عبارة موزونة بالدرهم والمثقال . . وإنه ـ فى كلمة واحدة ـ لا يفعل شيئا اعتباطا أو «لوجه الله» . .

إنه لم يكن يحب نازلى . وهذا أمر كان مفروغا منه عند الذين يعرفون أحمد حسنين .

ولكنه كان حريصا على أن تحبه هى . . ومن هنا كان يتعمد ـ كما ذكرت ـ أن يثير غيرتها . .

لماذا؟ لماذا يحملها على أن تحبه . . بينما هو لا يحبها؟ لكى يخضعها لإرادته . . ويسيطر عليها . . وقديما قالوا : «إن الأقوى بين كل محبين اثنين هو الذى يحب أقل من صاحبه» . . والذى يسيطر على نازلى يسهل عليه أن يسيطر ـ من ورائها ـ على فاروق . .

وكان الأمر واضحا لكل ذى عينين ومنذ كنا فى أوروبا فى صيف عام ١٩٣٧

* * *

وكان حسنين يعامل نازلى أمامنا معاملة الموظف المرءوس لصاحبة الجلالة . . أى بكل الاحترام والطاعة والأدب

رغم ذلك كانت تبدو منه ـ ربما عفوا ـ بعض الإشارات أو العبارات التى وإن كانت لا تتنافى مع الاحترام والأدب إلا أنها كانت تنم بكل تأكيد عن القوة . . أو السيطرة . . وأنه هو الأقوى . . وأن كلمته هى التى يجب أن تنفذ!

دخلت عليه مرة ذات صباح فى غرفته بفندق «بلاتزا أتنيه» حيث كان ينزل الملك والملكة والأميرات والحاشية . . وكان حسنين مسترخيا فى فراشه يتناول قهوة الصباح . وجلست فى مقعد إلى جانب الفراش .

وكنا فى أوائل شهر يونية . . وهو من أجمل شهور السنة فى باريس .

وكان اليوم يوم «أحد» . . وراح حسنين يحدثنى عن أيام شبابه وذكرياته فى باريس يوم أقام فيها وعدل عن الدراسة فى أكسفورد . . وقرر أن يدرس فن الرسم فى الحى اللاتينى .

وحسنين ـ حين يريد ـ كان يستطيع أن يتحدث كشاعر وأن يحلق بسامعه فى سماوات الأحلام . .

ودق جرس التليفون الموضوع بجانب السرير . . وتناول حسنين السماعة . . وسمعت صوتا نسائيا . . واعتدل حسنين فى فراشه وقال :

ـ صباح الخير ماچستيه . .

وأدركت أن التى تكلمه هى الملكة نازلى . . ووقفت أريد الانسحاب ولكنه أشار إلى بيده أن اجلس . . فجلست .

وكان صوت الملكة نازلى مسموعا وواضحا تماما كما يحدث أحيانا فى بعض آلات التليفون .

وكانت جلالتها تريد أن تذهب مع «البنات» ـ كما كانت تسمى الأميرات ـ إلى ملهى «لونابارك» .

وقال حسنين :

ـ مستحيل ما چستيه! . .

ومضى يقول إن اليوم «الأحد» وإن لونابارك سيكون مزدحما بمختلف طبقات

الشعب وكل من هب ودب . . فكيف تذهب ملكة مصر وصاحبات السمو الملكى شقيقات ملك مصر إلى ملهى شعبى كهذا فى يوم الأحد؟!

وسمعت الملكة تضحك وهى تقول :

ـ يظهر أنك عجزت خلاص يا حسنين .

وألحت فى الذهاب . .

وأصر هو على الرفض!

وكان له ما أراد . . وعدلت نازلى عن الذهاب إلى لونابارك! ولكن هل كان اعتراض حسنين على ذهاب نازلى إلى ملهى لونابارك بوحى من إخلاصه وواجبه كرائد لابنها الملك ورئيس للحاشية حريص على سلامتها وسلامة الأميرات . . وحريص على مكانتها كملكة مصر؟ . .

أم أن اعتراضه كان لمجرد الاعتراض . . ومجرد الرفض . . ومجرد خلق فرصة أو مناسبة يقول فيها : «لا» . . ويرغمها ـ ملكة مصر ـ على أن تخضع وتقول له : «نعم»؟!

كان هذا هو الواقع . . واعتراض حسنين كان من باب «الترويض»

كانت نازلى ـ كما قلت ـ تتحرق شوقا إلى باريس ومشاهدة كل ما فى باريس . . ومن هنا كانت تضيق أحيانا بمعارضة حسنين وتغضب وتثور . .

وكان هو إذا رأى أن ثورتها توشك أن تنفجر . . فتح قبضة يده وأرخى لها الزمام حتى إذا تعبت من العدو عاد وجمع الزمام فى قبضة يده القوية . .

وهكذا رأيت حسنين الذى عارض فى ذهاب الملكة إلى لونابارك رأيته يصحبها بنفسه إلى ما هو شر بكثير من لونابارك . . رأيته يصحبها إلى سهرات فى حانات و«صناديق الليل» فى أحياء مونمارتر ومونبارناس .

وكان يوجد وقتئذ فى حى مونبارناس ملهى أو على الأصح «ماخورة» اسمها «سفنكس» . . ترقص فيها فتيات وهن عاريات الجسد تماما حتى من ورقة شجرة التوت!

وذهبت ذات مساء مع صديقين من رجال الحاشية إلى «سنفكس» المذكور . . وأشهد أن نفوسنا اشمأزت مما رأيناه، فغادرنا الملهى أو الماخورة مسرعين . .

ولكنى سمعت بعد ذلك أن «سفنكس» كان من بين ملاهى مونبارناس التى زارتها صاحبه الجلالة ملكة مصر وفى معيتها أحمد حسنين!

والذى يستطيع أن يفهم . . يستطيع أن يعذر!

كانت نازلي بطبعها وطبيعتها ميالة للمرح والاستمتاع بكل ما فى الدنيا وكل ما فى سنوات الصبا والشباب . .

ولقد حرمت من الشاب الذى أحبته وحرمت كذلك من حق شبابها وصباها . .

وأمضت أحلى سنوات العمر سجينة فى قفص . . أو فى قصر فخم منيف سجانه الملك فؤاد . .

ومات السجان . . وتحررت السجينة . . وانطلقت ـ كما سبق أن قلت ـ انطلقت تنهل ملء راحتيها من عيون الحياة . . وهى تشعر إنه لم يبق لها من سنوات «ما بعد الصبا» إلا القليل . . ولم يبق بينها وبين الكهولة المرة الباردة إلا القليل . .

وكان حسنين الخبير بطباع النفوس يعرف هذا ويقدره . . ويعمل له حسابا . ولو أنه كان وقف دائما فى وجهها يعترض ويقول: «لا» . . لانتهى الأمر بثورة عاصفة جامحة . ومن هنا كان يشد حينا ويرخى حينا . . وهكذا استطاع أن يحفظ المظاهر ـ ولو إلى حد ما ـ وأن ينقذ ملكة مصر من انهيار خلقى نفسانى فظيع .

ولسوف يقول التاريخ الحق إن نازلى ملكة مصر لم تنفجر و«تفجر» إلا بعد موت مروضها أحمد محمد حسنين .

وذات مساء ذهب فاروق ـ ومعه بعض رجال الحاشية ـ إلى ملهى «بال تابران» فى مونمارتر ولم يجدوا مقصورة خالية أو مقاعد من مقاعد الدرجة الأولى أو الثانية . .

فقد كان الملهى المذكور كعادته مكتظا بالمئات . .

وأخيرا وقف فاروق وأصحابه فى المحل المخصص للدرجة الثالثة . .

وفى صباح اليوم التالى صدرت جريدة باريسية ـ وهى «انتراسيجان» وفيها «ريبورتاچ» أو وصف مسهب التفاصيل لزيارة ملك مصر للملهى بال تابران . .

وعنوان المقال مقتبس من قصة فيكتور هيجو المشهورة «الملك يلهو» Le roi s'amuse وكنت جالسا ـ فى نفس الصباح ـ فى بهو فندق «بلاتزا أتنيه» مع اليوزباشى أحمد الطاهر ونزل المصعد الكهربائى . . وفتح بابه . . وخرجت منه الملكة نازلى ووراءها وصيفتها الفرنسية وفى يدها عدد جريدة «الإنتراسيجان».

إذن فقد قرأت صاحبة الجلالة مقال الصحيفة الباريسية عن ابنها . . الملك يلهو!

وإذا كان فاروق . . الشاب الذى لا تزال الحياة أمامه فسيحة ممتدة . . إذا كان ينتهز فرصة وجوده بباريس ليلهو ويلعب فأولى بها هى ـ بل ومن حقها ـ أن تلهو وتلعب ولم يبق بينها و بين الكهولة وسن اليأس إلا القليل .

لعل شيئا من هذا كان يدور برأسها حين تقدم منها أحمد الطاهر وانحنى . . ومدت إليه يدها فقبلها . .

وسمعته يقول :

ـ كل عام ومولاتنا بخير . .

وابتسمت هى وقالت :

ـ خلاص يا كابتن عجزنا . . ولا بقاش إلا القليل!

وكنت قد وقفت بدورى . . ولكننى بقيت واقفا حيث كنت . . «زى اللوح» . . ولم أتحرك . . ولم أقدم لجلالتها التهانى لسبب بسيط وهو أننى لم أكن أعرف مناسبة التهنئة!

وقال يوزباشى أحمد الطاهر :

ـ النهارده عيد ميلاد الملكة نازلى

* * *

وقد دار الطاهى يومئذ على سيدات ورجال الحاشية يسأل كلا منهم وكلا منهن

عن عدد الشموع التى يضعها فى «طورطة» عيد مولد صاحبة الجلالة . . وكل شمعة بسنة من سنى حياتها المديدة .

وتهربوا جميعا من الرجل . . ومن السؤال .

وأخيرا قيل له : «ضع نفس عدد الشموع التى وضعتها فى العام الماضى» .

وكان عددها أربعا وأربعين! أى إن الملكة نازلى كان عمرها فى صيف ١٩٣٧ خمسة وأربعين عاما!

لا عجب!

وحدث أثناء إقامتنا فى باريس أن وصل وفد مصر لدى مؤتمر إلغاء الامتيازات فى مونتريه بعد توفيقه فى مهمته وهى موافقة الدول الأجنبية ذات الشأن على إلغاء الامتيازات والتنازل عن جميع حقوقها لسلطات القضاء المصرى .

وكان الوفد المذكور ـ كما ذكرت فى المقال السابق ـ برئاسة رئيس الوزارة يومئذ مصطفى النحاس باشا ، وكان من بين أعضاء الوفد الأستاذان مكرم عبيد باشا ودكتور أحمد ماهر .

ونزل النحاس باشا والسيدة قرينته فى جناح كبير بفندق چورچ الخامس .

ونزل معه فى نفس الفندق الأستاذ مكرم عبيد والسيدة قرينته أما دكتور أحمد ماهر فقد اختار ـ رحمه الله ـ فندقا من فنادق الدرجة الثانية بميدان «بيراميد» ـ أى الأهرام ـ المقام فيه تمثال لچان دارك . . بشارع ريڤولى . وهو فندق ريچينا ونزل به مع صديقه المرحوم السيد عبد الحميد البنان .

وطلب منى حسنين باشا أن أدبر له اجتماعا مع مكرم عبيد باشا . . وكلمت الأستاذ مكرم فوافق ورحب بالاجتماع بحسنين . ولكنه سألنى :

ـ ماتعرفش عايز يقابلنى ليه؟

قلت : لا أعرف . . ولكن لعله يريد أن يقول لك ما سبق أن قاله لى مرارا وهو أن الملك فؤاد مات . . وأن من حسن السياسة أن يدفن الوفد خصومته القديمة للملك فؤاد وأن ينسى مخاوفه وشكوكه من القصر ورجال القصر . . لأن العهد قد تغير . .

واجتمع الرجلان بعد ظهر أحد الأيام فى مطعم ـ مقهى «ألبافيون ده روز» بشارع الشانزلزيه . .

وصح ما توقعته ، وبدأ حسنين الحديث عن فاروق وكيف أنه وطنى ومؤمن بحقوق بلاده وحقوق شعبه . . ومتحمس لمصر وكل ما هو مصرى» . . إلى آخره . . ورجا من الوفد فى شخص مكرم عبيد أن ينسى الماضى وما كان فيه من خصومات . . وأن يبدأ مع الملك والقصر ورجال القصر عهدا جديدا يقوم على التعاون فى خدمة مصر واحترام ما للشعب من حقوق وما للملك من حقوق .

ثم قال حسنين إنه يعتقد أن لا شىء أعظم وأجدى من الصراحة . . وأنه شخصيا ليس من رجال السياسة ولا يفهم فى السياسة بل ولا يريد أن يفهم فيها أو يشتغل بها ولكنه مع ذلك يقول إنه إذا قدر عليه ـ لا قدر الله ـ أن يشتغل فى يوم ما بالسياسة فإنه سوف يجعل الصراحة مبدأه الذى لا يحيد عنه . . ولهذا فإنه يرجو من رجال الوفد ـ ومن مكرم باشا بالذات ـ أن يصارحوا القصر ورجال الملك دائما بما يريدون وما يقترحون وبأى ملاحظات لهم . وأنه ـ أى حسنين ـ يعد بأنه من جانبه سوف يكون دائما معهم فى منتهى الصراحة . . وسوف يعمل من جانبه على تحاشى كل سبب من أسباب الخلاف ويحرص على تسوية كل مشكلة وكل نزاع على أساس احترام حقوق الشعب وحقوق الملك كما حددها الدستور .

هذا ـ وحسنين يفرد يديه أمامه تواضعا واستصغارا لشأن نفسه وشأن منصبه . .

ثم يقول :

ـ ولو أننى كما قلت لا أشتغل بالسياسة ولا أفهم فيها كما أن منصبى فى القصر ليس من المناصب السياسية والحمد لله !

ورد مكرم باشا فقال ما خلاصته أن الوفد قد دفن الماضى ونسى خصوماته حتى ومن قبل وفاة المرحوم الملك فؤاد . . وأن النحاس باشا فى آخر مقابلة له مع الملك فؤاد وهو على فراش الموت أكد له إخلاص الوفد للعرش وأن الملك فؤاد قال يومئذ للنحاس باشا إنه تأكد الآن من أن مصطفى النحاس هو أخلص رجل له فى مصر ، إلى آخره .

. . وأن النحاس باشا وجميع أعضاء الوفد يحبون الملك فاروق ويستبشرون خيرا على يديه . . وأنهم يخلصون له كل الإخلاص وليس أدل على إخلاصهم لشخصه الكريم من أن الوزارة - (وزارة الوفد) - رفضت الاقتراح الذى تقدم به البرنس محمد على رئيس مجلس الوصاية برفع سن الرشد للملك من ١٨ إلى ٢٥ عاما . . وعودة الملك فاروق إلى إنجلترا ليستأنف دراسته إلى أن يبلغ سن الخامسة والعشرين .

وقال مكرم إنه يعد حسنين بأنه هو أيضا من جانبه سيعمل دائما بصراحة وإخلاص من أجل تسوية كل مشكلة وكل نزاع قد يقوم فى المستقبل بين القصر والحكومة الدستورية النيابية . . إلى آخره . . إلى آخره .

وافترق الرجلان وهما يبتسمان ، ويؤكدان - كل منهما لصاحبه - أن كل شىء سوف يسير بإذن الله على ما يرام!

وانصرف حسنين . وتركنى مع مكرم عبيد . . وقال مكرم وهو يطلق ضحكته التهكمية القصيرة :

- إيه . . حسنين عايز يفهمنى إنه عبيط خالص ولا يعرفش حاجة أبدا فى السياسة؟

قلت : جايز .

قال : لكن غرضه إيه؟

قلت : الذى فهمته من حديثه إنه خايف منكم على الملك فاروق ويريد أن يطمئن على حسن نواياكم . .

وقال مكرم : طيب وإيه حكاية التعاون دى بيننا وبينه؟

قلت : ولم لا؟ إنه الآن رائد الملك وأقرب رجال القصر إليه . . بل هو صاحب النفوذ الأول فى القصر .

وعاد مكرم وأطلق مرة أخرى ضحكته القصيرة وقال وهو يضغط على ذراعى بيده :

ـ والملكة نازلى . . هيه؟

قلت : نعم . . والحكاية معروفة . . وحسنين باشا كما قلت معاليك صاحبه النفوذ الأول عند الملكة نازلى .

* * *

وأعترف أننى لم أفهم تماما غرض حسنين باشا من مقابلة مكرم باشا إلا فى ضوء الحوادث التالية . . وسوف أعرض لها فى الوقت المناسب ولكننى لا أرى بأسا فى أن أكشف السر منذ الآن وأقول إن حسنين باشا رحمه الله كان يمهد السبيل للحصول على منصب رئيس الديوان . . وهو المنصب الذى بقى شاغرا منذ استقالة أحمد زيور باشا فى حياة الملك فؤاد . .

كان يمهد السبيل عن طريق إقناع مكرم عبيد ـ سكرتير الوفد والرجل الأول فى الوفد وصاحب الكلمة التى لا ترد عند رئيس الوفد مصطفى النحاس ، كما كان يعرف الجميع ـ عن طريق إقناع مكرم عبيد بأنه ـ أى حسنين ـ رجل لا يفهم فى السياسة . . هذا أولا . وثانيا : أنه رجل مسالم حريص على حسن العلاقات بين حكومة الأغلبية الوفدية والقصر . . وثالثا : أن عهد الملك فؤاد قد مضى وراح بخصوماته ومؤامراته ودسائسه . . وأن العهد الجديد شىء آخر ورجاله ـ الذين فى القصر ـ رجال آخرون لا يتمنون شيئا أكثر من احترام حقوق الشعب . . والمحافظة على حقوق الملك التى كفلها الدستور ولا شىء آخر . .

وهذا ما كان يتمناه الوفديون ويطالبون به من زمن طويل . . وها هو ذا حسنين يعرض عليهم خدماته ! . . حسنين (العبيط) الذى لا يفهم فى السياسة فهو إذن رجل مأمون لا يخشى شره ويمكن الوثوق به والاطمئنان إليه .

ولكنه ـ كما حرص على أن يقول لمكرم ـ فى منصب ليس من المناصب السياسية التى تجيز له الاشتغال بالسياسة أو التدخل فى الشئون أو المشاكل السياسية !

وافهم إذن يا مكرم باشا ! . . ضعوا حسنين فى منصب سياسى بالقصر وهو كفيل بالعمل على احترام الدستور واحترام حقوق الشعب والبرلمان والحكومة الدستورية . . واحترام حقوق الملك فى الحدود التى رسمها الدستور !

وفى كلمة واحدة . . سوف يضمن لكم أحمد محمد حسنين سياسة التعاون المخلص الصريح التى كنتم تتمنونها منذ زمن طويل!

وحسنين قادر على الوفاء بوعده لأنه ـ كما لابد أن سمعتم يا زعماء الوفد ـ صاحب النفوذ الأول عند فاروق . . وعند الملكة نازلى وهى بدورها صاحبة النفوذ الأول يومئذ عند ابنها الملك فاروق .

كان هذا هو تقدير حسنين باشا . ولا شك أنه تقدير سليم أو تقدير مقبول عند الساسة المسالمين أو الزعماء الذين لا يعتدون كثيرا بقوتهم أو بحقوقهم التى ينص عليها الدستور . .

ولكن ، كما أننى لم أفهم يومئذ غرض حسنين من هذه المقابلة ومن حديثه الطويل ، كذلك مكرم لم يفهم قصد حسنين . .

ويومها فهم الوفد ـ ومكرم باشا بالذات ـ غرض حسنين وهو أنه يرشح نفسه لمنصب رئيس ديوان جلالة الملك . .

رفض الوفد أن يزكى هذا الترشيح بحجة أن حسنين لم يدرس القانون . . ورئيس الديوان يجب أن يكون من رجال القانون .

وحجة أخرى وهى أن حسنين ليس من رجال السياسة وهو باعترافه لا يفهم فى السياسة . . ورئيس الديوان يجب أن يكون من رجال السياسة! . .

ومع ذلك . . فإنه إذا كانت مصر قد أنجبت سياسيا واحدا من الطراز الأول بعد عبد الخالق ثروت وإسماعيل صدقى . . فإن هذا السياسى هو أحمد محمد حسنين . . ولكنه ـ كما قلت ـ كان دائما حريصا على أن يقول لكل من يلقاه أنه لا يفهم فى السياسة ولا يريد أن يفهم فيها أو يشتغل بها من باب التمويه والتضليل ولكى يحمل الساسة والزعماء على أن يطمئنوا إليه ولا يحسبوا له حسابا!

وكان حسنين رحمه الله يسر كثيرا ويفرك يديه فرحا عندما يسمع أن فلانا من الزعماء أو الساسة يقول عنه إنه «عبيط» .

* * *

وقرر فاروق أن يسافر إلى لندن . .

وفى نفس الوقت تقرر أن يعود وفد مصر برئاسة النحاس (باشا) إلى سويسرا لكى يشهد اجتماع «المرحومة» عصبة الأمم فى چنيف ويقدم طلبا بانضمام مصر إلى الهيئة المذكورة.

وتحدد موعد «يتشرف» فيه النحاس (باشا) وأصحابه أعضاء وفد مصر بمقابلة جلالة الملك . . بمناسبة سفرهم إلى چنيف.

وفى الموعد المحدد أقبل فاروق على «الصالون» الخاص الملحق بجناحه فى الفندق ووقف حوله كبار رجال حاشيته . . فى انتظار وصول رئيس الوزراء.

ولكن النحاس باشا ـ كعادته ـ تأخر نحو ربع ساعة . . وكان فاروق يتأفف ويظهر غضبه ويقول إنه قرأ مرة أن دقة المواعيد من آداب الملوك . . ولكنه يريد أن يقرأ أن إخلاف المواعيد يعد قلة أدب من رؤساء الوزارات! . .

وفى هذا المعنى بالذات وبعد شهرين اثنين أو ثلاثة شهور كتبت جريدة «البلاغ» أكثر من مقال واحد بإمضاء صاحبها المغفور له عبد القادر حمزة باشا . . وكان ـ رحمه الله ـ يومئذ لسان حال القصر بعد أن بدأت أسباب الخصومة والخلاف تتعدد وتشتد بين القصر ورجاله من جانب وعلى رأسهم رئيس الديوان على ماهر باشا . . وبين حكومة الأغلبية الوفدية ورئيسها مصطفى النحاس، ولكننى أسرع الخطى وأسبق التاريخ.

* * *

أقبل النحاس باشا متأخرا عن الموعد المحدد نحو ربع ساعة واستقبله فاروق ولم أشهد بطبيعة الحال هذه المقابلة لأننى كنت واقفا أنتظر فى غرفة أخرى ملحقة بالصالون مع بعض أفراد الحاشية . .

ولم تطل المقابلة أكثر من دقائق . .

وفتح باب «الصالون» وخرج منه النحاس ومكرم ومن معهما.

وكان النحاس «باشا» متجهم الوجه مقطب الحاجبين . . ولم يكد يرانى حتى أشار إلى أن أتبعه.

ونزلت معهم إلى بهو الفندق وأخذ النحاس (باشا) بذراعى وقال:

ـ اللعب بدأ من دلوقت..

قلت: خيرا يا رفعة الباشا.

قال: لا.. مش خير أبدا.. أبدا.. الملك كلمنى عن حفلات التولية التى ستقام بعد عودته إلى مصر وعايز حفلة تقام فى القلعة.. آه فى القلعة.. وشيخ الأزهر.. سامع ياسى التابعى! وشيخ الأزهر يقلده فيها.. فى الحفلة دى سيف جده محمد على.. آه محمد على.. والأمراء.. الأمراء يكونوا حاضرين الحفلة ولابسين الهدوم اللى كان جدودهم بيلبسوها أيام محمد على.. وفى الحفلة دى مش عارف مين و مين رايحين يقسموا له يمين الولاء و الإخلاص!.. أيوه يا سيدى.. حفلة فى القلعة.. أنت عارف ياسى التابعى الدستور بيقول إيه؟

ولم تسعفنى ذاكرتى بأحكام الدستور ونصوصه فى هذا الموضوع وقلت:

ـ لا.. ما أعرفش يا رفعة الباشا..

وقال رفعته:

ـ ما تعرفش؟.. طيب أنا أقول لك.. الدستور بيقول إن الملك قبل أن يتولى سلطاته ويباشرها يقسم اليمين الدستورية أمام الهيئة المشتركة من أعضاء مجلس الشيوخ والنواب.. آه.. أهو ده اللى بيقوله الدستور.. ولافيش حاجة فيه عن سيف جده محمد على.. ولا عن الأمراء وهدوم الأمراء.. ولا عن شيخ الأزهر.. وأنا مش فاهم شيخ الأزهر ماله ومال مباشرة الملك لسلطاته الدستورية!

وكان شيخ الأزهر يومئذ المغفور له الشيخ المراغى ولم تكن العلاقات بينه وبين الوفديين فى أى يوم.. على ما يرام.. فقد كانوا يخشونه. وكان هو من جانبه لا يحسن الظن بهم.

وتدخل مكرم باشا فى الحديث وقال:

ـ البركة فى الأستاذ التابعى.. يحل لنا الإشكال ده.

وقال النحاس باشا وهو يتجه إلى السيارة الفخمة التى كانت تنتظره أمام الفندق:

ـ أيوه خلص لنا الحكاية دى . . وزى ما قلت مفيش غير أداء اليمين الدستورية ، تحت قبة البرلمان . ولا قلعة ولا سيف محمد على . . ولا أمراء ولا حاجة من دى أبدا . . آه . . اللى فى الدستور وبس .

وأخذت مكرم باشا إلى جانب وقلت له :

ـ ولكن الملك يسافر اليوم إلى لندن . . وأنا قاعد فى باريس . . لأن لنا مراسلا فى لندن يمكنه أن يوافى «المصرى» بأخبار الملك والرحلة الملكية فى إنجلترا .

وقال مكرم :

ـ معلهش علشان خاطرنا تسافر لندن وتسوى لنا هذه المشكلة . . و إحنا عارفين إن جلالة الملك يحبك ويثق فيك .

* * *

وكانت حكاية القلعة وسيف محمد على الذى يقدمه شيخ الأزهر إلى فاروق . . ووقوف أمراء أسرة محمد على فى صفين وهم مرتدون ثياب الإمارة فى القرن التاسع عشر إلى آخره . . كانت هذه كلها «تقليعة» من تقاليع الأمير محمد على رئيس مجلس الوصاية وقد أفضى بها إلى صحفى يعمل فى جريدة الأهرام فنشرها . . وغذاها . . وقوى الدعاية لها . . وكبرت الفكرة فى رأس الأمير محمد على وبقية الأمراء .

ولا أعرف هل كان الأمير محمد على كتب إلى فاروق فى هذا الموضوع أم أن فاروق قرأ الموضوع فى جريدة الأهرام فطابت له الفكرة ، وكانت الصحف والمجلات ترسل من مصر بالطائرة وبانتظام إلى فاروق وكان سكرتيره الخاص دكتور حسنى يقرؤها ويعرض عليه ما يرى وجوب عرضه .

أما أنا فقد كان ذهنى خاليا تماما من الموضوع لأننى لم أكن أطلع على صحف مصر ! حتى جريدة «المصرى» التى كنت يومئذ أحد أصحابها ومجلة «آخر ساعة» التى كنت صاحبها ، لم تكونا ترسلان إلى فى أوروبا ؛ لأننى لم أطلبهما ! .

* * *

وسافر فاروق إلى لندن هو وأمه وشقيقاته وجميع أفراد الحاشية . . ونزل فاروق وأفراد الحاشية من الرجال ـ ما عدا الأستاذ أحمد يوسف مدرس اللغة العربية للأميرات ـ نزلوا فى قصر «كنرى هاوس» فى كنجستون، وهو القصر الذى كان يقيم فيه فاروق أيام دراسته القصيرة فى إنجلترا .

أما الملكة نازلى وبناتها الأميرات وسيدات الحاشية ومنهن السيدة زينب ذو الفقار وكريمتها الآنسة صافيناز، فقد نزلن فى قصر استؤجر خصيصا لهن واسمه قصر (بالارد كوم) ويبعد عن قصر «كنرى هاوس» نحو كيلو مترين . .

وأقام معهن فى القصر المذكور الأستاذ أحمد يوسف . وسافرت إلى لندن بعد أيام قليلة، ونزلت فى فندق «أثانيوم كورت» فى حى بيكاديللى .

واتصلت بالتليفون فور وصولى بحسنين باشا . . وذهبت إلى «كنرى هاوس» وعرضت عليه المسألة ووجهة نظر مصطفى النحاس باشا .

وقال حسنين إن هذه مسألة سياسية ولا شأن له بالسياسة واقترح على أن أتحدث فى الموضوع مع دكتور حسنى بك سكرتير الملك .

وكان هذا شأن حسنين دائما ! . . كان يتحاشى المسائل الشائكة التى لا مصلحة له فيها . . وقد كان الموضوع ـ ولا شك ـ شائكا . . فهو اقتراح من الأمير محمد على أكبر الأمراء سنا ومقاما . . والملك فاروق متحمس للفكرة وللموضوع، ورئيس الوزراء وزعيم الأغلبية البرلمانية يعارض ويرفض العمل بالاقتراح . . هو إذن موضوع شائك . ولا مصلحة فيه لحسنين .

إذا هو لم يستطع إقناع الملك بالتخلى عن حفلة القلعة أغضب الوفديين وزعيمهم مصطفى النحاس .

وإذا هو نجح فى تسوية المسألة وإقناع فاروق . . فإنه يغضب الأمير محمد على .

* * *

وتحدثت مع دكتور حسنى فى الموضوع، وكان مما قلته أن هذه الحفلة ومراسيمها ليست من مصلحة جلالة الملك لأنها شبيهة بتتويج ملوك المسيحية . وخصوصا حفلة

تتويج ملك إنجلترا . . (وكان تتويج ملك إنجلترا الراحل جورج السادس فى نفس الشهر وتفاصيل الحفلات التى أقيمت عالقة بالأذهان) وقلت :

ومن ذلك القلعة ويقابلها فى حفلة جورج السادس كنيسة «وستمنستر آبى» . . ورئيس أساقفة كنتربرى ويقابله عندنا شيخ الأزهر .

كلا . . يا حسنى . . هذه الحفلة ليست فى مصلحة «مولانا» . . هذا من جهة . . ومن جهة أخرى فإن الوزارة الوفدية متمسكة بأحكام الدستور ، وهذه الحفلة مخالفة سافرة لأحكام الدستور . . . إلخ .

* * *

وفى اليوم التالى عدت إلى «كنرى هاوس»! . .

ونزلت من التاكسى عند «البوابة» الخارجية للقصر وكان يحرسها جندى من رجال بوليس لندن . واستوقفنى كالعادة ليتحقق من شخصيتى قبل أن يأذن لى بالدخول .

وفى هذه اللحظة رأيت فاروق راكبا دراجة «بسكليت» وصافيناز فوق دراجة أخرى والاثنان ينطلقان فى الطريق إلى المروج الخضراء الممتدة بين كنرى هاوس وقصر بالارد كوم .

إذن فقصة الحب التى بدأت فى برن «سويسرا» تسير سيرا طبيعيا . ولقد سررت كثيرا . فقد كنا جميعا نحترم ونكبر الصفات الممتازة التى تتحلى بها الآنسة صافيناز ذو الفقار .

وتناولت الغداء مع رجال الحاشية . وبعد أن انتهينا خرجت مع حسنى نتمشى فى حدائق القصر الواسعة .

وقال حسنى إنه نجح ، والحمد الله ، وإن «مولانا» قد تنازل عن فكرة حفلة القلعة وأن برنامج حفلات التولية سوف يقتصر على حفلة أداء اليمين الدستورية أمام أعضاء البرلمان .

وفى مساء نفس اليوم تقام حفلة عشاء تعقبها حفلة ساهرة فى قصر عابدين .

واليوم التالى حفلة استعراض الجيش.

ثم يستقبل الملك فى اليوم الثالث الأمراء ورجال السلك السياسى والوزراء الحاليين والسابقين والشيوخ والنواب وكبار الموظفين وطوائف وهيئات من أعيان البلاد وأطبائها ومحاميها وصحفييها.. إلى آخره.. إلى آخره..

وفى أول يوم جمعة يؤدى جلالة الملك صلاة الجمعة فى مسجد الأزهر الشريف.

هذا هو البرنامج.

وقلت أنا: عال.. ولا أظن أن لأى أحد أقل اعتراض عليه؟.. ولكنى كنت أستبق الحوادث. ومتفائلا أكثر مما ينبغى.

وكان حسنى بك لم ينته بعد من كلامه.. فقد قال: إن «مولانا» سوف يسره جدا أن يقدم له الشعب تاجا، وأن تقام حفلة تتويج كبرى يدعى لحضورها ملوك ورؤساء دول العالم.

ومضى حسنى فى شرح الفكرة أو المشروع فقال:

- ولما كان جلالة الملك ديمقراطيا بطبعه، وحريصا على أحكام الدستور التى تقول إن الأمة مصدر السلطات فإنه يرى أن تكتتب جميع طبقات الأمة بثمن هذا التاج، وأن الذى يضع التاج على رأسه هو رئيس مجلس الشيوخ.. ويضعه باسم الأمة.. وهكذا يكون التاج من الأمة، ويوضع على رأس جلالة الملك باسم الأمة.. وأعترف أننى تحمست يومئذ لهذا المشروع، ووعدت دكتور حسنى بتأييده.

* * *

وأسرعت عائدا إلى الفندق وطلبت بالتليفون مكرم عبيد باشا فى فندق «ده برج» فى چنيف وأبلغته تنازل الملك فاروق عن فكرة الحفلة الدينية فى القلعة التى يقلده فيها شيخ الأزهر سيف جده محمد على.. وقلت: إن صاحب الجلالة يقترح أن تقتصر حفلات التولية على أداء اليمين الدستورية أمام شيوخ ونواب الأمة وإقامة مأدبة عشاء تعقبها حفلة ساهرة فى قصر عابدين.. إلى آخر البرنامج الذى ذكرته.

وانطلق مكرم باشا - وفى صوته رنين الفرح - انطلق يهنئنى على توفيقى فى مهمتى ويقول:

- عظيم. . عظيم خالص. . ده توفيق من الله. . وكلنا نشكرك يا أستاذ تابعى. .

قلت:

- ولكن حسنى بك كلمنى فى مشروع آخر وأنا وافقت عليه ووعدته بتأييد المشروع عندكم.

وسألنى الأستاذ مكرم: وما هو المشروع؟. .

ورويت له حديث الدكتور حسنى عن التاج الذى تكتتب بثمنه جميع طبقات الأمة. . ثم يضعه رئيس مجلس الشيوخ باسم الأمة على رأس فاروق فى حفلة يدعى إليها ملوك ورؤساء الدول. . إلى آخره. .

وقلت: إننى أعتقد أن جلالة الملك نفسه هو صاحب فكرة التاج، وأنه فرح جدا بفكرته هذه وخصوصا بعد أن عرضها على رجال حاشيته فتحمسوا لها ووافقوه عليها.

ورويت لمكرم ما سمعته فى معرض التأييد وهو أن مصر الفرعونية القديمة كان لها «تاج». . لا تزال آثارها وجدران هياكلها ومسلاتها تحمل رسومه. . وقد فقدت مصر «تاجها» بعد أن فقدت استقلالها. . أما اليوم وقد استردت مصر استقلالها بعد عشرات القرون فقد وجب أن تسترد مصر تاجها القديم. . إلى آخره.

وكانت الإشارة إلى «استقلال» مصر الذى استردته بعد عشرات القرون إشارة إلى معاهدة ١٩٣٦ أو معاهدة الشرف والاستقلال كما قيل عنها يومئذ!

و أصغى مكرم باشا إلى حديثى ثم قال:

- وهو كذلك. .

وهنا سألته:

ـ يعنى أقول لهم إن معاليك موافق؟

قال: مفيش مانع!

قلت: ومسألة أخرى. إن الضجة لا تزال قائمة فى الصحف الوفدية حول الحفلة الدينية فى القلعة وأنا أخشى إن هى استمرت أن تفسد الجو فأرجوكم أن تعملوا على إيقافها.

قال: طبعا.. طبعا..

ثم اتفقنا على أن أرسل إلى جريدة «المصرى» برقية تضع حدا لهذه الضجة وللجدل القائم حول هذه الحفلة الدينية بين الصحف التى تؤيد إقامة هذه الحفلة ـ وهى الصحف التى كانت متصلة بالأمير محمد على توفيق وكانت تعمل وتكتب بوحى منه ـ وبين الصحف الوفدية التى كانت تعارض فى إقامة الحفلة فى القلعة.

.. وأن أقول فى برقيتى إلى جريدة «المصرى» أننى اتصلت برفعة الرئيس وبمعالى مكرم باشا فى جنيف وسألتهما عن رأيهما فى جدل الصحف المصرية حول هذه الحفلة الدينية ففوضا إلىَّ أن أذيع أن هذا الجدل أصبح لا معنى له ولا سبب.. وأن الوزارة حريصة على تحقيق رغبات جلالة الملك وأن الثقة والتفاهم الكامل متبادلان لحسن الحظ بين جلالة الملك «المحبوب» ووزرائه المخلصين!

وأرسلت فعلا هذه البرقية إلى«المصرى».

ولكن الحملة استمرت مع ذلك.. كما سترى فيما بعد وأعود إلى أصل الحديث..

انتهى حديثى بالتليفون مع مكرم باشا وبادرت وأبلغت حسنى بك فى قصر «كنرى هاوس» خبر موافقة مكرم باشا على مشروع التاج. ودعوته هو وزميله من رجال الحاشية على رشيد بك (وهو الآن كبير الأمناء فى القصر الجمهورى) لتمضية السهرة معى فى لندن.

واجتمعنا فى المساء وعلمت من حسنى بك أنه ذهب مباشرة عقب محادثتى التليفونية وأبلغ «مولانا» موافقة مكرم باشا على مشروع التاج وأن فاروق سر جدا بهذا الخبر.

وسمعت بين ما سمعته أثناء السهرة أن جلالة الملكة نازلى قد كرهت لندن وأنها ضيقة الصدر وعصبية المزاج فى هذه الأيام . . وأنها تشكو من وحدتها فى قصر «بالاردكوم» مع البنات ـ أى الأميرات ـ وأن أحدا لا يعنى بها أو يهتم بالسؤال عنها أو الخروج معها . . وأن جلالة الملك ابنها يكتفى بالسؤال عنها بالتليفون . . لأنه مشغول بصافيناز . . أو بنزهاته فى سيارته . . والقائمقام عمر فتحى مريض طريح الفراش فى أحد المستشفيات . . وأما حسنين باشا؟

وهنا تقول الملكة نازلى :

ـ حسنين مش فاضى لنا دلوقت . . لأنه مشغول مع حبايبه فى لندن وعلى رأى المثل «من يلقى أحبابه ينسى أصحابه» . . وحبايب حسنين فى لندن كتير!

ولم يكن عجيبا أن يجد حسنين باشا فى لندن ونواديها ومنتدياتها ودور كبرائها . . أو فى الريف الإنجليزى الجميل القريب من لندن . .

لم يكن عجيبا أن يجد حسنين فى هذا كله ما يشغله ويملأ وقته ويصرفه عن الاهتمام بالملكة نازلى وإرضاء نزواتها . . ذلك أن حسنين كان ـ كما ذكرت فى الفصول السابقة ـ قد أمضى أحلى سنى الشباب فى لندن أيام كان يتلقى دراسته فى جامعة أكسفورد . . ولقد كانت له صداقات كثيرة ومعارف أكثر فى لندن وفى الأسر الإنجليزية الكبيرة التى تعيش فى الريف القريب من لندن . .

ومن هنا انصرف حسنين عن الملكة نازلى . . لكى يعيش فى ذكريات أيام الدراسة والشباب الخالية . .

أما القائمقام عمر فتحى بك فقد كان أصيب ذات مساء ـ أثناء السهرة مع بعض رجال الحاشية فى أحد نوادى لندن الليلية ـ أصيب لأول مرة بالذبحة الصدرية، وحملوه إلى أحد المستشفيات . . ولما سمع فاروق بالخبر أسرع إلى المستشفى وأمضى الليل إلى جانب فراش ياوره الخاص الأمين وهو يبكى!

وكان فاروق لا يزال وقتئذ رقيق الإحساس والشعور .

* * *

وتناولت طعام الغداء فى اليوم التالى فى قصر «كنرى هاوس» . . وبعد الغداء صحبنى الدكتور عباس الكفراوى ـ طبيب الملك الخاص وكانت له مكانة خاصة عند فاروق ـ صحبنى إلى حديقة القصر لكى يتحدث إلىَّ عن منصب رئيس الديوان الذى كان شاغرا منذ استقالة صاحب الدولة أحمد زيوار باشا . .

وقال الدكتور الكفراوى كلاما كثيرا لا أذكره بحروفه وكلماته ولكنه فى هذا المعنى . . قال :

ـ إن جلالة الملك ـ كما تعلم ـ لا يزال صغير السن قليل الخبرة وهو فى حالته هذه فى حاجة إلى رئيس ديوان يكون له بمثابة المرشد والمعلم . . رئيس ديوان واسع الخبرة متعدد الكفاءات . تقلب بين مناصب الحكومة المختلفة من إدارية وقضائية ومالية وسياسية ولست أعرف رجلا تتوافر فيه جميع هذه الصفات خيرا من نجيب الهلالى بك . . فما رأيك؟ . .

قلت : أنا لا أعرف الهلالى بك شخصيا ولكنى سمعت عنه كل خير .

قال : إذن هل تكلم مكرم باشا فى هذا الموضوع؟

قلت : وهو كذلك .

وكان المعروف يومئذ أن الأستاذ مكرم باشا سكرتير الوفد والذراع اليمنى لرئيس الوفد ورئيس الحكومة . . هو كل شىء فى الوفد وفى الحكومة وأنه صاحب الكلمة العليا فى الوفد وفى الحكومة!

* * *

وعدت إلى الفندق . . ومرة أخرى طلبت بالتليفون مكرم باشا بفندق «ده برج» فى جنيف . . ولكنه لم يكد يسمع صوتى حتى قال :

ـ عملت طيب يا أستاذ تابعى اللى كلمتنى بالتليفون! . . أنا كنت رايح أطلبك حالا دلوقت بالتليفون . .

قلت : خيرا يا باشا . . ؟

قال : حكاية التاج دى اصرف نظر عنها! . . رفعة الرئيس (يقصد النحاس

باشا)! زعل منها جدا وهاج . . وإخواننا كلهم هنا مش موافقين عليها . . حتى على باشا الشمسى حضر لزيارتنا اليوم ولما سمع بها قال «ده كلام فارغ» . وأنا اضطررت أن أدافع عنك عند النحاس باشا فقلت له إن الأستاذ التابعى أحرجوه ووسطوه . . فمن فضلك شوف لك طريقة تقفل بها حكاية التاج دى .

وأسقط فى يدى . . ماذا أفعل؟

وقلت لمكرم باشا وبصوت فيه شىء كثير من الغيظ والحرج .

ـ طريقة إيه يا باشا؟! . . يعنى عايزنى أروح كنرى هاوس أقول لهم إيه! . . أقول لهم أنا كذبت عليكم عند ما قلت لكم أن مكرم باشا موافق!

وضحك مكرم باشا ضحكته القصيرة إياها . . وقال :

ـ لا . . لا . . لا سمح الله . ولكن قل لهم إن مكرم مش كل حاجة!

وأن موافقة مكرم ليست كل شىء فهناك رئيس الوفد والحكومة . . وهناك زملاؤنا الوزراء وإخواننا أعضاء الوفد . . وحكاية التاج دى ليست من المسائل السهلة التى يجوز لى أن أقطع فيها برأى . . وأنا قلت لك إن إخواننا هنا كلهم ضدها . . ومصطفى باشا زعلان جدا منها . .

وقلت أنا :

ـ ومن الذى يصدقنى هنا إذا قلت أن مكرم باشا ليس كل شىء وأن موافقته ليست كل شىء؟ . . ولا أحد من رجال الملك سوف يصدق هذا الكلام! وأنت تعرف يا باشا أنهم جميعا يعتقدون أنك تستطيع دائما أن تقنع النحاس باشا بكل رأى تراه . . فإذا ذهبت اليوم وقلت لهم إن النحاس باشا لا يوافق فإنهم سوف يفهمون من هذا، إما أنك عدت وعدلت عن موافقتك لسبب مجهول . . أو أنك لم تحاول إقناع رفعة الرئيس برأيك لأنك لا تهتم بتلبية رغبة جلالة الملك مع أننى قلت لمعاليك أن فكرة التاج فكرته وأنه مهتم جدا بها .

وقال مكرم :

ـ معر فش! أنا قلت الموقف إيه هنا . . وأنت تتصرف .

وقلت أنا:

ـ لن أقول شيئا.. ولن أفعل شيئا.. ولقد أبلغتهم بالأمس خبر موافقتك، فإذا شئت معاليك أن تتصل بهم فى كنرى هاوس مباشرة وتبلغهم ماقلته لى الآن.. فافعل.. أما أنا فلن أقول شيئا!

وانتهى حديثنا بالتليفون، وكان موضوع الأستاذ نجيب الهلالى وترشيحه لمنصب رئيس الديوان قد طار من رأسى تماما!

وعدت إلى باريس.

وبعد أيام عاد فاروق ومن معه إلى باريس لكى يرأس حفلة افتتاح القسم المصرى فى معرض باريس الدولى وبحضور رئيس جمهورية فرنسا مسيو لوبران.

وتنفست الملكة نازلى الصعداء بعد أن عادت إلى باريس التى تحبها.. واستأنفت حياة المرح والسهر فى ملاهى باريس.. مع حسنين باشا إذا أمكن!

ومع غير حسنين باشا إذا لزم الأمر!

وهنا بدت على «جلالتها» أعراض مرض التصابى!.. فقد انطلقت تزور «صالونات» التجميل وصبغ الشعر تجرب فى كل يومين تقريبا صبغة جديدة ولونا جديدا لشعرها الذى كانت قد بدأت تظهر فيه شعرات بيضاء!!

ولاحظنا نحن أن حسنين بدأ يقتصد ـ إلى حد ما ـ فى «إخلاصه وتفانيه» فى خدمة الملكة نازلى والسير فى ركابها حيث تريد فى كل ساعة من ساعات الليل والنهار.

وهكذا أصبحنا نراه بيننا ـ ومعنا ـ أكثر من أى وقت مضى فى هذه الرحلة..

لماذا؟ هل كان يخشى افتضاح علاقته بالملكة الوالدة.. وأن يسمع ابنها الملك أو يلاحظ شيئا مريبا على أمه ورائده الأمين؟

أم ترى حسنين قد رأى أن الوقت قد حان لكى ينتقل من الفصل الأول إلى الفصل الثانى.. أى من إظهار الحب والتفانى.. إلى إظهار (التقل) والتحفظ والبرود؟.. وهى السياسة التى كان حسنين ـ رحمه الله ـ يجيد تطبيقها كل

الإجادة مع هذا الصنف من النساء؟ النساء اللاتى جاوزن مرحلة الشباب وأخذن فى استقبال شمس المغيب!

وهذا الفصل الثانى ـ فصل التقل والتحفظ والبرود ـ يزيد الوجد والشوق ويشعل فى صدر المرأة نارا فوق نار! . . نارا تأكل ما بقى للمرأة من عزة وكبرياء . . حتى إذا عاد إليها الرجل أسلمته قيادها فى خضوع واستسلام؟ هذا هو الرأى الأرجح .

* * *

وعرفنا ونحن فى باريس أن عصبة الأمم قد قبلت مصر عضوا فى هيئتها . . وأن وفد مصر برئاسة «النحاس باشا» قد عاد إلى القاهرة

وذات صباح قال لى دكتور حسنى بك أن جلالة الملك متألم من استمرار الصحف الوفدية فى الكتابة عن الحفلة الدينية فى القلعة مع أن هذه الكتابة أصبحت غير ذات موضوع بعد تنازل جلالته عن إقامة هذه الحفلة . . وأضاف حسنى بك أن مكرم باشا لم يف بوعده لى بالتليفون وهو وقف هذه الحملات الصحفية . . وخصوصا فى جريدة «المصرى» كبرى صحف الوفد وقتئذ .

ثم قال بلهجة ذات معنى :

ـ وأنا شخصيا أعرف أنك لا شأن لك بما يكتب الآن وينشر فى جريدة «المصرى» لأنك معنا هنا وغائب عن مصر . . ولكن من الصعب أن يقتنع جلالة الملك بأنك وأنت أحد أصحاب الجريدة لا تستطيع وقف هذه الحملات فى جريدتك .

وأرسلت يومئذ برقية إلى محمود أبو الفتح أطلب فيها الكف تماما عن الكتابة فى أمر هذه الحفلة الدينية وأقول أننى فى حرج شديد وأن «المصرى» لم تراع الوضع الذى أنا فيه بوصفى الصحفى الوحيد المرافق للملك فاروق فى رحلته .

ومع ذلك . . استمرت الحملة فى «المصرى» وغيرها من صحف الوفد .

وتلقيت خطابا من أبو الفتح يعتذر فيه عن استمرار هذه الحملة ويقول أن لا شأن له بها وأنه عاجز عن وقفها وأن القائم بهذه الحملة فى«المصرى» والذى يكتب المقالات الخاصة بالحفلة الدينية هو شريكنا الثالث الأستاذ كريم ثابت . . وأن كريم يتلقى تعليماته وتوجيهاته مباشرة من الأستاذ يوسف الجندى الوكيل البرلمانى

لوزارة الداخلية . . وأنه ـ أى محمود أبو الفتح ـ لا يمكنه أن يرفض نشر مقالات موعز بنشرها من وفدى كبير مثل يوسف الجندى الذى هو فى نفس الوقت وكيل وزارة ومفروض فيه أنه ينفذ تعليمات سياسة الوزارة العليا!

وسكت . . ولم أطلع أحدا على هذا الخطاب . . واستمرت الحملة! واليوم أعجب ـ وتعجبون معى ـ لسخرية القدر!

كريم ثابت الذى أغضبت مقالاته فاروق فى عام ١٩٣٧ . . يختاره فاروق صديقا له فى عام ١٩٤٣ . . ثم يعينه مستشارا صحفيا له فى عام ١٩٤٦ .

* * *

وحل يوم السفر ـ ٢٧ يونية ـ من باريس إلى «فيشى» مدينة المياه المعدنية المشهورة. وقيل يومئذ إننا نذهب إلى فيشى لأن جلالة الملكة نازلى تريد أن تعالج كليتها المريضة . .

وركبنا قطارا خاصا . . وذهبت إلى عربة (البولمان) الخالية وجلست إلى إحدى الموائد . . ثم حضر حسنين باشا وجلس فى المقعد المقابل . وبعد قليل انضم إلينا محمود فخرى باشا وزير مصر المفوض يومئذ فى فرنسا وسويسرا .

ودار بيننا الحديث عن مصر وسير الأمور فيها وقال حسنين باشا إن الحملة على الحفلة الدينية فى القلعة لا تزال مستمرة وأنها قد امتدت وتناولت تأدية «مولانا» لصلاة الجمعة فى مسجد الأزهر الشريف . . إلى آخره .

وبينما نحن كذلك دخل فاروق عربة «البولمان» ووراءه «اليوزباشى» أحمد الطاهر .

وأقبل فاروق علينا ووقف أمام مائدتنا فوقفنا احتراما . وكانت بيده رزمة من صحف مصر كانت قد وصلت فى صباح نفس اليوم . .

ورمى بها أمامى على المائدة وهو يقول :

ـ الأستاذ التابعى قرأ الكلام المكتوب فى جريدة المصرى؟

وكان من علامات «الرضا السامى» أن ينادينى فاروق باسمى مجردا من لقب أستاذ .

ومن علامات «الغضب الملكى» أن ينادينى يا أستاذ تابعى!

وسكت.. ولكننى ألقيت نظرة على المصرى وقرأت على صفحتها الأولى ـ وبالبنط الكبير ـ عبارة فحواها أن مصدرا رسميا كبيرا صرح لمندوبها بأن الوزارة قررت عدم إقامة حفلة دينية..

واتجه فاروق إلى المائدة المحاذية لمائدتنا فى الجانب الآخر من العربة وجلس إليها وهو يقول:

ـ الحالة فى مصر بأت صلطة.

وقال فخرى باشا:

ـ صلطة خالص يا أفندم.

وقال فاروق:

ـ أيوه.. صلطة وعليها سكر.

وهنا قال حسنين:

ـ إن شاء الله يا «مولانا» تصبح الحالة كلها سكر.

والتفت إلى فاروق من مقعده.. وسألنى بسخرية:

ـ هيه.. والأستاذ التابعى جاى معنا برضه فيشى؟

وأحسست أن الدم صعد إلى رأسى.. فقد كان المعنى واضحا سافرا وهو أن الملك غاضب علىَّ ولا يريد أن أسافر معهم إلى فيشى..

ومع ذلك فإننى لم أكلفه ولم أكلف حكومته أو خاصته الملكية مليما واحدا من نفقاتى طول الرحلة لأننى كنت أدفع جميع نفقاتى فى الفنادق وغيرها.. بل وثمن تذكرتى فى القطار الخاص كنت أدفعه إلى مندوب شركة(كوك) التى كانت تتولى شئون الرحلة وتنقلاتنا فى أوروبا.. وجميع أفراد الحاشية كانوا يعرفون هذا.. وكدت أسأل «جلالته» هل هو يظن أننى أسافر معهم على حسابه أو على حساب الحكومة؟

ولكنني سكت تأدبا واحتراما.

والواقع أن جميع نفقاتي في تلك الرحلة التي دامت نحو خمسة أشهر كانت من جيبي الخاص.. حتى جريدة «المصري» التي سافرت من أجلها لم تدفع لي قرشا واحدا.. لأن ماليتها لم تكن تسمح يومئذ وفي أول عام من حياتها بدفع نفقاتي في رحلة كهذه.. سكت إذن، ولكن الجالسين لاحظوا ولا شك امتقاع لون وجهي واحمرار أذني.

ووقف حسنين باشا.. واستأذن من مولانا وانسحب من عربة البولمان ولعله ذهب إلى صالون جلالة الملكة والأميرات.

ومن بعده.. انسحب فخري باشا بعد أن انحنى ومشى خطوات بظهره إلى الوراء..

وبقيت وحدي في مقعدي.. وفاروق جالس إلى مائدته.. ومن خلفه أحمد الطاهر جالس إلى مائدة أخرى..

وساد الصمت بضع دقائق.. وكان فاروق يتسلى بعد حفنة من أوراق «البنكنوت» الفرنسية.. كان يعدها ويضعها في جيب سترته.. ثم يخرجها ويعدها مرة أخرى وهكذا..

وأخيرا وقف.. ووقفنا.

والتفت إليّ.. وقال:

- أظن نروح بأه عربة الأكل علشان الغداء..

ولما لم أرد قال:

- مش جاي تتغدى..؟

قلت.. إن شاء الله يا أفندم.

وغادر العربة، ووراءه يوزباشي أحمد الطاهر..

وأدركت أنا أن فاروق قد أحس بأنه جرحني وأنه أراد بدعوتي لتناول الغداء أن «يطيب خاطري».

ولكننى كنت نويت أمرا وهو أن أؤدى واجبى الصحفى فى «فيشى» فأرسل برقيتى إلى «المصرى» بوصف استقبال الملك والملكة ثم أغادر فيشى على الفور.

وتناولت طعام الغداء بمفردى فى عربة البولمان.

* * *

وصلنا «فيشى» فى الساعة الرابعة بعد الظهر.. وأرسلت برقيتى إلى «المصرى» بوصف الاستقبال.

ثم ذهبت إلى مكتب «كوك» واشتريت تذاكر السفر اللازمة إلى «فيينا» فى النمسا.. وأبدلت مبلغا من المال بالعملة النمسوية.. إلى آخره..

وعرف حسنين باشا ورجال الحاشية بالخبر فأقبلوا يطيبون خاطرى ويؤكدون لى أن «مولانا» لم يقصد إهانتى.. الخ ولكننى صممت على السفر..

وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ركبت القطار إلى زيوريخ ومنها إلى فيينا.

وغادرت مدينة «فيشى» بقطار الصباح وصحبنى إلى المحطة الأستاذان على رشيد وأحمد يوسف.. وعاود الاثنان الكرة لكى يحملانى على العدول عن السفر. وأخيرا قلت لهما أننى فى الحقيقة أريد أن أتحرى فى (فيينا) حكاية توفيق نسيم باشا والفتاة النمسوية مارى هوبنر لكى أوافى جريدة «المصرى» بالتفاصيل.

وكانت الأخبار قد جاءتنا أن توفيق نسيم باشا رئيس الوزراء الأسبق ـ رحمه الله ـ قد أحب فتاة نمسوية من عامة الشعب وهى ابنة صاحب فندق صغير وأنه ينوى الاقتران بها، وتمنى لى الصديقان سفرا سعيدا موفقا.

* * *

ووصلت «فيينا» بعد ظهر اليوم التالى. وكانت «فيينا» يومئذ عاصمة بلا دولة. أو كانت هناك دويلة صغيرة.. فقد كانت النمسا خرجت من الحرب العالمية الأولى فقيرة مفلسة. فقدت إمبراطوريتها الواسعة وفقدت معها كل شيء... وبعد أن كانت «فيينا» عاصمة لإمبراطورية تضم نحو سبعين مليونا من السكان.. أمست عاصمة لدولة مقصوصة الأطراف يسكنها نحو ستة ملايين.

وكان يسكن «فيينا» ثلاثة من هذه الملايين الستة . وكان الزائر الأجنبى يشهد مظاهر الفقر والبؤس والجوع فى كل ركن من أركان المدينة الجميلة الأنيقة المشرقة . . مدينة الموسيقى والهوى والجمال .

وبالمال . . قليل من المال كان الزائر يستطيع أن يشترى كل شىء وأى شىء بثمن رخيص . . أو ثمن معقول مقبول .

حتى الجمال والشباب كانت (أسعارهما) فى العاصمة الجميلة الفقيرة رخيصة إذا قيست بأسعار لندن وباريس !

وكنا لانزال فى شهر يولية ١٩٣٧ أى قبل أن يزحف هتلر على النمسا ويعلن ضمها إلى الرايخ الثالث أو ألمانيا الكبرى، وهو الأمر الذى وقع بعد ذلك بثمانية شهور، أى فى شهر مارس ١٩٣٨ .

* * *

ولم تطل إقامتى فى «فيينا» أكثر من بضعة أيام . . كذلك لم أحاول أن أتحرى أو أستقصى شيئا عن حكاية توفيق نسيم باشا والفتاة مارى هوبنر . . ولكنى تذكرت حديث الدكتور عباس الكفراوى وترشيحه للأستاذ نجيب الهلالى ليكون رئيسا لديوان الملك فكتبت خطابا لمكرم عبيد باشا رويت فيه تفاصيل الحديث، وأرسلت الخطاب إلى عنوانه فى رمل الإسكندرية لأننى كنت أعرف أنه والنحاس باشا وزملاءهما قد عادوا إلى مصر . . ولابد أنهم يقضون الصيف فى بولى برمل الإسكندرية .

وغادرت «فيينا» وذهبت إلى الريف بالقرب من مدينة (لنز) مسقط رأس هتلر وأقمت فى فندق بسيط بقرية صغيرة نحو أسبوع . . ثم ركبت القطار عائدا إلى «فيشى» فقد كان على أن أؤدى واجبى الصحفى حتى النهاية وأن أصحب الملك فاروق فى عودته من رحلته إلى مصر .

ووصلت «فيشى» ونزلت فى فندق «ماجستيك» الذى كان يقيم فيه فاروق وأمه وحاشيته .

وفى المساء نزلت إلى بهو الفندق وجلست فى مقعد . . وكان يجلس فى

مواجهتي السيد عبد الحميد الشواربي والسيدة الكريمة زوجته . . وكان يوجد يومئذ في «فيشي» عدد كبير من المصريين الذين يزورون مدينة المياه المعدنية للاستشفاء .

وأقبل فاروق من باب في صدر البهو ووراءه يوزباشي أحمد كامل .

ورآني «صاحب الجلالة» فابتسم ولوح بيده . . وأقبل نحوي ووقفت .

وتقدم مني ووضع يده على كتفي وقال : حمد الله ع السلامة .

قلت : الله يسلمك يا أفندم .

قال : لسه زعلان؟

قلت : أستغفر الله يا أفندم . . !

قال : وإيه حكاية توفيق باشا نسيم . . صحيحة الحكاية؟

قلت : أيوه . . صحيحة .

ولم أزد لأنني ـ كما قلت ـ لم أحاول أن أتحرى عن التفاصيل .

قال وهو ينظر من طرف عينه إلى فتاة شقراء جميلة كانت ترتدي ثوب السهرة، وكانت جالسة في مقعد قريب مني ولعله ظن أنها جالسة معي . . قال :

ـ طيب . . بعد العشا نبقى نشوفك . . يوجد هنا محل لطيف اسمه (لوازيه) (أي الواحة) فيه مزيكة ورقص . قريب من اللوكاندة . . نشوفك فيه بعد العشا .

قلت : إن شاء الله يا أفندم .

ولكنني لم أذهب .

* * *

وكان (القائمقام) عمر فتحي بك الذي كنا تركناه مريضا في أحد مستشفيات لندن قد شفي، ولحق بالركب الملكي في فيشي ومعه السيدة زوجته التي كانت طارت إلى لندن عندما سمعت بخبر مرضه وأقامت بجانبه .

واجتمعت بعمر فتحي وبأصدقائي من أفراد الحاشية وجلسنا نتحدث عن مصر وأخبار مصر. وعرفت منهم أن مراد محسن باشا حضر إلى فيشي ـ أثناء غيابي في النمسا وقابل فاروق. . ثم عاد إلى مصر.

لماذا حضر. . ؟

ها هي التفاصيل. .

* * *

قلت: إن فاروق رمى برزمة من صحف مصر على المائدة أمامي ونحن في القطار في طريقنا إلى فيشي وسألني ما إذا كنت قرأت «الكلام المكتوب في جريدة المصري». . ؟

. . وأنني ألقيت نظرة على «المصري» فقرأت على صفحتها الأولى ـ وبالبنط الكبير ـ عبارة فحواها أن مصدرا رسميا كبيرا صرح لمندوبها بأن الوزارة قررت عدم إقامة حفلة دينية.

وقد عد فاروق هذا الإلحاح في النشر تحرشا به وتحديا لسلطاته. . فإنه ـ أولا ـ لم يطلب بصفة رسمية إقامة حفلة دينية. ثم هو ـ ثانيا ـ قد تنازل عن فكرة إقامة هذه الحفلة وأبلغ رئيس الحكومة خبر هذا التنازل. وأبلغه في نفس الوقت برنامج الحفلات التي تقام بمناسبة توليه سلطاته الدستورية وليس في هذا البرنامج ذكر لإقامة حفلة دينية. . فعلى من إذن كان المصدر الكبير الرسمي الذي أشارت إليه جريدة «المصري» لسان حال الوفد والحكومة، على من كان يرد بتصريحه المذكور. . ؟

وما هي الجهة الرسمية التي كانت تقدمت بطلب رسمي لإقامة حفلة دينية حتى تتخذ الوزارة قرارها هذا وتنشره في صدر صحيفتها بالبنط الكبير.

أم ترى كانت الوزارة النحاسية الوفدية تريد أن تعلن عن قوتها وشدة بأسها بهذا القرار، فتوهم الناس أن هناك إصرارا من إحدى الجهات على إقامة الحفلة الدينية، ولكن لما كانت الوزارة هي وحدها التي تقر ما تريد وترفض ما تريد بدون مراجعة أو تعقيب فإنها رأت أن تتخذ هذا القرار. . ؟

هذا هو الذى فهمه فاروق ورجال حاشيته.

وقامت الأزمة. . وطار خبرها إلى مصر. . واضطربت الوزارة.

اضطربت لأن النحاس باشا كان لاحظ هو وأصحابه بعد عودتهم من أوروبا أن الأمور لا تسير - بالنسبة لهم - على ما يرام. . فالأزهر هائج مضطرب. وأحزاب المعارضة - الأحرار الدستوريون والحزب الوطنى وحزب الاتحاد، إذ لم يكن هناك يومئذ شىء اسمه الحزب السعدى - أحزاب المعارضة وخصوم الوفد يحركون خيوط الفتنة هنا وهناك.

. . وصاحب السمو الأمير محمد على توفيق رئيس مجلس الوصاية يصر على إقامة حفلة دينية وحفلة مبايعة يقلد فيها الملك فاروق سيف جده الأكبر محمد على. وتتبع فى هذه الحفلة طقوس وتقاليد جديدة لم تعرف من قبل.

وقد تبين بعدئذ أنه لا يوجد سيف لمحمد على الكبير باق حتى اليوم. . !

وأخيرا ذهب النحاس باشا وقابل الأمير محمد على توفيق وقال له أنه لم يبق موجب لاستمرار الحديث فى هذه الحفلة الدينية لأن جلالة الملك لم يطلبها ولا يتمسك بها، وأن جلالته قد أبلغ الوزارة برنامج الاحتفال وليس فى هذا البرنامج شىء عن إقامة حفلة دينية.

ولكن الأمير محمد على أصر مع ذلك على طلبه وأعلن أنه حتى ولو كان الملك فاروق قد تنازل عن إقامة هذه الحفلة فإن هذه المسألة تهم الأسرة المالكة كلها وأن سموه بصفته الشخصية وبصفته نائبا عن أفراد الأسرة يرى أن يسن هذا التقليد الجديد وأن تقام حفلة دينية وحفلة مبايعة يتقلد فيها فاروق سيف جده الأكبر محمد على.

* * *

وكان موقف محمد على توفيق - رحمه الله - وعناده وإصراره على برنامج معين يخالف البرنامج الذى وافق عليه فاروق وأبلغته أنا للوزارة، هذا الموقف من جانب الأمير رئيس مجلس الوصاية زاد فى سوء الحالة وتفاقم الأزمة.

وكانت هناك صحف غير وفدية على اتصال بالأمير ورجال دائرته. . وكانت

الصحف المذكورة تؤكد للجمهور فى كل يوم أن هناك حفلة دينية سوف تقام شاءت الوزارة أو لم تشأ .

وتجمعت السحب فى الأفق السياسى . وطال الأخذ والرد بين الصحف الوفدية . . والصحف غير الوفدية .

وفى هذا الجو - جو التوتر والشكوك - راحت السلطات تحسب أيام حفلات التولية وتحدد لكل حفلة تاريخها ويومها ، وهنا فقط عرفوا أن أيام الاحتفال الثلاثة أى ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ يوليه تقع فى أيام الخميس والجمعة والسبت .

وأبدى الأمير محمد على توفيق رغبته فى أن يؤدى فاروق صلاة الجمعة فى ثانى يوم من أيام الحفلات فى جامع الأزهر الشريف وأن يتلو شيخ الأزهر دعاء خاصا . . وأبلغ فاروق هذا فوافق عليه .

ولكن النحاس باشا رأى فى هذه الصلاة وفى هذا الدعاء الخاص رجوعا إلى الحفلة الدينية عن طريق ملتو ملفوف ! . . واعترض النحاس ورفض . . ورفض أن يوافق على أن يؤدى فاروق صلاة الجمعة فى الأزهر الشريف . . !

وقال فاروق - وكان فى فيشى :

- لم أكن وأنا تحت الوصاية أستشير أحدا فى أمر المسجد الذى أؤدى فيه صلاة الجمعة ، فهل يراد منى الآن وبعد أن أتولى سلطاتى كملك أن أستأذن رئيس حكومتى فى اختيار المسجد الذى أؤدى فيه هذه الصلاة . . ؟

ولكن الوزارة كانت ترى من جهتها أن تأدية فاروق صلاة الجمعة فى الأزهر واستقبال شيخ الأزهر وعلماء وشيوخ الأزهر الشريف لفاروق ووقوفهم بعد انتهاء الصلاة - كما قيل يومئذ - لكى يتلوا دعاء خاصا . . كانت الوزارة ترى فى هذا كله عودة إلى الحفلة الدينية بشكل آخر وأن فيه أيضا تشجيعا لحركة الصاخبين الثائرين على الحكومة وضربة تذل الوزارة وتنال منها وتضعفها أمام المعارضة .

* * *

تفاقمت الأزمة . . ودارت المخابرات بالتلغراف والتليفون والبريد بين الملك وحاشيته فى باريس وفيشى . . وبين مجلس الوصاية والوزارة فى مصر . .

وتمسكت كل جهة برأيها ورفضت كل رأى سواه.

وأخيرا عرض مراد محسن باشا على مصطفى النحاس باشا أن يسافر إلى فيشى لكى يعرض بنفسه على فاروق وجهة نظر الوزارة وأكد للنحاس (باشا) أنه مقتنع بوجهة نظر الحكومة وأنه سوف يؤيدها عند فاروق.

ووافق النحاس (باشا). وسافر مراد محسن باشا فعلا إلى فيشى وقابلا فاروق..

وكان (المرحوم) مراد محسن باشا جارا لمصطفى النحاس فى مصر الجديدة.. وكانت هناك علاقة مودة بين الجارين.

هذا أولا.. وثانيا كان مراد محسن باشا ينافس حسنين باشا على السلطة وعلى مركز (الرجل الأول) فى القصر.. ولقد رأى فى هذه المهمة فرصة طيبة لأن يكسب صداقة الوفد والحكومة واعترافهما بجميله.. ويكسب فى نفس الوقت ثقة فاروق. وأن يظهر حسنين أمام الحكومة الوفدية بمظهر الرجل الذى يعجز عن أداء خدمة لها أو تسوية أزمة تقوم بينها وبين الملك.. ويظهره أمام فاروق بمظهر الرجل الذى لا «يسد» ولا ينفع فى الملمات..

* * *

واستقبل فاروق مراد محسن باشا.. ورفض فى أول الأمر أن تكون مسألة صلاته فى الأزهر الشريف أو فى أى مسجد آخر يختاره موضع حديث أو أخذ ورد لأنه يعد صلاته والمسجد الذى يؤديها فيه مسألة تخصه هو وحده دون أن يكون للوزارة وغير الوزارة أية كلمة فى الموضوع.

وكان المرحوم مراد محسن باشا لا تعوزه الكياسة واللباقة، فقد قال على الفور إنه يوافق صاحب الجلالة على هذا الرأى، وأن النحاس باشا نفسه يسلم تماما بوجهة نظر جلالة الملك المعظم.. بل إن حق (مولانا) فى اختيار المسجد الذى يؤدى فيه الصلاة لم يكن موضع بحث على الإطلاق وأن النحاس (باشا) أول من يقول بحق جلالته فى هذا، وأول من يحترم ويحافظ على حقوق (مولانا).. إلى آخره.

ولكن النحاس باشا يلتمس من جلالة الملك أن يقدر الظروف القائمة ودسائس

خصومه وحملات صحف المعارضة وأن يتفضل ويظهر عطفه السامى الكريم على رئيس وزرائه فلا يشمت فيه خصومه، وهذه الشماتة لا محالة واقعة إذا تحقق صدق ما قالته صحف المعارضة وهو أن هذه الحفلة الدينية سوف تقام ولو رغم أنف الوزارة.

وعاد مراد محسن باشا وأكد لفاروق أن النحاس باشا يلتمس هذه المكرمة من جلالة الملك..!

وقال فاروق:

- النحاس باشا قال كده؟.. إذن اطلبه بالتليفون أمامي وقل له هذا الرأى الذى قلته لى الآن.

وفعلا اتصل مراد محسن باشا بالتليفون من فندق الماجستيك فى فيشى بالنحاس باشا فى مصر.

وكان فاروق حاضرا.

وأعاد مراد محسن بالتليفون على مصطفى النحاس حرفا بحرف كل حديثه إلى فاروق.. وأمن النحاس «باشا» على أقوال مراد محسن باشا ودعا لصاحب الجلالة بالعز والتأييد.

وقال فاروق لمراد محسن:

- وهو كذلك.. ولكن قل للنحاس (باشا) أننى قبلت علشان خاطره هوه بس..!

وخرج مراد محسن فرحا مسرورا وعاد إلى مصر.. عاد إلى مصر ليبشر النحاس (باشا) ووزراءه بأنه نجح فى مهمته عند فاروق.

.. ثم يروى فى داره وبين أقاربه وأصهاره - وجميعهم من أصدقاء السيدة لطفية زوجة حسنين باشا - يروى لهم ما رآه وما سمعه فى فيشى.

وكان بين ما رآه وسمعه شىء كثير وكلام أكثر عن الملكة نازلى وأحمد حسنين

وكيف توثقت العلاقة بينهما وكيف . . وكيف . . إلى آخر ما هناك . . وكان طبيعيا أن تسمع زوجة حسنين بهذه الحكايات والتفاصيل . .

واشتعلت نيران الغيرة فى صدر الزوجة «المهجورة» المتروكة فى مصر . . خصوصا وكانت ـ رحمها الله ـ قد سمعت أن زوجة القائمقام عمر فتحى قد لحقت بزوجها فى لندن . .

وأن زوجة يوزباشى أحمد كامل قد لحقت بزوجها فى فرنسا . .

وأن زوجة عبد المنعم رأفت، والذى يتولى كان حسابات الرحلة قد لحقت بزوجها فى فيشى .

وهكذا . . كل من أراد من أفراد الحاشية أن يستدعى زوجته، قد استدعاها دون أن يعترض أحد . .

ما عدا «هى» . . ومع ذلك فإنها أكبر مقاما من زوجات رجال الحاشية . . وزوجها ـ أحمد حسنين ـ أكبر مقاما ونفوذا من جميع أفراد الحاشية .

إذن لابد أن يكون الاعتراض على سفرها إما من زوجها نفسه . . أو من الملكة نازلى . . وعلى كل حال فإن نازلى صبرى هى السبب . .

وانطلقت السيدة لطفية يسرى كريمة الأميرة شويكار تسب وتشتم وتطلق لسانها فى كل مجلس وكل منتدى . . ضد صاحبة الجلالة نازلى ملكة مصر . . وضد ابنها فاروق! وتروى عن نازلى أو «العجوز المتصابية» كما أسمتها ـ تروى عنها القصص والحكايات . وهكذا تطور الموقف وتحول إلى «الموضع الصعب أو الوضع المستحيل» كما وصفه حسنين باشا بعد ذلك بنحو شهرين . .

* * *

وبعد عودتى من النمسا إلى فيشى بيومين اثنين تحدد موعد سفرنا فى اليوم التالى إلى مارسيليا . . ومنها بالباخرة (النيل) عائدين إلى مصر . .

وأراد فاروق، الذى كان يتضايق من حراسة البوليس الفرنسى له وتتبعه لكل خطواته وتنقلاته . . أراد أن ينتقم من رجال البوليس هؤلاء وأن يسخر منهم ويشهر بهم، فذهب إلى مطبخ فندق الماجستيك واستعار من الطهاة عددا من الأوانى

النحاسية مثل (الكسارولات) وما أشبه . . وربطها جميعا بطرف حبل ثم طلب من خادميه الإيطاليين بترو وجارو أن يتسللا إلى السيارة الصغيرة التى كان يركبها البوليس الفرنسى ويتبع فيها فاروق . . وأن يربطا الطرف الثانى للحبل فى مؤخرة السيارة من غير أن يشعر بهم البوليس .

وكانت سيارة البوليس واقفة على مقربة من الفندق . . بينما كان رجال البوليس واقفين بباب الفندق . . حتى إذا خرج فاروق أسرعوا إلى سيارتهم الصغيرة وتبعوه . . !

ونجح بترو وجارو فى مهمتهما . . وعادا إلى الفندق وأبلغا فاروق . .

وأسرع فاروق بالخروج . . وقفز فى سيارته وأطلق لها العنان ، وهرول رجال البوليس إلى سيارتهم ووثبوا إلى مقاعدها . . وأطلقوا لها العنان وراء سيارة فاروق . .

ومضى فاروق بسيارته يلف ويدور حول الميدان الكبير القائمة حوله متاجر فيشى وحاناتها ودور السينما . . والمزدحم دائما بالسائرين . .

مضى يدور ويلف . . ووراءه سيارة البوليس تجر وراءها الأوانى النحاسية على بلاط الميدان .

وللقارئ أن يتصور الأصوات التى كانت تحدثها هذه الأوانى النحاسية عند ارتطامها بالأسفلت والبلاط . . !

ووقف المارة فى الطريق وفى الميدان . . يضحكون ، ويصفرون . . ويسخرون من رجال البوليس .

وعاد فاروق إلى الفندق . . ووراءه سيارة رجال البوليس ونزل رئيس قوة بوليس الحراسة من السيارة . . وفك الحبل الذى كان يربط الأوانى النحاسية إلى مؤخرة السيارة ورمى بالأوانى أمام باب الفندق .

وأخرج الرجل منديلا كبيرا من جيبه مسح به العرق الذى كان يتصبب من وجهه وقال ـ دون أن يوجه كلامه إلى أحد معين ـ قال بالفرنسية ما معناه :

- دا لعب عيال . . والذى فعل فينا هذه الفعلة يستحق أن يضرب (علقة) على . . ؟

وذكر الرجل اسم جزء الجسم الذى يؤدب فيه الصغار . . !

* * *

وفى اليوم التالى غادرنا فيشى إلى مارسيليا .

وكانت الباخرة (النيل) مزينة بالأعلام المصرية . . وقد وقف عند أول درجات السلم المرحوم مدحت يكن باشا ودكتور فؤاد سلطان، وكان بنك مصر وشركاته قد أوفدهما لكى يكونا فى خدمة فاروق على ظهر الباخرة .

وسمعنا - وفرحنا - أن المغفور له طلعت حرب باشا أرسل كذلك عددا من الطهاة المشهورين بطهى الألوان الشرقية . . ومعهم «العاصى» المشهور بعمل الطعمية والفول المدمس إكراما لفاروق . . !

وتحركت (النيل) فى المساء وأذكر من حديث للمرحوم حسنين باشا أثناء الأيام الأربعة التى أمضيناها على ظهر الباخرة النيل . . أذكر حديثا قال فيه ما خلاصته ومعناه :

- لقد كنا فى أوروبا محيطين بالملك . . وكان هو يعمل برأينا ويصغى لمشورتنا . . ولكننا نعود الآن إلى مصر . . وأولاد الحرام هناك كثيرون . . ولن نستطيع أن (نحلق) على (مولانا) كما كنا نفعل فى أوروبا . . ولن يمكننا أن نمنعه من الاتصال بهذا وذاك . . كذلك لن نستطيع أن نمنع أولاد الحرام هؤلاء من مقابلته . . وأرجو منك وقد أصبحت واحدا منا (كذا) أن تساعدنى عند أصحابك الوفديين وأن تقنعهم بأن فاروق غير فؤاد . . وأن سياسة الشدة والعنف مع فاروق لا تنفع، لأنه عنيد وذو كبرياء، وقد لمست أنت هذا بنفسك . . !

وفى حديث آخر قال رحمه الله :

- قل لأصحابك الوفديين !(وكانت هذه عبارته دائما كلما تحدث عن الوفديين!)

أنه ليس فى مصلحتهم ولا فى مصلحة البلد أن يسير (مولانا) فى نفس الطريق الذى سار فيه أبوه الملك فؤاد. . وكن واثقا أنه إذا اضطر (مولانا) أن يقيل الوزارة مرة واحدة. . أو يحل البرلمان مرة واحدة فإنه سوف (يستحلى) هذا تعبيره باللفظ! ـ سوف «يستحلى» الحكاية ويمشى فيها. . على طول. . ونصيحتى أن يمشوا معه بالذوق واللين. . وليذكروا دائما أن أولاد الحرام كثير والطامعين فى السلطة والوزارة كثير. .

* * *

ووصلنا الإسكندرية عند فجر يوم الأحد ٢٥ يولية ١٩٣٧ .

وكانت مئات الزوارق تملأ ميناء الإسكندرية. . وفيها فرق موسيقى وطبل وزمر وهتافات. . ودعوات تتصاعد بحياة فاروق والملك المحبوب.

كان الشعب يومئذ يعلق آماله على الملك الغلام ولكن إن هى إلا سنوات تقل عن عدد أصابع اليدين حتى استحال الحب إلى نقمة. . والدعوات الطيبات إلى لعنات يصبها الشعب على رأس الفاجر الطاغية فاروق. . !

عاد فاروق إلى مصر بعد رحلته التى استغرقت نحو خمسة شهور والتى تنقل فيها بين سويسرا وفرنسا وإنجلترا. واستقبله الشعب بزينات الفرح والموسيقى والهتاف والدعاء (للملك المحبوب). . !

وعاد حسنين باشا ليجد النار مشبوبة فى بيت الزوجية. . والألغام مهيأة للانفجار. . وزوجته فى ثورة عاصفة مجنونة ضد الملكة نازلى. . وضد كل من يمت إليها بصلة أو بسبب. . حتى الملك نفسه. . فاروق!

ثم سمع حسنين من بعض أصدقائه ومن بعض رجال القصر الذين كانوا أقاموا فى مصر ولم يصحبوا فاروق فى رحلته إلى أوروبا. سمع من هؤلاء وهؤلاء أن زوجته السيدة لطفية قالت كذا وكذا عن جلالة الملكة. . وقالت كيت وكيت عن جلالة الملك. . وكيف أنها ـ زوجة حسنين باشا ـ تحدثت فى مجلس خاص فى دار فلان باشا. . وقصر فلانة هانم. . واتهمت جلالة الملكة نازلى بأنها (ماشية) مع حسنين وأن الملكة عملت كذا و كذا فى باريس. . وكيت وكيت فى چنيف ولندن وفيشى. . وأن الملك فاروق مغفل. . مثل أبيه الملك أحمد فؤاد. . !

سمع حسنين بهذا . . ثم سمع بما هو أدهى وأخطر . . ! وإليك التفاصيل :

* * *

كانت زوجته السيدة لطفية ـ يرحمها الله ـ تزور ذات يوم سيدة من الأسرة اليكنية . وكانت ـ كعادتها فى تلك الأيام ـ تنتهز كل فرصة لكى تطعن فى الملكة نازلى وفى سلوكها وتروى عنها القصص والحكايات . . ومنها قصة زواجها بالملك أحمد فؤاد . . وكيف هربت نازلى وكيف (ضبطوها) . . إلى آخره . . والإشاعات ا لتى أحاطت بالزواج المذكور . . ثم الإشاعات التى انتشرت بعد مولد فاروق . . إلى آخره . .

وهنا اشترك فى الحديث محام شاب وقال إن أديبا اسمه بيرم التونسى كان سجل هذه الإشاعات فى أزجال رددتها شوارع الإسكندرية والقاهرة وتغنت بها إبان ثورة عام ١٩١٩ وأن الأديب المذكور قد نفى خارج البلاد بسبب هذه الأزجال .

وكادت لطفية تقفز فرحا . . وطلبت من المحامى الشاب ـ وألحت فى الرجاء ـ أن يحصل لها على نصوص الأزجال المذكورة .

واستطاع المحامى بعد جهد أن يحصل على أزجال الأديب الشاعر بيرم التونسى .

وطبعت لطيفة هانم بضعة آلاف نسخة من الأزجال المذكورة فى شكل نشرة صغيرة وعملت على توزيعها يوم عودة فاروق وأمه نازلى من رحلتهما إلى أوروبا .

ولكن هذه النشرة أو هذه الأزجال لم تحدث أثرا أو ضجة . . لأن الذين وقعت فى أيديهم إما أنهم لم يفهموا الكنايات والتلميحات التى جاءت فيها . . وإما أنهم فهموا ولكنهم مزقوها سخطا واشمئزازا لأن فاروق ـ كما قلت ـ كان يومئذ (ملكا محبوبا)! . . ولأن أمه الملكة نازلى لم تكن قد خرجت بعد على المكشوف ، أو المألوف . وكانت حكاياتها أو قصصها لا تزال محصورة فى نطاق ضيق محدود . . ولم تخرج بعد إلى الشوارع لتصبح مضغة فى الأفواه وحديث الناس .

ـ سمع حسنين بهذا كله . . وقبل أن أمضى فى سياق الحديث أرى ـ من باب

التسجيل ـ أن أقف عند أزجال الأستاذ الأديب بيرم التونسى لكى أعطى القراء فكرة عن انفعالات الشعب فى ثورة ١٩١٩ والنظرة التى كان ينظر بها إلى العرش وصاحبه السلطان أحمد فؤاد . . وابنه وولى عهده فاروق . .

وكانت نظرة الشعب . . نظرة زراية وسخط واستخفاف . . ثم كانت سلسلة (المسكنات والمرطبات والمهدئات) . . من دستور وبرلمان وتمثيل سياسى ومقاعد وزارية ومقاعد نيابية ووظائف سياسية ودبلوماسية . . ازدحم رجالات مصر حولها وتكالبوا عليها . . !

وهدأت ثورة الغضب . . واستكان الشعب واستطاع أحمد فؤاد أن يملك ويحكم سبعة عشر عاما . . وأن يصبح ابنه ـ الذى هزأ الشاعر وتغنى ساخرا بمولده يوم ولد ـ يصبح ملكا محبوبا يدعو له الشعب بالعز والتأييد .

* * *

واتصلت بالأستاذ الأديب بيرم التونسى وسألته أن يبعث إلىّ بهذه الأزجال مع كلمة منه عن الظروف التى كتبت فيها .

وقال الأستاذ بيرم إنه يذكر منها زجلين اثنين ، الأول عن زواج أحمد فؤاد ونازلى . . والآخر عن مولد فاروق وما أحاط بالحادثين من شكوك وإشاعات . .

وتفضل وكتب إلىّ يقول :

أخى . . .

طلبت إلىّ أن أحدثك عن ثورة عام ١٩١٩ كانت يا ولدى ثورة من النوع الذى لا يبقى ولا يذر . ولقد تركها الإنجليز تتأجج وتتآكل إلى أن يخمد أوارها ثم يعالجوها بالطرق الناعمة .

أيقن الشعب أن أمانيه الوطنية أصبحت فى يديه وقال الإنجليز : «نعم . وها هو سلطانكم المستقل وبرلمانكم وما عليكم إلا إرسال السفراء والقناصل إلى كافة نواحى العالم» .

وكانت جريدة المقطم لسان القائد العام الإنجليزى بدأت تتحدث عن الأمير أحمد فؤاد الذى سوف يسند إليه منصب خطير فى الدولة المصرية .

وتساءل الناس عن الأمير فؤاد لأن رجال ذلك البيت وأميراته لم يكونوا يومئذ موضوعا تخوض فيه الصحف إلا بقدر معلوم. فقال القائلون:

آه.. أحمد فؤاد المقامر الذى لا ترحب به أندية القمار لأنه مفلس ولا يسدد ديون القمار.

ـ .. أحمد فؤاد الذى يركب (الحنطور) ولا يدفع للحوذى أجرته..!

.. أحمد فؤاد الذى يفتح منازل أصدقائه ليلا ويطلب الطعام!

* * *

وذات يوم مر موكب عظمة السلطان أحمد فؤاد من شارع رأس التين. وقد جلس فى مركبته التى تجرها ستة من الجياد.. وفى شمائل وزينة القرون الوسطى.

فلما مضى الموكب أخذ الشعب السكندرى يقول:

ـ عامل زى قبانية مينا البصل.. ده أصله شيخ زامة!

ـ شنباته زى شنكل الجزار.

إلى آخره.

* * *

وأدرك العارفون أن الحركة الوطنية قد تحولت إلى (زفة) عريسها السلطان أحمد فؤاد وموائدها كراسى البرلمان ووظائف السلك السياسى..

ثم أذاعت جريدة المقطم عزم السلطان «التقى» على الزواج ودقت طبول العرس بين ضجيج المعارك القائمة بين البوليس بقيادة ضباطه الإنجليز وبين جماعات الشعب فى كل عاصمة وقرية..

وأخذ الناس يتحدثون عن العروس «نازلى صبرى» وأسرتها وجدها الأول.. وكيف خطفت وكيف حبست وكيف هربت.. واختلطت أحاديث الناس عن زواج السلطان بأحاديثهم عن بطولة البلاد التى قامت فيها الثورة.

ما أشجع طنطا.. وما أعظم وطنية دمنهور.. ولله در أسيوط ومدن الصعيد.

ولم أسمع من يقول (لله در الأنفوشى) وهو مسقط رأسى فى حى رأس التين . . وفيه يعيش منذ خمسة آلاف عام أرذل أنواع البشر كما قال علماء الشعوب .

ولم أكن من هواة تحطيم المصابيح أو إشعال النار فى الترام لأنى لا أحب أن أموت (فطيس) برصاصة عسكرى .

ولكننى أردت أن أشارك الثورة . . وطبقت فرخ الورق (جاير الجاير) على ثمانية أوجه وسميته (المسلة) . . ولما كان بدون رخصة كتبت فى الرأس «المسلة» . . لا جريدة ولا مجلة!» .

ولكن ماذا أكتب فى «المسلة» وأنا لا أعرف شيئا فى الدساتير أو فى السياسة . . !

سلكت طريقة فتوات الأنفوشى عندما يقررون هدم العرس . . يكفى أن تحطم (الكلوب) أو تضع لغما تحت (الموتور) الذى يدير المصنع . لكى يمسى العرس فى ظلام دامس . . ويتعطل المصنع كله عن العمل .

و(الموتور) هو السلطان أحمد فؤاد . . والمناسبة حاضرة وهى قصة نازلى وما يقال عنها . . وعن ظروف زواجه بها .

ومن هنا كانت افتتاحية «المسلة» . . !

وهى على وزن أغنية سورية كانت جاءت حديثا إلى مصر وانتشرت فيها ومطلعها :

مرمر زمانى . . يا زمانى مرمر . . قلبى تولع فى هواك يا الأسمر . . ولها نغمة عذبة مرسلة فلم تحتج الثورة ، البامية السلطانى ، إلى ملحن أو موسيقار . . وها هى الأنشودة .

البنت ماشية من زمان تتمخطر
والغفلة زارع فى الديوان قرع أخضر
يا راكب الفيتون وقلبك حامى
اسبق على القبة وطير قدامى

تلقى العروسة شبه محمل شامى

وجوزها يشبه فى الشوارب عنتر

* * *

وحط زهر الفل فوقها وفوقك

وهات لها الشبشب يكون على ذوقك

ونزل النونو القديم من طوقك

يطلع فى طوعك لا الولد يتكبر

* * *

العطفة من قبل النظام مفتوحة

والوزة من قبل الفرح مدبوحة

إلى آخره . . إلى آخره . .

والإشارات والتلميحات مفهومة . . فالبنت هى نازلى . والغفلة هو أحمد فؤاد وكانت شواربه مبرومة مدببة الأطراف .

وأما النونو القديم . . والعطفة . . والوزة فأمرها متروك لذكاء القراء .

* * *

أما الزجل الثانى الذى نظمه بيرم التونسى بعد مولد فاروق . . فقد جاء فيه :

البامية فى البستان تهز القرون

وجنبها القرع الملوكى اللطيف

والديدبان يرمح يجيب الزبون

وربة الجارية تجيب الرغيف

شوف الميراث حصل ولاد البطون

ودخل الأغـــراب (فـــامـــيليـــة) عـلى

* * *

يـا باديشـــــــاه دنت ابـنـك ظـهـــــر

ربك يـبـــارك لك فـى عـــمـــر الـغـــلام

نـزل يلـعـلط تحـت بـرج القـــــمــــــر

يا خـــســـارة بس الـشـــهـــر كـــان مش تمام

* * *

وكان أحمد فؤاد قبل اعتلائه العرش يقيم فى قصر اسمه قصر البستان.

وفاميلية على.. يعنى أسرة محمد على.

و(باديشاه) كلمة فارسية أو تركية ومعناها سلطان!

والشهر كان مش تمام! ليست فى حاجة إلى تفسير، ومعناها أن فاروق ولد قبل مضى تسعة أشهر على الزواج!

وألقى البوليس القبض على الأستاذ بيرم التونسى ووضعوه على ظهر باخرة.. مسافرة إلى فرنسا.. وبقى بيرم فى المنفى نحو عشرين عاما.

* * *

وهذه هى بعض أزجال ثورة ١٩١٩ وقد طارت من الإسكندرية إلى القاهرة.. وتغنى بها الشعب وقتئذ فى الشوارع والمظاهرات.

وهذه هى الأزجال التى طبعتها «المرحومة» لطفية زوجة حسنين ووزعتها يوم عودة فاروق وأمه الملكة نازلى.

سمع حسنين باشا بهذا.. ثم لم يلبث أن جاءه الخبر بأن الملكة نازلى قد سمعت هى أيضا بمطاعن السيدة لطفية ضدها.. وبالنشرات التى طبعتها ووزعتها وفيها ما فيها من تعريض بها وبزوجها الملك أحمد فؤاد وابنها الملك فاروق.. وأن الملكة نازلى ـ ومن غير أن تقول شيئا لحسنين ـ ذهبت وأبلغت الأمر لابنها فاروق.

وهكذا تعجلت الملكة نازلى سير الأمور . . ووضعت حسنين فى مأزق حرج . وفرضت عليه أن يختار بين أحد أمرين :

إما أن يختارها هى ويختار معها منصبه ونفوذه فى القصر إلى جانب الملك . . وإما أن يختار زوجته وشريكة حياته وأم أولاده .

ثم لم يلبث أن استدعاه فاروق ليقول له :

- مراتك اتجننت يا حسنين؟ . . شوف لك طريقة معاها . . وبسرعة!

وذهب حسنين إلى زوجته وقال لها أنها ارتكبت جريمة العيب فى الذات الملكية . . وأنها عابت فى ذات الملك أحمد فؤاد وعابت فى ذات الملكة نازلى . . وعابت فى ذات الملك فاروق . . وأن أقل ما يجب عليها أن تفعله الآن إنقاذا للموقف - وللمظاهر - هو أن تلتمس مقابلة جلالة الملكة نازلى وتنكر أمامها كل ما هو منسوب إليها . . وتؤكد إخلاصها وولاءها لها ولجلالة الملك .

ولكن لطفية لم تتركه يتم حديثه . . بل صاحت فيه :

- أنا . . أنا أروح لنازلى؟

واندفعت تسب وتشتم . . فى نازلى وتقول :

- وإذا كنت عايزنى أروح لها . . أنا مستعدة أروح . . بس راح أقول لها كل الكلام اللى قلته عنها فى غيابها .

وتركها حسنين وخرج ليفكر فى هذا الوضع الصعب أو الوضع المستحيل الذى يجد نفسه فيه .

رائد الملك . . ثم أمينه الأول .

ولكن زوجته تطعن فى ذات الملك . . وفى ذات أمه الملكة .

احتفاظه بزوجته . . وبمنصبه فى القصر . . أمر مستحيل . . ليس أمامه إلا أن يضحى بزوجته أو بمنصبه .

وضحى بزوجته .

وأوقع يمين الطلاق . . واحتفظ بمنصبه . . !

* * *

وكثير من أصدقاء حسنين ـ وأنا منهم ـ لم يسمعوا ولم يعرفوا إلا بعد وقوع الطلاق بعدة أسابيع .

وكان سماعي بالخبر من حسنين نفسه فقد ذهبت أزوره ذات يوم . . وجلسنا نتحدث في شتى الأمور . . وفجأة سألني :

ـ هل تذكر «البارور» الياقوت الذي اشتريته في باريس هدية لزوجتي؟

و«البارور» طقم مكون من حلق وإسورة وخاتم .

قلت : نعم .

قال : وقد دفعت فيه ثمانمائة جنيه . . استدنتها لأنني ـ كما تعرف ـ فقير .

وحنيت رأسي موافقا .

ومضى حسنين يقول بمرارة :

ـ هل تظن أن الذي يستدين ثمانمائة جنيه لكي يشتري بها من باريس هدية لزوجته . . يعود إلى مصر وفي نيته أن يطلق زوجته . . ولكن هذا ما يقوله أولاد الحلال!

وسألته أنا :

ـ ومن الذي طلق زوجته! . . أنت؟

قال : نعم .

ولأول مرة منذ عرفت أحمد حسنين . . رأيت في عينيه دمعة حائرة تترقرق .

وبعد لحظات . . استرد هدوءه . . واستأنف حديثه وقص عليّ كثيرا من التفاصيل التي ذكرت بعضها فيما تقدم ومنها أنه لما قدم لزوجته لطفية هدية (طقم الياقوت) رمت بها إلى الأرض وصاحت في وجهه قائلة :

ـ جايب لي هدية من نازلي؟ أنا عارفة إنك فقير . . يبقى مين اللي دفع الثمن

واشتراها؟ لازم نازلى! عايزة تشترينى وتشترى سكوتى؟ . . وإلا أنت عايز تعمينى بالهدية وتفهمنى إنك لسه بتحبنى؟

ومشهد آخر من مشاهد الغيرة المجنونة.

* * *

وقال حسنين بين ما قاله:

ـ كتر خيره مراد باشا عمل الواجب وزيادة! . .

قالها بسخرية ومرارة.

. . وفهمت منه أن مراد باشا محسن والروايات والحكايات التى نقلها من «فيشى» إلى مصر وحرص على أن يرويها أمام أصدقاء وصديقات لطفية لكى تبلغها . . هذه الحكايات والروايات هى التى (شعللت) النار وأخرجت لطفية عن صوابها فانطلق لسانها بالسب والطعن والقذف . . فى حق الملكة والملك . .

ولقد قلت فيما سبق أن مراد محسن كان ينافس حسنين على مركز الرجل الأول فى القصر . . وكان حسنين يعرف هذا . . وكان بين الرجلين منافسة وغيرة فى أكثر من ميدان واحد.

ومن هنا كان طبيعيا أن يعتقد حسنين أن مراد محسن قد عمل عامدا متعمدا على «شعللة» النار فى صدر زوجته لطفية . .

وكانت آخر عبارة قالها فى هذا الموضوع . . وعلى شفتيه ابتسامة باهتة . . قال:

ـ وكان الرسول فى مفاوضات الطلاق بينى وبين لطفية هو الأستاذ إبراهيم رشيد . .

والأستاذ إبراهيم رشيد المحامى هو صهر المرحوم مراد محسن باشا وهكذا طلق حسنين باشا زوجته السيدة لطفية ابنة الأميرة شويكار وسيف الله يسرى باشا . . طلقها والدموع فى عينيه . .

بعد أن أطلقت لسانها وقذفت فى حق الملك والملكة . . أو ـ على حد قوله رحمه الله ـ عابت فى ذوات ملوك ثلاثة.

ثم رفضت أن تنكر التهمة وتنفى ما نسب إليها . . ورفضت أن تعتذر .

ورأى حسنين أنه أصبح فى وضع صعب بل مستحيل . . وأنه لا يمكنه أن يحتفظ بزوجته ويحتفظ معها فى نفس الوقت بمنصبه فى القصر .

إما الزوجة . . وإما الوظيفة والمنصب وما إليهما من جاه وسلطان . . ولقد اختار الوظيفة .

والذين يعرفون حسنين وظروفه لا يستطيعون أن يقسوا عليه بسبب هذا الاختيار .

ماذا كان يفعل لو أنه آثر الاحتفاظ بزوجته وأم أولاده وضحى بالوظيفة والمنصب .

كيف يعيش . . ومن أين ينفق؟ . . لقد كان حسنين طول عمره فقيرا ومدينا . . لا يملك سوى مرتبه من وظيفته . . وكان جزء من مرتبه يذهب فى تسديد الديون .

وكانت زوجته السيدة لطفية فقيرة مثله لأن أمها الأميرة شويكار لم تكن قد ورثت بعد ملايين شقيقها الأمير سيف الدين بل الذى أعرفه أن الأميرة شويكار كانت فى ذلك الوقت فقيرة تعيش على الإعانة أو المرتب الشهرى الذى يدفع لها بوصفها إحدى أميرات البيت المالك . . وكانت كثيرا ما تلجأ إلى الحكومة تطلب منها النجدة العاجلة فى أزمة مالية طارئة . . ولقد رأيتها فى محطة باريس فى ربيع نفس العام ١٩٣٧ وقد جاءت هى وزوجها إلهامى حسين ليودعا النحاس (باشا) والسيدة حرمه عند سفرهما . . ورأيت شويكار الأميرة حفيدة محمد على تنحنى فوق يد مصطفى النحاس . . وفوق يد السيدة حرمه . . مودعة محيية! . . ذلك لأنها ـ كما سمعت يومئذ ـ كانت فى حاجة ملحة إلى معونة مالية سريعة من الحكومة . . وكان حسنين بعد هذا أو ذاك قد اعتاد الحياة السهلة حياة الترف والدعة فى القصور الملكية وهى التى كانت من حقه بحكم منصبه فى القصر . . فكيف يتخلى عنها أو ينسحب ويستقيل منها ليواجه المستقبل المجهول وهو الفقير الغارق فى الديون؟ !

ولقد تساءل بعض أصدقاء حسنين ـ وأنا منهم ـ: لماذا لم يذهب حسنين إلى فاروق ويطلب أو ـ بلغة العهد ـ «يلتمس» منه إعادته إلى السلك السياسى الذى كان نقل منه إلى منصبه فى السراى فى عهد الملك فؤاد! . . وكانت درجته ومرتبه يؤهلانه يومئذ لمنصب وزير مفوض من الدرجة الأولى!

وهكذا يخرج حسنين من مصر وتخرج معه زوجته لطفية المغضوب عليها؟

وإذن لاستطاع حسنين أن يحتفظ بزوجته وأن يحتفظ معها بوظيفته ومصدر رزقه الوحيد!

ولكن هل كانت الملكة نازلى وابنها الملك فاروق يرضيان بهذا الحل أو يكتفيان بهذه الترضية . . وهى إبعاد السيدة لطفية عن مصر؟

ربما كان فاروق قد قبل . . أما نازلى فمن المؤكد قطعا أنها كانت ترفض . . ولا أقل من الطلاق .

وإلى هنا وقد حاولت أن أنصف حسنين . . وأسجل ما كان لفقره وديونه من وزن وأثر فى قراره .

ولكننى مطالب كذلك بإنصاف الحقيقة والمنطق . والحقيقة تقول أن حسنين كان ذا مطامع واسعة . . وأنه كان رسم سياسة لتحقيقها . . وأن من أسس هذه السياسة بقاءه فى القصر إلى جانب صاحب العرش . . وسيطرته فى نفس الوقت على الملكة أم الملك وصاحبة النفوذ والاحترام يومئذ عند ابنها الملك .

كيف إذن . . يغادر مصر والقصر والملك والملكة ويرضى أن يذهب إلى الخارج سفيرا أو وزيرا مفوضا لبلاده؟

وهو الذى كان حريصا من أجل تحقيق مطامعه على البقاء فى مصر وفى القصر بالذات حيث يسهل عليه وضع أصبعه فى أى وقت على نبض الحوادث . . ومتابعة سير الأمور وانتهاز الفرص كلما لاحت فرصة سانحة!

هذا كله . . تقوله الحقيقة . وهنا يقول المنطق أن حسنين نفسه كان يرفض مغادرة مصر والقصر إلى الخارج لو أن اقتراحا بهذا المعنى كان عرض عليه!

وهكذا . . وكيفما قلبت الأمر على أى وجه فإنك تصل إلى هذه النتيجة وهى أن حسنين لم يكن أمامه سوى أن يطلق زوجته .

وقد فعل وفى حلقه غصة وفى عينيه دمعة حائرة! لقد كان يحب زوجته شريكة حياته وأم أولاده .

ولكن حبه لمطامعه كان أكبر وأعمق . . ولقد كان حسنين ـ كما سبق أن قلت ـ يلبى دائما نداء العقل ويصم أذنيه عن صراخ القلب والعاطفة مهما كانت الظروف . وكان عقله حليف مطامعه .

* * *

وأنتقل الآن إلى مشهد جديد فى هذه المسرحية . .

الآن وقد طلق زوجته . . وأصبح حرا طليقا . . هل تراه ذهب وأخذ الملكة نازلى بين ذراعيه . . أو تركها تأخذه بين ذراعيها؟

لم تكن هذه سياسة أحمد حسنين . حسنين العالم العليم بطبائع النساء وخصوصا من تجاوزت منهن ـ مثل الملكة نازلى ـ سن الشباب . . ومن كانت لها مثل نازلى أهواء ونزوات! . . جارية رقيقة أسيرة هوى فى المساء وملكة مستعلية متكبرة فى الصباح .

تعتصر الثمرة . . وتلفظ نواها . . وترشف الخمر . . وتحطم القدح . . امرأة تسير على هواها . . وهواها ألا تحفظ عهد هوى .

وكان حسنين يعرف هذا ويقيم له كل وزن فى خططه وحسابه .

* * *

وهنا أترك الحديث لمراد محسن باشا ناظر الخاصة الملكية وتقريرا للواقع أحب أن أقول إن حديث المرحوم مراد باشا لم يكن معى بل كان مع شخص موثوق به ولست فى حل من ذكر اسمه لأنه لا يريد أن يذكر اسمه فى هذه القصة .

تحدث مراد محسن باشا فى يوم الجمعة ٥ يولية ١٩٤٠ إلى الشخص الموثوق به

المذكور وعاد بحديثه نحو ثلاث سنوات إلى الوراء . . وهذا الحديث مسجل مكتوب حرفا بحرف كما أفضى به صاحبه .

قال مراد محسن باشا :

- إن حسنين باشا أخطر رجل فى مصر . وهو ممثل يجيد التمثيل خيرا من يوسف وهبى ، وأنا لا أنسى يوم جاءتنى الملكة نازلى تقول إنها تحب حسنين ولا تستطيع الحياة بدونه وأنها تعسة لأن حسنين صارحها بأنه لا يستطيع أن يقربها لأنه لا يحب الحرام . . ثم قالت الملكة نازلى أنها كانت أوفدت إلى حسنين إحدى وصيفاتها . . أوفدتها إلى حسنين لتسأله عن سر بروده مع صاحبة الجلالة فقال لها أنه يتعذب وأنه يمسك بعواطفه لأنه يحبها - أى يحب الملكة نازلى - ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئا يغضب الله . . وانطلقت الملكة نازلى فى شكواها لمراد محسن باشا تقول :

- يعنى أعمل إيه أنا؟ . . لا هو يسمح لى أن أعرف رجلا سواه . . ولا هو يريد أن «يأخذنى»! . . لا عاوز يرحم ولا يخلى رحمة ربنا تنزل! (واستغفر الله للمرأة الآثمة) .

* * *

ومضى مراد محسن باشا فى حديثه يقول :

- ولقد دهشت من هذا التصرف من حسنين فأنا أعرفه جيدا وأعرف أنه فى حياته الخاصة وسلوكه الشخصى ليس شيخ الأزهر! ولكن حسنين كان يمثل دورا . وكانت النتيجة أن ازداد وجد الملكة نازلى وتضاعف هواها وحبها له وأصبحت تعتقد أنه رجل غريب . . رجل يجد ملكة بين يديه ويرفض أن يقربها .

وذات يوم قالت له :

- أنا أعطيك إنذارا نهائيا ، إما أن تعاملنى كامرأة وإما سأقطع كل علاقة بيننا وأصبح حرة أفعل ما أشاء .

وأجاب حسنين - وهو يتظاهر بالبكاء - أنه لا يستطيع أن يقربها إلا إذا تزوجها على شرع الله وسنة رسوله . . ثم أسرع يقول : وغير معقول أن أتزوج الملكة .

وهنا صاحت الملكة نازلى:

ـ طظ فى لقب الملكة!

ولكن حسنين قال:

ـ معنى هذا أن جلالة الملك سيطردنى وأنا أفقر من أن أستطيع العيش على معاشى لأن الديون تأخذ جانبا كبيرا منه.

قالت الملكة نازلى:

ـ أنا مستعدة لأن أضع ثروتى كلها بين يديك.

قال:

ـ ولكننى لا أستطيع أن أعيش على حساب زوجتى وسوف أشعر بمرارة أنك دفعت لى ثمن هذا الزواج.

وصاحت هى:

ـ يعنى عايزنى أعمل إيه؟.. زوجة.. لا!.. رفيقة.. لا!.. عاوزنى أبقى إيه؟!

قال حسنين:

ـ عاوز ملكة!

قالت:

ـ يعنى قطعة جماد!.. طوب.. حجارة؟.. لا يا سيدى. أنا بنى آدم.. أنا دم ولحم.. أنا حرمت كل حياتى من الحياة عاوزه أعيش.. سيبنى أعيش.

قال حسنين:

ـ أنا خايف على سمعتك وسمعة السراى، وإلا لتركتك تفعلين ما تشائين.

* * *

وهنا انفجرت قائلة:

ـ طيب!.. سأبهدل سمعة السراى!.. أنا أخذت إيه من السرايات؟.. غير المرض والبؤس والشقاء! أنا عشت تمنتاشر سنة فى ثلاجة..

ولكن حسنين أصر أمامها على أنه يخشى الله ولا يستطيع أن يفعل شيئا يغضب الله .

وهنا قالت الملكة نازلى :

ـ إذن سأذهب إلى فاروق وأقول له أننى سأتزوجك .

قال حسنين :

ـ اذهبى . ولكنه سيرفض .

* * *

ومضى مراد محسن باشا فى حديثه يقول :

ـ وذهبت الملكة نازلى فعلا إلى الملك فاروق . . وكانت مقابلة عاصفة! فقد قالت لابنها أنها تحب حسنين باشا، وتريد أن تتزوجه .

وقال فاروق :

ـ رافقيه أحسن!

قالت : إنه يرفض أن يكون عشيق الملكة!

قال صاحب الجلالة :

ـ سأصدر إليه أمرا ملكيا بذلك!

ولعل فاروق كان يسخر من أمه!

وعلى كل حال فإنه لم يفاتح حسنين فى هذا الموضوع وكان طبيعيا أن أعتقد أن الملك سوف يغضب ويحقد على حسنين ويطرده من السراى ولكن شيئا من هذا لم يحدث ولعل جلالته آمن بإخلاص حسنين باشا وأن هذا الإخلاص هو الذى يحول بينه وبين أن تكون له بالملكة علاقة غير شريفة!

وكان الملك لا يزال يثق فى حسنين وفى إخلاصه . فقد حدث أيام كان الملك وأمه الملكة نازلى فى لندن أن أرادت الملكة أن تذهب إلى ناد ليلى معين لترقص فيه فذهب إليها حسنين وقال لها : «إذا رقصت فى هذا النادى فسوف أضعك هنا فى

مستشفى المجاذيب». . وذهبت الملكة نازلى تشكو حسنين إلى فاروق وتهديده إياها. . ولكن الملك فاروق لم يفعل شيئا ولم يقل شيئا لحسنين. وهذا هو الأمر العجيب الذى يحيرنى!

ثم قال مراد محسن باشا:

ـ ومع ذلك فأنا أعرف أكيدا أن الملك يكره حسنين فى قرارة نفسه. ولكنه ـ كما يظهر ويبدو من تصرفاته ـ يخافه ويتقى شره!

. . وحسنين يعرف ذلك. . ومن هنا يعمل من جانبه على اتقاء بطش الملك به عن طريق السيطرة التامة على أم الملك. . الملكة نازلى!

وذات يوم جاءتنى الملكة نازلى تقول إنها قررت أن تهب حسنين باشا خمسمائة فدان وطلبت منى بصفتى ناظر الخاصة ووكيلا عنها أن أعد العقود الخاصة بهذه الهبة ونقل الملكية وحاولت أن أراجعها فى قرارها ولكنها أصرت عليه. . وهنا ذهبت إلى الملك فاروق وأبلغته الخبر فثار وهاج وقال لى:

ـ إن هذه الخمسمائة فدان بتاعتى أنا. . لأننى أنا الذى أرث الملكة.

ولكنه لم يفعل شيئًا ولم يحدث أمه أو حسنين فى هذا الموضوع واكتفى بأن طلب منى أن أذهب إلى «رفعة» شريف صبرى «باشا» شقيق الملكة وأروى له الحكاية. وذهبت إلى شريف «باشا» وقلت له إن جلالة الملكة تريد أن تهب حسنين باشا خمسمائة فدان.

ولكن شريف صبرى لم يفعل شيئًا. . وبينما أنا فى حيرة ماذا أفعل اتصل بى حسنين باشا ليقول لى إنه يرفض هذه الخمسمائة فدان.

وبعده بقليل اتصلت بى الملكة نازلى وقالت إن حسنين باشا شتمها وقال لها: «أنت عاوزه تهزئينى أمام بتوع السراى؟ أنت عاوزه تنتقمى منى؟ كيف تتصورين أن آخذ منك أنا فدادين؟ . . أنت امرأة مجنونة!».

* * *

ومضى مراد محسن باشا فى حديثه يقول:

ـ وهكذا استطاع حسنين باشا برفضه هذه الهبة الكبيرة أن يزيد فى قوته ومقامه فى عين الملكة نازلى وأن يشعرها أنه من الأنبياء والقديسين لا تمكن رشوته! . . وأنا أعتقد أن سياسته أو هدفه الذى كان يسعى إليه فى آخر الأمر هو أن يحمل الملك فاروق على أن يرجوه بنفسه أن يتزوج أمه الملكة نازلى زواجا عرفيا . . وعندئذ ينحنى حسنين أمام رغبة «مولانا» ويصدع بالأمر بحجة أنه إنما يخدم الملك والأسرة بهذا الزواج!! وأما لماذا رفض أن يكون عشيقا للملكة نازلى فربما خوفا من بطش الملك . . أو ربما لأنه كان يعرف حق المعرفة أنه لو رضى أن يكون عشيقا للملكة لزهدت فيه بعد شهر واحد أو شهرين وتخلصت منه وتركته . . ومن هذا رسم لنفسه هذه السياسة . . سياسة التعالى والخوف والبعد عن كل ما يغضب الله . . وهكذا يضمن أن يبقى الملكة نازلى ملهوفة عليه وإلهة ويضمن بواسطتها نفوذه عند الملك وبقاء السلطة طول حياته فى يده . . ولكنى لا أعرف هل يستطيع حسنين أن يستمر طول حياته فى تمثيل هذا الدور ولعب البهلوان والمشى على السلك المشدود أم أنه سيقع يوما وتندق رقبته؟!

* * *

قال مراد محسن باشا :

ـ وكان الملك فاروق يغضب أحيانا ويستبد به الغضب ويثور بسبب حب أمه الملكة نازلى لحسنين، هذا الحب المفضوح الذى أصبح حديث جميع من فى القصر . . بل حديث أعضاء الأسرة المالكة . . كان يثور ويقسم أنه سوف يضرب حسنين بالرصاص! . . ولكننى كنت أدخل عليه مكتبه فى اليوم التالى فأجده جالسا يمزح ويضحك مع حسنين!

وحدث مرة فى العام الماضى (أى فى ١٩٣٩) أن تلقى جلالة الملك تقريرا جاء فيه أن جلالة الملكة نازلى تسهر إلى الصباح عند حسنين، وقرر الملك أن يضبطهما معا متلبسين وأخذ معه خادمه الأرناءوطى محمد عبد الله وذهب إلى بيت حسنين باشا وترك سيارته بعيدا عن الدار . . ثم دخل البيت من إحدى النوافذ . . وعرف أن الملكة وحسنين فى الدور العلوى . واعتقد أنهما فى غرفة النوم! . . وصعد السلم على أطراف أصابعه . . وهو يضع دائمًا فى قدميه حذاء ذا نعل من «الكاوتش» لا

يحدث صوتا. . وتسلل إلى غرفة النوم. . وفتح بابها فوجدها خالية. . وفتح الغرفة التى بجوارها فرأى منظرا أذهله! . . رأى حسنين باشا جالسا على الأرض وأمامه الملكة نازلى جالسة كما تجلس التلميذة أمام أستاذها. . وكان حسنين يتلو عليها آى الذكر الحكيم من مصحف بين يديه!

وذهل الملك من هول المفاجأة فلم يجد شيئًا يقوله. . وأغلق عليهما الباب وغادر الدار!

ومضى مراد محسن باشا فى حديثه فقال:

ـ وعندما سمعت هذه القصة من الملك ازداد اعتقادى بأن هذا الرجل ـ (يقصد حسنين باشا) ـ بهلوان! وإلا فكيف استطاع أن يمثل دور الرجل الصوفى المتدين مع الملكة نازلى. . وأن يحملها على الجلوس أمامه تصغى إلى تلاوته للقرآن وهى التى لا تكاد تجلس فى مكان ما دقائق معدودات حتى تهب واقفة وهى تصيح: «أنا أختنق هنا! . . تعالوا نبحث عن سهرة نرقص فيها!».

ثم قال:

ـ إن جلالة الملك يعتقد أن حسنين هو الرجل الوحيد الذى تخافه الملكة وتطيعه. . والرجل الوحيد القادر على ترويض الملكة باعتباره مروض وحوش أو إنه إذا خرج حسنين من القصر فإن الملكة نازلى سوف تنفجر وتترك هى أيضًا السراى. . و«تمشى على حل شعرها». . ولكننى لست من هذا الرأى بل أعتقد أن حسنين هو الذى يضفى على نفسه كل هذه الأهمية. . بحركاته وتمثيله وبهلوانيته وإلا فما الذى تستطيع أن تفعله الملكة نازلى إذا وضعها الملك فى قصر وأغلقه عليها؟ . . ولكن الملك يرفض المناقشة فى هذا الموضوع. . وهو كلما يسمع أن الملكة تريد أن ترتكب حماقة صاح: (الحقونى بحسنين)!

* * *

انتهى حديث المرحوم مراد محسن باشا.

وقد برهنت حوادث الأيام والسنوات التالية على أنه ـ رحمه الله ـ كان مخطئا

فى رأيه وفى التهوين من شأن أحمد حسنين لأنه لم يكد حسنين يلقى حتفه ويوارى فى التراب حتى انطلقت نازلى «على حل شعرها».

* * *

تدلهت ملكة مصر وتهتكت فى حب حسنين. ولم تخجل من أن تعلن حبها له أمام رجال القصر ثم أمام ابنها الملك فاروق.. تنسى مقامها كملكة، وأرملة ملك وأم ملك! ونسيت حرمة سنها وقد جاوزت الأربعين.

وكانت الصدمة النفسية قاسية عنيفة على فاروق الذى كان يومئذ فى الثامنة عشرة من عمره.. ميلادية! أو التاسعة عشرة هجرية!

وكان فاروق يحب أمه.. ولم يكن يفوق حبه سوى احترامه لها.. كانت تناديه أمامنا وأمام رجال الحاشية وخدم الفنادق «فاروق».. وكان هو يخاطبها أو يناديها دائمًا «ماجستيه» أى صاحبة الجلالة!

وكان يخشاها ويتقى غضبها ويعمل لها حسابا.. وكانت كلمتها عنده لا ترد.

كثيرًا ما سمعتها - أثناء رحلتنا إلى سويسرا وفرنسا وإنجلترا - سمعتها تنهاه أمامنا علنا عن قيادة سيارته بنفسه.. أو تنهره وتطلب منه أن يترك سيارته ويركب معها فى سيارتها لأنها كانت تخاف عليه من تهوره فى قيادة السيارات بسرعة جنونية.

وكان يخضع دائمًا ويطيعها.. ولا يرى غضاضة أو بأسا - وهو الملك - فى أن ينزل على إرادتها مثل أى طفل صغير!

هكذا كان مقدار حب فاروق واحترامه لأمه نازلى.. ثم ها هى ذى تتدله وتتهتك فى حب موظف من موظفى القصر.. وتذهب تشكو حبها لناظر الخاصة ولا تخجل من أن تعلن أمام موظفى القصر أنها عاشقة ملهوفة على أحمد حسنين!.. بل ولا تخجل من أن تصارحه هو - ابنها الملك - بأنها تحب هذا الموظف أحمد محمد حسنين.. وأنها قدمت نفسها وجسمها ولكنه يرفض! ثم تصرخ وتصيح إنها من لحم ودم..! وتطلب من ابنها أن يزوجها من حسنين!

كانت الصدمة النفسية قاسية عنيفة.. على فاروق. وتهاوت المثل العليا التى

كان يراها فى أمه ـ صاحبة الجلالة ـ تهاوت وتحطمت تحت قدميه . . وكان ـ كما أسلفت ـ لا يزال فى سن الثامنة عشرة .

وكانت مثل عليا أخرى قد أخذت تتهاوى وتتحطم فى نفس الوقت تحت أقدام فاروق .

زعماء البلاد الكبار وشيوخها الكبار وساستها الكبار . . رآهم فاروق واحدا بعد واحد ينحنون فوق يده ويقبلونها وينسحبون من «حضرته الملكية العلية» وهم يمشون بظهورهم إلى الوراء .

. . وسمعهم واحدا بعد واحد يقولون له إنهم جاءوا ليلتمسوا منه «توجيهاته السامية وإرشاداته الغالية» .

وقرأ لهم جميعا فى الصحف تصريحات أفضوا بها وقالوا فيها إنهم «تشرفوا بمقابلته ليتلقوا نصائحه الغالية وإرشاداته الحكيمة» .

ولم يكن فاروق غبيا . كلا . فقد كان يعرف أنه لم ينل من العلم إلا قليلا . . وأنه جاهل أو نصف أمى . . وأن تغنى هؤلاء الساسة والزعماء الكبار بحكمته ونصائحه ليس سوى نفاق ورياء . . وأن كل ما يسعون إليه هو الحكم وكراسى الحكم!

وهكذا! المثل العليا . . فى أمه وفى رجال مصر . . تهاوت وتحطمت . . ودخلت المرارة فى نفس الفتى ابن الثامنة عشرة .

ومع المرارة والسخرية والاستهتار بالمثل العليا ـ وأين هى؟ وبالمبادئ والقيم والأخلاق . . وبكل ما فى هذه الدنيا من نبل وعلاء .

لم يجدها فاروق فى أمه . . ولم يجدها فى رجال دولته . . لا فى الساسة ولا فى الزعماء .

وانطلق فاروق يسخر ويهزأ بكل شيء . . ويدوس بقدمه كل مقدسات هذا البلد .

ولقد كنت كتبت مقالا مطولا فى هذا المعنى فى أعقاب الثورة وبعد خلع فاروق فى صيف ١٩٥٢ وكان عنوان المقال : «مأساة الملك فاروق» .

وعدت اليوم إلى نفس المعنى أو الموضوع لكى أقرر هذه الحقيقة مرة أخرى .

وهى أن هذه القصة أو هذه الفضيحة ـ فضيحة نازلى وتهتكها ـ كانت من العوامل الرئيسية التى حولت فاروق من ملك محبوب مأمول إلى طاغية وفاجر مستهتر . . أو مخلوق بلا أخلاق ولا مبادئ ولا مثل عليا! وإن شئت فقل : «حيوان فى رسم إنسان» .

* * *

وأعود إلى سياق الحديث أو القصة .

انتهت نازلى ملكة مصر إلى هذه النتيجة وهى أن حسنين يرفض أن يعاملها كامرأة . ويتخذها عشيقة لأنه ـ كما قال لها ولوصيفتها ـ يخاف الله . . ولا يستطيع أن يقربها إلا على شرع الله وسنة رسوله . . ثم هو لا يستطيع أن يتزوجها خوفا من أن يطرده الملك فاروق . . وهو ـ أى حسنين ـ رجل فقير لا يملك سوى مرتبه الذى يناله من وظيفته .

إذن ماذا؟

كان حسنين فى الواقع يرمى من وراء هذا الدور الذى مثله بمهارة عجيبة ـ كان يرمى وكما قال المرحوم مراد محسن باشا ـ إلى أن يحمل الملك فاروق على أن يستدعيه ويأمره أو يرجوه أن يتزوج أمه الملك نازلى .

وإذن . . يصدع حسنين بأمر «مولانا الملكة» ويتزوج من جلالة الملكة!

كان هذا هو الهدف الذى يسعى إليه حسنين . . ولم يكن تحقيقه مستحيلا أو صعب المنال . لأن حسنين باشا ـ رحمه الله ـ كان قد أفلح فى إقناع فاروق ـ بطريق غير مباشر ـ بأنه ـ أى حسنين ـ الرجل الوحيد فى مصر أو فى القصر القادر على كبح جماح الملكة نازلى . . وإنها لولاه ولولا نفوذه عليها «لخرجت على حل شعرها» وتركت السراى وانطلقت على هواها!

هذا ما كان يعتقده فاروق كما قرر مراد محسن باشا . . ولهذا لم يكن أمرا مستحيلا أن يطرح فاروق عواطفه ويصغى لحكم العقل والحكمة ويطلب من حسنين أن يتزوج جلالة الملكة!

ولكن فاروق لم يفعل.. وحسنين لم يتراجع أو يتزحزح عن موقفه.. إذن ماذا؟.. ماذا تفعل الملكة التى تريد أن تعامل كامرأة.. من لحم ودم؟

* * *

هزت نازلى كتفيها فى وجه حسنين.. وشقت عصا الطاعة.. وانطلقت تغازل وتمرح وتسهر وتشرب وترقص مع من يعجبها من شبان.. ووقع اختيارها أول ما وقع على تشريفاتى بالقصر كان ملحقا بحاشيتها.

وبدأت الإشاعات والحكايات تخرج من القصر ودوائر القصر إلى الأندية والقصور..

الملكة نازلى «ماشية» مع «ح» التشريفاتى! الملكة نازلى أمضت ليلة أمس فى الزمالك فى شقة فلان صديق (ح).. الذى كان موجودا.. إلى آخره.. إلى آخره!

لعل أحمد حسنين يغار ويغضب ويثور.. ويعاتبها وينتهى الأمر بتسوية!

ولكن أحمد حسنين عرف كيف يصبر ويسكت.. بل ويبتسم رثاء لها إذا ما قابلها فى إحدى حفلات السراى!

وكان فاروق هو الذى غضب وثار.. وكان لسان حاله يقول: (لم يبق إلا التشريفاتية وصغار الموظفين)! تقرن أسماؤهم باسم أمه الملكة.. وتروى عنهم وعنها قصص الغزل والمرح والسهرات والشراب.

وقابل فاروق ذات صباح التشريفاتى المذكور (ح) فى إحدى ردهات القصر فاستوقفه وصاح فيه:

ـ حضرتك عامل إيه فى حواجبك؟.. ناتف شعرها زى الستات!.. وكمان يظهر إنك بتحط بودرة.. وأحمر؟!

وأصدر أمرا ملكيا بنقل التشريفاتى إلى إحدى وظائف وزارة الخارجية.

وخشى الرجل عاقبة لهوه مع الملكة نازلى فانقطع عنها.. ولعل حظه الحسن هو الذى جر عليه غضب فاروق لأنه لم يلبث أن استقال من خدمة الحكومة واشتغل بالأعمال الحرة وأثرى وأصبح من كبار رجال الأعمال والشركات.

ورأت الملكة نازلى أن ابنها فاروق يضيق عليها الخناق . . وأن حسنين مصر على موقفه منها . . فهزت أكتافها مرة أخرى وسافرت إلى أوروبا .

* * *

ومرت شهور الصيف ومن بعده الخريف . . واقترب موعد سفرى إلى أوروبا فقد كنت اعتدت أن أمضى فصل الشتاء فى سويسرا . . وقرأت فى الصحف أن جلالة الملكة نازلى تزمع العودة من رحلتها فى أوروبا إلى مصر وأنها تغادر ميناء مرسيليا فى يوم كذا فتصل الإسكندرية فى يوم كيت من شهر نوفمبر .

وركبت أنا الباخرة من ميناء بورسعيد فى مساء ١٧ نوفمبر . . وقدرت أننى سوف أصل إلى مرسيليا فى نفس اليوم الذى تصل فيه الملكة نازلى إلى الإسكندرية .

ومن مرسيليا أخذت القطار إلى باريس فوصلتها بعد منتصف الليل . وذهبت إلى الفندق الذى كنت اعتدت النزول فيه وهو فندق جورج سانك أو جورج الخامس .

ورأيت علم مصر الأخضر يرفرف على الباب الرئيسى للفندق ، وعجبت . . ترى من يكون الزائر المصرى الكبير المقيم بالفندق والذى يرفع الفندق علم مصر تكريما له !

وسألت موظف الفندق ـ وأنا أسجل اسمى فى الدفتر ـ فقال :

ـ جلالة ملكة مصر !

إذن فالملكة نازلى لا تزال فى باريس . . وصحف مصر كانت مخطئة فى نشر خبر عودتها ؟

كذلك لم أكن أعرف أن جلالتها تنزل فى فندق جورج الخامس لأنها سبق لها أن زارت باريس مع ابنها ثم وحدها وأقامت مرة بفندق ده كريون ومرة بفندق ريتز والمرة الثالثة والأخيرة بفندق بلاتزا اتنيه . . وها هى فى فندق جورج الخامس .

ولو عرفت . . لكنت ذهبت إلى فندق آخر وذلك لأن العلاقات يومئذ بين

فاروق والوفد كانت سيئة للغاية . . وكنت وفديا ومجلتى «آخر ساعة» وفدية . . وكان فاروق غاضبا علىّ .

وكنت حريصا فى تلك الأيام على أن أتحاشى القصر والذين فى القصر وكل أحد له علاقة بالقصر أو فاروق .

وهأنذا أنزل فى نفس الفندق الذى تقيم فيه أم فاروق وأفراد حاشيتها !

* * *

وفى مساء اليوم التالى ـ وكنت جالسا فى أحد صالونات الفندق ـ دخل تشريفاتى الملكة نازلى محمود أسعد بك ومعه زوجته السيدة فتحية أبو أصبع . . ولحق بهما بعد قليل الأستاذ حسنى نجيب وزوجته السيدة نايلة سلطان .

وتبادلنا التحية . . وإذ نحن نتحدث أقبل من يعلن نزول جلالة الملكة . . من جناحها الخاص . .

ووقف الجميع ودعونى للذهاب معهم لقضاء السهرة ولكنى اعتذرت عن عدم الذهاب بحجة التعب . . وأسرعوا بالخروج ليلحقوا بجلالة الملكة ولم أر وجه الملكة نازلى . . ولقد حرصت بعدئذ على عدم الجلوس فى صالونات حتى لا أقابلها أو أقابل أحدا من أفراد حاشيتها . . وكنت أغادر الفندق فى الصباح . . وأعود فى المساء إلى غرفتى مباشرة .

وهكذا أمضيت نحو أسبوعين فى باريس . . ثم سافرت إلى زيوريخ فأقمت فيها بضعة أيام ومنها إلى سان موريتز .

ووجدت فيها خطابا من مصطفى أمين . وكان الخطاب محولا من فندق جورج الخامس .

وفى الخطاب يقول مصطفى أن النقراشى باشا ـ رحمه الله ـ وكان يومئذ وزيرا للداخلية استدعاه إلى مكتبه وقال له أن التابعى فى باريس ويقيم فى فندق جورج الخامس الذى تقيم فيه جلالة الملكة نازلى . . وإنه ـ أى النقراشى باشا ـ يطلب منى ألا أثير متاعب له ولنفسى . . ومن ثم يرجونى أن أغادر باريس على الفور . . أو على الأقل أترك فندق جورج الخامس . . إلى فندق آخر .

وهذه خلاصة الخطاب . . ويظهر ـ على الأرجح ـ أنه كان يوجد بين حاشية الملكة نازلى من كان يرسل تقارير إلى فاروق عن أمه الملكة، وماذا تفعل ومن تقابل ومع من تخرج . . إلى آخره .

وعرف فاروق أننى أقيم فى نفس الفندق . . ولعله خشى أن أعرف عن أمه وسيرتها فى باريس ما لا يصح أن يعرفه أحد وخصوصا صحفيا وفديا . . وكانت الخصومة ـ كما قدمت ـ على أشد ما تكون وقتئذ بين فاروق والوفد .

خشى فاروق أن أطلع على أمور قد يستعملها الوفد فى دعايته ضده فطلب من النقراشى أن يعمل على إبعادى عن باريس . . إلى آخره .

وهذا ما فهمته من خطاب الصديق مصطفى أمين .

وعلى كل حال فقد كانت الإشاعات يومئذ فى مصر كثيرة . . ومنها مثلا أننى غادرت مصر إلى أوروبا منفيا من الملك فاروق . . ومنها كذلك أن فاروق طلب من الوزارة تجريدى من الجنسية المصرية . . إلى آخره . . إلى آخره .

ولما عدت إلى مصر وسمعت بهذه الإشاعات كتبت عنها فى «آخر ساعة» وسخرت منها ومن الذين اختلقوها وأذاعوها .

* * *

وكانت الملكة نازلى ـ كما عرفت وسمعت فى سويسرا ـ قد زارت «فيينا» و«بودابست» .

وفى «بودابست» عرفت شابا جميلا هو ابن الأميرال هورتى الوصى يومئذ على عرش المجر . . وقد قتل بعد ذلك فى حادث طائرة فى روسيا سنة ١٩٤٣ .

وطابت لها الإقامة فى «بودابست» . . بعد أن وجدت فيها الرجل الذى يرضى أن يعاملها كامرأة من لحم ودم!

ثم غادرتها إلى باريس . . حيث وجدتها . . ثم عادت جلالتها مرة أخرى إلى بودابست .

وأخيراً عادت إلى مصر ولحق بها الشاب هورتى وجاء مصر ونزل فى فندق شبرد .

وكانت حكايتها مكشوفة . . وأكثر من مكشوفة! ومرة أخرى صاح فاروق: «الحقونى بحسنين»!

وأصدر صاحب الجلالة أمره الملكى إلى حسنين . . «أن يشوف له طريقة مع جلالة الملكة نازلى . . ويضع حدا لحكايتها مع الشاب هورتى . . لأن الحكاية أصبحت فضيحة مكشوفة».

وصدع حسنين بالأمر . . ونزولا على إرادة «مولانا» ذهب حسنين واسترضى الملكة نازلى وتصالح معها .

وبعد أيام من عقد الصلح أحس الشاب هورتى ابن الوصى على عرش المجر أن بقاءه فى القاهرة أصبح أمرا غير مرغوب فيه من الملكة نازلى نفسها . . ومن سلطات مصر العليا . . فغادر مصر عائدا إلى بلاده!

واجتمع الشمل . . وكثرت الحفلات والسهرات التى كان يقيمها أصدقاء الملكة نازلى أو أصدقاء حسنين . . لكى يجتمع فيها الحبيبان نازلى وأحمد حسنين .

وذات يوم ذهب الأمير محمد على إلى القصر يشكو لفاروق من تصرفات أمه الملكة نازلى وكيف أن سيرتها مع حسنين باشا أصبحت على كل لسان!

وقد ورث فاروق عن أبيه الملك أحمد فؤاد كرهه للأمير محمد على توفيق ونفوره منه .

وكان أحمد فؤاد يعمل دائمًا على مضايقة ابن أخيه الأمير محمد على . . وكان محمد على يلجأ إلى «المندوب السامى البريطانى» فى مصر أو إلى السلطات البريطانية العليا فى لندن لكى تأخذ له بحقوقه من عمه الملك أحمد فؤاد . . ولكى توقفه عند حده وتأمره بالكف عن مضايقة صديقها الأمير محمد على توفيق .

روى المرحوم عبد العظيم راشد باشا وزير الأشغال الأسبق فى مذكراته «التى لم تطبع ولم تنشر» ـ روى فى مذكراته أن اللورد لويد المندوب السامى البريطانى قال له إنه ذهب مرة وقابل الملك فؤاد ووبخه بسبب بعض تصرفاته مع الأمير محمد على ، وأن الملك فؤاد بكى ساعتئذ بكاء شديدا ثم قال: لورد لويد .

ـ وماذا أستطيع أن أفعل مع ملك يبكى كلما وبخته وذكرته بواجباته كملك؟!

* * *

كان الملك فؤاد يكره ابن أخيه محمد على توفيق. وقد ورث فاروق عنه هذه الكراهية.

وكان الأمير محمد على توفيق لا يكف عن انتقاد أسرة عمه الملك فؤاد أفرادا وجماعات. وكان يشهر بها وبتصرفاتها فى مجالس الأسرة.

وكان فاروق يعرف هذا..

حدث مرة أن أقيمت مأدبة كبيرة فى قصر عابدين وحضرها الأمير محمد على توفيق وكان جالسا إلى يمين الملك فاروق. وأبدى «سموه الملكى» إعجابه بنقوش وزينة سقف قاعة الطعام.

وهنا التفت إليه فاروق وقال وهو يغمز بعينه للحاضرين من كبار رجال القصر:

الحمد لله اللى وجدت عندنا حاجة تعجبك!

وفهم الأمير غمزة الملك. وابتسم الحاضرون.

* * *

وسمع الأمير محمد على توفيق بالحكايات التى تروى عن الملكة نازلى وعلاقتها بحسنين باشا.

وكان طبيعيا أن ينتهز هذه الفرصة لكى يشهر ويندد بتصرفات عائلة أحمد فؤاد..

وذهب «سموه الملكى» وقابل رئيس الديوان «رفعة» على ماهر باشا وقال له أن سمعة الملكة نازلى زفت بسبب علاقتها بحسنين.. وطلب من السيد على ماهر إبعاد أحمد حسنين عن السراى.

ولكن على ماهر «باشا» كان أحرص وأذكى من أن يقحم نفسه فى مسألة شائكة كهذه. ومن هنا لم يجد الأمير محمد على بدا من أن يذهب ويقابل الملك فاروق

نفسه ويشكو إليه أمه الملكة وكيف أن الناس تقول إنها قد أصبحت عشيقة أمينه الأول أحمد محمد حسنين .

وقال فاروق :

ـ أنا سمعت الإشاعة . . وحققت فيها بنفسى وتأكدت أنها غير صحيحة .

ولكن الأمير محمد على أصر على الاتهام وقال :

ـ أنا واثق أن بين حسنين والملكة نازلى علاقات غير شريفة .

* * *

وسمع حسنين ـ رحمه الله ـ بهذه المقابلة وبالحديث الذى دار فيها فأرسل إلى الأمير محمد على يقول له :

ـ أنا آسف إذ أرانى مضطرا لأن أنسى أنى موظف فى السراى وأنك ولى العهد، ولهذا فإنى أدعوك للمبارزة كما يفعل أى رجل وأترك لك حرية اختيار السلاح وشهودك .

ولم يكد الأمير محمد على يتلقى رسالة حسنين حتى فزع واستنجد بالأمير عمر طوسن .

واتصل الأمير عمر طوسن بحسنين باشا وسأله كيف يجوز للأمين الأول لجلالة الملك أن يبارز ابن عمه وولى عهده؟

وقال حسنين إن هذا الأمر ليست له حقيقة سابقة فى «البروتوكول» . . ولكن لم يسبق كذلك لولى عهد أى بلد أن قال كلاما كاذبا فى حق رجل آخر دون أن يتحمل مسئوليته .

ثم قال حسنين إنه رغبة فى عدم إحراج أى أحد . فقد رفع إلى جلالة الملك الخطاب الآتى :

«لما كان ولى عهدك قد أهاننى ولما كنت لا أقبل هذه الإهانة . ولما كان وجودى فى خدمتك يقيدنى فإننى أقدم استقالتى من منصبى لكى أستطيع أن أعامل ولى العهد معاملة رجل حر لرجل حر» .

وهنا قال الأمير عمر طوسن :

ـ لكن ولى العهد يرفض المبارزة .

وأجابه حسنين :

ـ فى هذه الحالة سوف أنتهز فرصة وجوده فى نادى محمد على وألطمه على وجهه وأعتبر الحادث منتهيا !

* * *

واتصل الأمير عمر طوسن بالملك فاروق ورجاه أن يتوسط فى الأمر ولكن فاروق أجابه بأن حسنين قد استقال من منصبه ولم يعد فى خدمته !

وكان فاروق يضحك ويريد أن يسخر من ابن عمه محمد على توفيق ثم يرى إلى أى مدى سوف يدفعه جبنه وخوفه !

وعندئذ اتصل عمر طوسن بالأمير محمد على وقال له أن حسنين مصمم على مبارزتك . وهو قد استقال من منصبه فى السراى ولم يعد فى خدمة الملك . . ولقد وسطت الملك ولكنه اعتذر عن عدم الوساطة لهذا السبب .

وهنا ركب الأمير محمد على سيارته وقصد إلى دار حسنين باشا وكان ـ رحمه الله ـ يسكن وقتئذ فى مصر الجديدة .

ودخل سموه على حسنين باشا يقول إنه جاء لكى يقدم اعتذاره . وقال حسنين إن هذا لا يكفى ! . . ويجب أن يذهب سموه ويقدم اعتذاره لجلالة الملكة نازلى .

وخرج الأمير محمد على وذهب بسيارته إلى قصر القبة واستقبلته إحدى الوصيفات . وقدم اعتذاره ورجا من الوصيفة أن تبلغ اعتذاره هذا لجلالة الملكة نازلى مع التماسه مقابلتها .

وعادت الوصيفة تقول إن جلالة الملكة ترفض مقابلته !

وازداد الأمير محمد على رعبا وخوفا فعاد وزار حسنين مرة أخرى وسأله أن يتوسط لدى الملكة لكى ترضى بمقابلته ولكنها أصرت على الرفض .

ثم حدث بعد ذلك أن تقابل مع الملكة نازلى عند الأميرة نعمت مختار. وانتهزت نازلى الفرصة لكى تهزأ منه فقالت له:

- إن حسنين باشا ليس عشيقى كما تقول، لا لأننى لا أريد أن أكو ن عشيقة له بل لأنه هو يرفض أن يكون عشيقا لى!

وراح صاحب السمو الملكى يعتذر ويعتذر وينحنى أمام الملكة نازلى ويردد عبارات الأسف والندم والاعتذار!

وكان من نتائج هذا الدرس الذى أعطاه إياه حسنين باشا أن مكث الأمير محمد على ستة أشهر لا يفتح فمه بكلمة واحدة عن السراى وما يجرى فى السراى بل عن أى شخص كبير أو صغير فى السراى!

كذلك كان - رحمه الله - كلما سمع حكاية أو كلمة تروى أو تقال فى نادى محمد على عن حسنين باشا أسرع يبلغه إياها وكيف أن الوزير فلان يقول عنك - أى عن حسنين - كذا وكذا، وكيف أن النبيل علان يقول كيت وكيت!

* * *

وذات يوم ذهب الأمير محمد على وزار حسنين باشا وقال له:

- لقد انتهزت فرصة مقابلتى أمس لجلالة الملك وقلت له أنك أشرف رجل فى مصر وإن وجودك فى السراى نعمة من الله!

وقال حسنين:

- كتر خير أفندينا!.. لقد خربت بيتى!

وانزعج أفندينا محمد على وقال:

- كيف خربت بيتك وأنا مدحت فيك؟

قال حسنين:

- هذا بالضبط ما لا أريده لأن مدحك يضرنى ويؤذينى!

وسأله الأمير فى لهفة: ماذا يفعل الآن لكى يصلح خطأه؟

وقال له حسنين:

ـ اذهب إلى الملك وقل له إنك اكتشفت أننى رجل خائن ويجب التخلص منى وطردى من السراى.

واستعاذ الأمير محمد على بالله من الشيطان الرجيم وقال إنه لا يستطيع أن يقوله هذا!

ولكن حسنين قال:

ـ إذا أردت حقيقة أن تنفعنى وتصلح خطأك فاذهب للملك وقل له هذا.

* * *

وعاد الأمير وطلب مقابلة فاروق.. وقال له:

ـ لقد قلت لجلالتكم فى مقابلتى الأخيرة أن حسنين مخلص ولكن جاءتنى بعد ذلك معلومات أكيدة تثبت أنه خائن وغير مخلص.

وكان فاروق يستمع إليه وهو يكتم ضحكه بصعوبة.. لأن حسنين كان أطلعه أولا بأول على كل ما دار بينه وبين ولى العهد الأمير محمد على توفيق؟

وخرج محمد على من مقابلة الملك وذهب إلى حسنين وقال له:

ـ لقد فعلت كل ما طلبته منى.

ثم سكت قليلا قبل أن يقول:

ـ ولكنى لا أفهمك.. عندما أشتمك تدعونى إلى المبارزة.. وعندما أمدحك تقول إنى خربت بيتك.. قل لى.. ماذا تريد؟

* * *

وجلس حسنين ـ يرحمه الله ـ يروى هذه التفاصيل فى يوم الاثنين ١٨ أبريل عام ١٩٤٠ ويعود بنا وبالذاكرة إلى حوادث عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ ثم قال:

ـ ولم أجب طبعا على سؤال الأمير محمد على وهو ماذا أريد . . ولم أقل له إن كل ما كنت أريده هو أن أسخر منه وأكشفه أمام الملك وأمام أمراء الأسرة وكيف أنه رجل لا أخلاق ولا قيمة له مطلقا وأن «كلمة توديه . . وكلمة تجيبه» .

ومع أن الأمراء كانوا جميعا يكرهون الأمير محمد على توفيق بسبب بخله الشديد وتزمته واستعلائه عليهم إلا أن الأمير عمر طوسن انتهز مع ذلك أول فرصة تقابل فيها مع حسنين باشا ليقول له أن الأمراء «زعلانين» منه أى من حسنين . . إذ كيف يجرؤ مصرى على أن يطلب أميرا ووليا للعهد للمبارزة؟!

أما فاروق فإنه لم يذكر لحسنين شيئًا عن غضب وزعل الأمراء منه .

وكان كل ما قاله له :

ـ ألا تعرف يا حسنين أن القانون يحمى ولى العهد وأن ذاته مصونة لا تمس؟

وأجاب حسنين :

ـ أعرف هذا يا مولانا . . ولكن عندما يشتم ولى العهد الناس فإنه بذلك يتنازل عن مركزه وحصانته ويصبح من حقى أن أرد عليه شتائمه وأن أعامله كأى فرد مساو لى فى الحقوق!

* * *

والآن وقد لخصنا فى الفصول السابقة قصة الملكة نازلى وأحمد محمد حسنين خلال السنوات الثلاث التى تلت وفاة الملك أحمد فؤاد . . وعرضنا للحوادث والمناورات والتمثيليات التى تخللت فصول القصة .

الآن نصل بالقراء إلى أوائل عام ١٩٤٠ وكان الموقف كما يأتى :

عرف الناس أن هناك شيئًا ما ، أو علاقة ما بين ملكة مصر نازلى وبين أحمد حسنين باشا وأصبحت هذه العلاقة موضوع حديث فى النوادى والمجتمعات والسهرات .

أما الخاصة ـ دوائر القصر وأوساط الأسرة المالكة ـ فكانت تعرف أن نازلى هى

التى تحب حسنين و«تجرى وراه» وتعرض نفسها عليه وتطلبه زوجا لها وتقدم له مئات الأفدنة من أراضيها هدية خالصة. . وإنه يرفض ويعرض عنها ويتأبى عليها ويستغفر الله ويعلن أنه رجل يكره الحرام ويخاف الله ولا يمكنه أن يقرب امرأة إلا على شرع الله وسنة الرسول!

وأن الملكة نازلى ثارت وهددت. . ثم حاولت أن تثير الغيرة فى صدر حسنين ولكنه لم يأبه ولم يتحرك. . وأن الملك فاروق كان يفزع إلى حسنين ويطلب منه النجدة فى كل مرة يخشى فيها أن تخرج أمه الملكة على العرف المألوف ومقامها السامى كأرملة ملك وأم ملك. . وأن حسنين يلبى نداء الملك ويسرع إلى نازلى ويفلح فى تهدئتها وكبح جماح أعصابها الثائرة.

. . وأن نازلى صارحت صاحب السمو الأمير محمد على ولى العهد بأنها عرضت نفسها عشيقة على حسنين وأن حسنين رفض.

. . وأن الأمير محمد على آمن بنبل وشرف حسنين وأن وجوده فى خدمة الملك وفى السراى نعمة من الله.

. . وأن فاروق نفسه حاول أن يجد شيئًا ضد حسنين. . كأن يضبطه مثلا فى موقف مريب مع أمه نازلى فلم يوفق. . بل على العكس.

. . فقد وجدهما فى خلوة وراء باب مغلق فى دار حسنين. .

. . ولكن! . . كان حسنين يتلو القرآن الكريم من مصحف بين يديه بينما كانت نازلى جالسة أمامه فى خشوع تصغى لآى الذكر الحكيم؟! وهكذا بدا حسنين أمام الملك وولى العهد وأمراء وأميرات البيت المالك كرجل شريف أبى النفس مخلص لمولاه والبيت المالك، حريص على سمعة البيت وكرامة الملك.

وإنه. . أهل للثقة. . ولولاه ولولا نفوذه على الملكة نازلى لكانت نازلى هذه قد خرجت على العرف والتقاليد وأثارت فضائح لا حد لها.

كان هذا رأى الجميع ما عدا قلة لا تذكر. ومن بينها مراد محسن باشا ناظر الخاصة الذى كان ينافس حسنين على نفوذه فى القصر ويغار منه ويتهمه بأنه ممثل قدير وأنه يلعب دوره مع الملكة نازلى بمهارة يحسده عليها يوسف وهبى!

والملك فاروق؟! بماذا كان يشعر نحو أمينه الأول ورائده أحمد حسنين؟

قلت إنه كان يلجأ إلى حسنين فى كل مرة تثور فيها نازلى وينادى: «الحقونى بحسنين»! وقلت إنه لم يجد ما يأخذه على حسنين.

ولكن ما من شك فى أنه بدأ ـ منذ ذلك التاريخ ـ يكره حسنين! كان يكفى أن يسمع من فم أمه نفسها أنها تحب حسنين وتريده.. وأن حسنين يعرض عنها!

كان يكفى فاروق أن يسمع من أمه هذا الكلام لكى يكره هذا الرجل الذى تريده أمه والذى «تمرمط» من أجله كرامتها وسمعتها، حتى ولو كان موقف هذا الرجل لا غبار عليه.

من يومها بدأ فاروق يكره حسنين.

يكرهه ويخشاه فى وقت واحد.

يكرهه للسبب الذى ذكرته.

ويخشاه لأنه محتاج إليه لأنه الرجل الوحيد القادر على كبح جماح أمه الملكة نازلى.. والرجل الوحيد الذى كانت تخشاه نازلى وتطيعه وتصدع بأمره وكان فاروق لا يزال يومئذ حريصا على سمعة أمه وسمعة القصر وسمعة البيت المالك.. بل وسمعة مصر!

وكان حسنين وحده ـ هكذا كان فاروق يؤمن ـ كان حسنين وحده وبيده القوية الممسكة بزمام نازلى وأعصابها، القادر على إنقاذ هذه السمعات جميعا!

ومن هنا وبسبب هذا الخوف كان فاروق يعمل لحسنين حسابا.. وينزل إلى حد كبير على رأيه ومشورته ويحرص على ألا يفعل شيئًا لا يرضى عنه حسنين.. وإن فعل أوصى من حوله أن يكتموا الأمر عن حسنين.

وإذا سمع حسنين بما حدث أسرع إليه فاروق يعتذر ويعد بألا يعود مرة أخرى إلى ما فعل!

وهكذا يمكن للمؤرخ الساخر أن يزعم ـ وهو على حق ـ أن علاقة نازلى بحسنين وسيطرته عليها ونتيجة هذا وهى خوف فاروق من أمينه الأول ـ كان هذا

كله نعمة «على مصر» نعمة لأجل محدود! . . إذ إنها أخرت انفجار الفضائح وانفجار فاروق بضع سنوات.

ولقد توفى حسنين فى ٩ فبراير عام ١٩٤٦ وقبل وفاة حسنين، وقبل فبراير ١٩٤٦ لم يكن فاروق يغشى أندية القمار ويمضى سهراته حتى مطلع الفجر فى أندية الميسر ولم يكن يزور الراقصات فى دورهن.

ولم يكن قد تمادى فى السرقة والاختلاس من أموال الدولة.

ولم يكن يهرب أمواله إلى الخارج . . ولم يكن قد تمادى فى الاعتداء على الأعراض وانتهاك الحرمات والعبث بكل مقدسات البلاد.

ولم يكن اسم مصر قد أمسى فى الحضيض.

ولم تكن صحف العالم ـ وصحف أمريكا بوجه خاص ـ قد نشرت تقول أن رجال الأعمال أصبحوا ينفرون من ممارسة أى نشاط تجارى أو صناعى فى مصر لأن جميع من فى مصر من أكبر عظيم فيها فما دون يطلبون «العمولة» أو «البقشيش»! نعم! شىء من هذا لم يكن قد حدث قبل وفاة حسنين لأن حسنين ـ رحمه الله ـ كان «الفرملة» الوحيدة القادرة على وقف فاروق.

وبعد وفاته انطلق فاروق! أما قبل وفاته فقد كان كل ما يفعله فاروق هو التردد على بعض المطاعم فى شارع الهرم والحلمية . . حيث الرقص والموسيقى ومع ذلك فإنه لم ينج من تقريع حسنين. وقد اضطر فاروق أن يوعز إلى أحد أفراد حاشيته أو خاصته أن يضع كتابا ـ يطبعه وينشره ـ ويقول فيه: «مولانا جلالة الملك فاروق» ليس الملك الوحيد الذى يزور المطاعم العامة لأن ملك يوغوسلافيا وملك اليونان يترددان فى معظم سهرات الأسبوع على مطعم الأوبرج بشارع الأهرام. وكان الملكان المذكوران يقيمان يومئذ فى القاهرة بعد فرارهما من بلديهما إثر احتلال الألمان ليوغوسلافيا واليونان.

وقال لى زميل ـ كان متصلا يومئذ بالقصر ورجاله ـ: إن فاروق كان يريد أن يطلق زوجته «الملكة فريدة» منذ عام ١٩٤٢ لولا معارضة حسنين . . وأنه ـ أى فاروق ـ هم أكثر من مرة بطلاق فريدة ولكن حسنين وقف أمامه يعارضه ويبصره بالنتائج الوخيمة التى تنجم عن هذا الطلاق.

ولكنه طلقها بعد وفاة حسنين!

وأذهب إلى أبعد من هذا فأقول أنه لو كان حسنين قد امتد به الأجل وعاش لما سافرت الملكة نازلى وبناتها إلى أوروبا وأمريكا لتثير من المشاكل والفضائح ما زلزل قوائم العرش، وهى لم تسافر إلا لأنها لم تعد تطيق الحياة فى مصر بعد وفاة حسنين!

ولما وقعت المخازى التى جعلت اسم مصر سبة فى الأفواه ومنها مثلا ما ارتكب من جنايات فى حق الوطن وحق الجيش إبان حرب فلسطين . . ولكن حسنين لم يعش وكأنما موته كان دقة الناقوس التى أنذرت بقرب هبوب العاصفة على العرش وأسرة محمد على!

حقائق سريعة . . موجزة مركزة . فيها الرد على الذين زعموا أو يزعمون أن حسنين كان المسئول عن فسق وفجور فاروق . . وأنه كان عامل الانحلال والفساد فى حكم فاروق . . وأنا هنا - فى هذه الفصول - أقول ما للرجل وما عليه . . ومع ذلك فأنا أعرف أننى قد أغضبت أصدقاء حسنين . . وأغضبت خصوم حسنين! أغضبت هؤلاء لأننى أنصفت الحقيقة ولم أهتف مع الهاتفين بأن حسنين كان بطلا وشهيدا وقديسا مبرءاً من كل عيب!

وأغضبت أولئك لأننى فندت اتهامهم وهو أن حسنين كان المسئول الأول عن فساد فاروق! ولأننى قلت أن حسنين كان مرشدا وهاديا وقائدا لا قوادا لفاروق!

* * *

ونصل الآن إلى أوائل عام ١٩٤٠ .

وفى العام المذكور عرف حسنين المطربة أسمهان وأعجب بها كما قالت هى . . وكما أحس أصدقاؤه أو أعجب بصوتها فقط كما قال هو!

وكانت أسمهان - يوم عرفها حسنين - تقيم بفندق مينا هاوس . وكان حسنين يزورها فى الفندق المذكور، وكان إذا لم يجدها يترك لها رسالة بخطه . . وعرف نزلاء الفندق والموظفون أن كبير رجال حاشية الملك فاروق يتردد على المطربة الشابة . وكان طبيعيا أن يخرج هذا الخبر من فندق مينا هاوس وينتشر هنا وهناك إلى

أن يصل إلى القصر والذين فيه! ودهش الذين يعرفون حسنين ويعرفون مبلغ حذره وحرصه وتكتمه . . دهشوا لقلة احتياطه ولعدم مبالاته أن يعرف الناس أن له علاقة بالمطربة أسمهان . وذات مساء وكان حسنين ـ رحمه الله ـ جالسا فى غرفة مكتبه بقصر عابدين ـ انطلق صوت أسمهان بإحدى أغنياتها المعروفة!

وروى لى حسنين نفسه التفاصيل فقال: وظننت أن أحد أجهزة الراديو العديدة فى السراى هو مصدر الصوت وأنه ينقله من محطة الإذاعة . . وانتهت الأغنية . . وأعقبتها أغنية أخرى لأسمهان . . ثم أغنية ثالثة . . عجبت وقلت ترى هل تذيع محطة الإذاعة هذه الليلة برنامجا خاصا لأسمهان!! ولكن عندما انطلق صوت أسمهان بأغنية رابعة وخامسة شككت فى الأمر وقمت من أمام المكتب ومشيت إلى النافذة وأطللت منها فرأيت «جلالة الملك» واقفا وأمامه على مائدة صغيرة جهاز فونوغراف وإلى جانبه أحد خدم القصر يحمل بضع أسطوانات . . ورفع الملك رأسه ورآني وقهقه ضاحكا وصاح :

ـ مبسوط يا حسنين؟

* * *

وأدرك حسنين أن حكايته مع أسمهان أو إعجابه بصوتها كما كان يقول لا بد أن تكون قد وصلت إلى مسامع الملكة نازلى .

فهل جزع أو اهتم؟ كلا! بل استمر فى إعجابه وفى تردده على أسمهان .

وليس لهذا التصرف من جانبه سوى تفسير واحد وهو أنه كان يتعمد إثارة غيرة الملكة نازلى . . جريا على سياسته معها وهى إثارتها وإثارة غيرتها ووجدها والتياعها إليه من وقت إلى آخر وإلا ـ وكان ـ رحمه الله ـ يعرف طبيعة الملكة نازلى حق المعرفة ـ فإن نار الشوق التى فى صدرها لا تلبث أن تهدأ ثم تبرد وتخمد وتموت! ولم يكن موت هذه النار من برنامج سياسته!

وذات يوم جاءتنى أسمهان تشكو وتقول :

ـ إيه حكاية صاحبك ده؟

قلت :

ـ صاحبى مين؟

قالت :

ـ صاحبك اللى اسمه حسنين !

ضحكت أنا وقلت :

ـ دلوقتى بقى اسمه «صاحبى اللى اسمه حسنين» !

وعمل إيه صاحبى اللى اسمه حسنين؟

قالت :

ـ كلمنى اليوم بالتليفون ومن غير بونجور أو سعيدة أو سلامات قال : «قولى لى يا مدام أطرش . هل صحيح أننى أزورك فى بيتك؟» وقبل أن أستطيع الرد أو سؤاله عن الحكاية . . عاد يسألنى :

ـ وهل صحيح أنك بتزورينى فى بيتى؟!

وقبل أن أرد مضى يجيب هو على نفسه ويقول :

ـ مش كده . . لا أنا أزورك . . . ولا أنت تزورينى ! . . . الحمد لله . . . متشكر يا مدام أطرش ! . . وأنهى المحادثة وأقفل التليفون !

وضحكت أنا طويلا وقلت لها :

ـ ولم تفهمى إيه الحكاية؟

قالت :

ـ لا . . لم أفهم .

قلت :

ـ حسنين كان يكلمك وإلى جانبه شخص آخر لا بد أنه كان يحقق معه فى علاقتك به . . ولقد أراد حسنين أن يبرئ نفسه من هذه التهمة فطلبك فى

التليفون ووجه إليك الأسئلة وتولى هو الإجابة عليها ولكن بطريقة يفهم منها الشخص المذكور أنها إجابتك أنت.

وصاحت أسمهان غاضبة:

ـ تهمة! . . معرفتى تهمة؟

وانطلقت ـ رحمها الله ـ تسب وتشتم . . ثم كأنها تذكرت شيئا كانت نسيته فسألتنى:

ـ ومن يكون هذا الشخص الذى يحقق مع حسنين؟

قلت:

ـ الملكة نازلى.

وزال فى الحال غضب أسمهان. وابتسمت غبطة وسرورا! فقد أرضى كبرياءها أن تكون غريمتها التى تغار منها صاحبة الجلالة الملكة نازلى.

واضطر حسنين بعدئذ أن يقتصد فى إعجابه بأسمهان وأن يكف عن زيارتها فى دارها واستقبالها فى داره.

وقابلت أسمهان هذا الفتور من جانب حسنين بعدم المبالاة. أو على الأقل تظاهرت بعدم المبالاة ومع ذلك فقد كان لا يمر شهر دون أن يتحدث الاثنان معا بالتليفون . . وكان هذا الحديث بالتليفون يطول ساعات.

كان يسمع لها مثلا أغنية جديدة من الإذاعة فيطلبها فى دارها بالتليفون ويبدى إعجابه بالأغنية . . أو يشرح لها ما فى الأغنية من قوة أو ضعف . . ويقترح عليها كذا وكيت . . وقال لها ذات مرة أن صوتها هو أصلح صوت لغناء قصائد المرحوم الشيخ على محمود. بل إنها تغنى قصيدة:

(يا نسيم الصبا تحمل سلامى) خيرا مما يغنيها الشيخ على محمود نفسه!

وكانت أسمهان تلقاه مثلا فى حفلة ساهرة تغنى فيها ويكون هو بين المدعوين إليها. ثم تلاحظ أنه غادر الحفلة قبل نهايتها . . فتعود إلى مسكنها وتطلبه بالتليفون

لتعاتبه وتسأله هل صوتها لم يعد يعجبه؟! وإلا فلماذا غادر الحفلة قبل أن يسمع الوصلة الأخيرة؟!

وهكذا.. ولكنهما كفا عن تبادل الزيارات.. ومع ذلك فإن الملكة نازلى لم تكن مطمئنة تماما إلى وفاء حسنين.. ولم تكن غيرتها وشكوكها تهدأ يوما إلا لتثور أياما. وذلك لأن حسنين لم يكن (أولا) حريصا على اطمئنان الملكة نازلى وثقتها فى وفائه. بل العكس هو الصحيح. أى أنه كان حريصا على أن يثير دائمًا غيرتها عليه وشكها فى إخلاصه ووفائه.. ولأنه (ثانيا) كان يجتاز مرحلة السن الحرجة التى يمر بها كل رجل وامرأة. وكان ـ رحمه الله ـ يومئذ فى الخمسين من عمره.

وكان حسنين طول عمره موضع إعجاب النساء. فقد كان فيه كل ما يعجب المرأة.. كان ممشوق القامة، حلو الحديث حسن الهندام.. جذابا، مؤدبا.. إذا أقبل على سيدة يتحدث معها خيل إليها أن حسنين لا يرى سواها ولا يهتم بسواها.. وكان إلى جانب هذا رياضيا ممتازًا وبطلا مبرزا من أبطال السيف، ورحالة مشهورا جاب مجاهل الصحراء وجابه أخطارها واكتشف واحة أو واحتين ودوى نبأ اكتشافاته فى جوانب العالم وكرمته الدول والهيئات العلمية العالمية.. ونال من الأوسمة والنياشين الأجنبية ما لم ينل مصرى فى مثل سنه.

وكانت ثقافته واسعة متعددة الألوان.. كان يستطيع أن يتحدث بسهولة وانطلاق فى ـ مثلا ـ الشعر العربى القديم والشعر العربى الحديث.. وفى المسرح.. والفرق بين المدرسة الإنجليزية فى التمثيل والمدرسة الفرنسية.. وفى الصيد والقنص.. وفى الطيران.. وكان يتحدث فى «الموضة» وتطوراتها.. وكان يمكنه أن يناقش ـ وعلى قدم المساواة ـ أية سيدة خبيرة فى الأزياء!

لم يكن عجيبا إذن أن تقبل عليه السيدات.. وأن يلقى عندهن من الحظوة والقبول ما لا يلقاه كثير من الرجال!

وقد قالت عنه ابنة رامزى ماكدونالد زعيم حزب العمال السابق ورئيس أول وزارة بريطانية للعمال.. قالت عن حسنين أنه أجمل رجل قابلته فى حياتها.

وقالت عنه الرحالة الإنجليزية روزويتا فوربس أنه ساحر خطر مخيف!

كان يمكنه إذن وبحكم منصبه الرفيع وبفضل الأوساط والبيئات التى يتحرك فيها . . كان يمكنه أن يختار أى عدد يشاء من الصداقات والصديقات من بين من نسميهن (سيدات الطبقة الراقية) ولكن حسنين كان «ذواقة» وكان ذوقه شعبيا أصيلا !

كان يجد راحة ومتعة ما بعدهما راحة ومتعة فى الجلوس ـ فى غير كلفة ـ مع بنات الشعب من الراقصات والمغنيات !

وكان حديثه ممتعا حقا وهو يشرح لون الجمال أو «الحلاوة» فى كل منهن !

ما أجمل المطربة لـ . . مثلا ما أجملها لو لبست الملاية اللف وعقصت منديل الظرافة على جبينها فوق الحاجبين . . ودقات «شبشبها» مع رنة الخلخال !

ويحاول ـ رحمه الله ـ أن يقنع المطربة المذكورة بلبس الملاية اللف ومن تحتها القميص التوللى !

وهكذا . . دخلت أسمهان ثم خرجت من حياته ولو إلى حين !

ودخل معها فى نفس الوقت عدد عديد من المغنيات والراقصات .

وأمسى رجال القصر والحاشية يتندرون «بغزوات» حسنين . . مع الراقصة فلانة أو المطربة علانة .

ووجد فاروق فى هذه القصص مادة يتشفى بها من أمه الملكة نازلى التى جحدت ذكرى أبيه الملك أحمد فؤاد . . وفرطت فى واجبات مقامها السامى بصفتها أم ملك مصر .

مضى فاروق يتشفى ـ ولم يدر أنه يخدم مصلحة حسنين بنقل هذه الأخبار إلى أمه الملكة نازلى .

وأخيرا فاضت كأس الصبر . . وحزمت الملكة نازلى حقائبها وسافرت غاضبة ثائرة إلى فلسطين .

ولم يكن فى وسعها ـ والحرب العالمية الثانية قائمة ـ أن تسافر إلى أوروبا .

سافرت إذن إلى فلسطين وأقامت فى القدس بفندق الملك داود . . وكان هذا فى أواخر عام ١٩٤٢ .

وطالت غيبتها عن مصر . . وبدأت الأخبار ترد على القصر وكيف أن صاحبة الجلالة نازلى ملكة مصر أمضت السهرة فى رقص متواصل مع بعض الضباط الإنجليز .

وكنا ـ كما قلت ـ فى زمن الحرب . . وكانت القدس مملوءة بالضباط الشبان الإنجليز !

ومرة أخرى لجأ فاروق إلى حسنين وطلب منه أن ينقذ الموقف وأن يسافر إلى القدس ويعود ومعه الملكة نازلى .

ولكن حسنين رفض فى هذه المرة أن يلبى نداء «مولاه» وينقذ الموقف . واعتذر عن عدم السفر بأسباب شتى لم يكن من بينها السبب الصحيح .

وكان السبب الصحيح لامتناعه عن السفر إلى القدس هو خوفه من أن يقابل أسمهان فى فندق الملك داود، فإن أسمهان كانت قد عادت إلى زوجها حسن الأطرش أمير جبل الدروز وعقد قران الاثنين فى شهر أغسطس ١٩٤١ فى حفلة كبيرة أقيمت فى دمشق وشهدها الجنرال كاترو .

وكانت أسمهان تضيق بالحياة مع زوجها . . وبالحياة فى جبل الدروز . . ومن ثم كانت تقوم برحلات عديدة فى كل شهر تقريبا إلى القدس وبيروت . . وخصوصا القدس وكانت تختار الإقامة بفندق الملك داود .

وكان حسنين يعرف هذا . . ومن هنا اعتذر عن عدم السفر إلى القدس . وإلا فماذا يكون الموقف أو ماذا يكون موقفه وماذا يفعل إذا التقى بأسمهان؟ . . هل يتجاهلها؟ . . أو يحييها كما يجب أن يحيى الصديق صديقه؟!

وماذا يكون موقفه إذا وجد نفسه فى إحدى قاعات الفندق . . أو فى قاعة الرقص مع نازلى ملكة مصر . . وأسمهان أميرة جبل الدروز؟

وكانت أسمهان إذا دار الشراب برأسها قادرة على عمل كل شىء . . جسورة جريئة لا تهاب أحدا ولا تبالى بشىء .

وكان حسنين يعرف هذا . . ومن هنا رفض أن يسافر لأنه خاف من أن تنتهز أسمهان فرصة وجوده ووجود الملكة نازلى لكى تفتح «محضر تحقيق» مع نازلى . . تحقق فيه معها فى موضوع «محضر التحقيق» الذى كانت جلالتها أجرته بشأنها مع حسنين!

وتظهر الحقيقة ويقع حسنين بين مطرقة الملكة نازلى وسندان أسمهان!

وهكذا اعتذر حسنين عن عدم السفر . . ولكنه اقترح على الملك فاروق أن يعهد بهذه المهمة إلى «رفعة» رئيس الوزراء مصطفى النحاس «باشا» وقال : إن رفعته هو خير من يصلح للقيام بهذه المهمة لأن جلالة الملكة نازلى وفدية (هكذا!) مثل المرحوم والدها عبد الرحيم صبرى باشا الذى كان من أخلص الوفديين وأصدقهم تأييدا للزعيم سعد زغلول . . ولأنها تحترم النحاس «باشا» وتكن له صداقة أكيدة . . ومن هنا لن ترفض لرفعته طلبا أو مشورة .

وفوتح مصطفى النحاس «باشا» فى الأمر . . وسر «رفعته» سرورا كبيرا وقال إنه يعد هذا التكليف من جانب «الفاروق» شرفا وثقة يعتز بهما مدى الحياة!

وسافر السيد مصطفى النحاس ومعه السيدة حرمه إلى القدس . . ونجح فى مهمته واستجابت الملكة نازلى فعلا لرجائه وعادت إلى مصر . .

عادت ولكن على شرط . . ولا أعرف ما إذا كانت نازلى قد فاتحت النحاس «باشا» فى موضوع (شرطها) هذا أو لم تفاتحه . . ولكنى أعرف أنها لم تكد تعود إلى مصر حتى فاتحت ابنها الملك فاروق فى أمر زواجها برئيس ديوانه أحمد محمد حسنين . . وطلبت منه أن يصدر أمره إلى حسنين بأن يتزوجها! لأن حسنين ـ كما سبق أن قدمت ـ كان صارحها بأنه لا يمكن أن يتزوجها خوفا من أن يطرده الملك من خدمته وهو رجل فقير . . إلى آخره .

ولكن إذا أمره الملك أن يتزوجها فلا خوف عليه إذن من الطرد . . وهل يطرد فاروق زوج أمه؟!

ولم يشأ فاروق أن يتقهقر أمام أمه نازلى أو يسلم لها بطلبها دون قيد أو شرط . . لأنه وافق ولكن بشرط .

وهذا الشرط أن تكتفى نازلى بعقد زواج عرفى!

وهكذا كان . . وتزوج أحمد حسنين ابن المرحوم الشيخ محمد حسنين العالم الأزهرى بالملكة نازلى أرملة الملك أحمد فؤاد ووالدة صاحب الجلالة فاروق الأول ملك مصر .

وكان أحد شهود عقد الزواج المرحوم الأستاذ سليمان نجيب مدير دار الأوبرا . . وكان حسنين يثق كل الثقة فى حذره وكتمانه . . ومثله الملك فاروق .

ولقد حاولت أن أعرف اسم الشاهد أو الشهود الآخرين . . وكذلك اسم المحامى الشرعى الذى عقد هذا الزواج العرفى فلم أوفق .

وربما كان الشاهد الآخر هو المرحوم مراد محسن باشا ناظر الخاصة الملكية . . أو لعله كان أحد خدم فاروق المقربين .

ربما . . وربما . . ولكننى لا أستطيع أن أقطع بقول .

* * *

واختارت الملكة نازلى سراى الدقى التى ورثتها عن أبيها عبد الرحيم صبرى لتكون دارا للزوجية . . تقابل فيها «عريسها» حسنين! لأن نازلى ـ ولعلها المرة الأولى ـ خجلت أو استحيت من ابنها أن تقابل زوجها فى جناحها بقصر القبة أو بقصر عابدين حيث كان يجتمع بها زوجها الأول الراحل . . أحمد فؤاد!

ولم تمض شهور معدودات على عقد هذا الزواج حتى بدت أولى ثمراته . . يوم رشح فاروق رئيس ديوانه أحمد حسنين رئيسا للوزارة الجديدة التى كان مقدرا لها أن تخلف وزارة النحاس باشا فى شهر أبريل عام ١٩٤٣ .

وسوف أتناول بالتفصيل هذه المرحلة من حياة أحمد حسنين حين أعرض للجانب السياسى منها وأكتفى الآن بعرض رءوس المسائل أو العناوين :

١ ـ قامت وزارة ٤ فبراير ١٩٤٢ برئاسة مصطفى النحاس «باشا» على كره من الملك فاروق وحسنين الذى كان يعد حادث ٤ فبراير لطمة على وجهه وفشلا مخجلا لسياسته كرئيس لديوان الملك .

٢ ـ أقسم حسنين لفاروق على أن يرد له اعتباره . . وأن ينتقم من السفير البريطانى مايلز لامبسون . . ومن رئيس الوفد مصطفى النحاس .

٣ ـ قدر حسنين أن الفرصة مواتية لإقالة مصطفى النحاس ووزارته من الحكم . . فى أبريل عام ١٩٤٣ .

٤ ـ قال فاروق لحسنين باشا إنه يطلق يده فى الموضوع وإنه يعهد إليه شخصيا بتشكيل الوزارة الجديدة التى تقوم بالحكم بعد إقالة مصطفى النحاس باشا ووزارته .

٥ ـ اختار حسنين باشا فعلا أعضاء وزارته . . وأعد كشفا بأسمائهم .

وبينما إجراءات الإقالة وتشكيل الوزارة الجديدة فى مراحلها الأخيرة . . كانت عيون الإنجليز بالمرصاد!

واتصل الخبر بمايلز لامبسون . . وأبرق إلى لندن بالتفاصيل . . وجاء الرد فورا من لندن فى شكل إنذار وهو أن الحكومة البريطانية ترى أن الحرب توشك أن تدخل فى مرحلة دقيقة حاسمة وهى غزو أوروبا التى تحتلها جيوش هتلر ومن ثم فإنها ـ أى لندن ـ لا تسمح بإجراء أى تغيير أو تعديل فى الأوضاع القائمة فى مصر . . وتنصح ببقاء وزارة الوفد ومصطفى النحاس باشا فى الحكم!

وحمل السفير البريطانى مايلز لامبسون هذا الإنذار إلى الملك فاروق .

وطويت وزارة حسنين باشا!

* * *

وكنت أود أن أقف بالحديث هنا عن قصة نازلى وحسنين . . وحسنين وأسمهان . . وأن أنتقل إلى الجانب السياسى من حياة أحمد حسنين باشا .

ولكننى وقد عرضت لعلاقة حسنين بأسمهان . . أرى أن أمضى فى القصة إلى نهايتها . . وكيف أن أسمهان عادت واتصلت بحسنين فى عام ١٩٤٤ . . وما كان لهذا الاتصال من أثر فى حياة زوجها المرحوم أحمد سالم . . وبسببه أطلق عليها الرصاص ثم حاول الانتحار . . إلى آخره .

وما كان لهذا كله من أثر فى العلاقة بين الزوجين الملكة نازلى وحسنين .

والقال والقيل اللذان أحاطا بحسنين عقب حادثة أحمد سالم وأسمهان .

ووزارة الوفد وكيف أرادت أن تستغل هذه «الفضيحة» ضد عدوها رئيس الديوان أحمد حسنين .

وهل كان هذا كله - أى حكاية حسنين وأسمهان وأحمد سالم - هل كان سببا لعدم اختيار حسنين باشا لرئاسة الوزارة التى خلفت وزارة النحاس باشا التى أقيلت فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤؟ مع أنه كان المرشح الوحيد لرئاسة الوزارة قبل ذلك بعام أو نحو ذلك فى أبريل سنة ١٩٤٣ .

كانت أسمهان قد ضاقت بحياة الزوجية وقيودها . . وضاقت بغيرة زوجها حسن الأطرش . . وضاقت بالحياة المملة الرتيبة فى قصر زوجها بالسويداء عاصمة جبل الدروز . . ومن هنا راحت تلتمس أوهى الأسباب للسفر حينا إلى بيروت وحينا إلى القدس . . حيث الحياة مرحة طليقة لا قيود ولا رقابة زوج محب غيور !

بل وأمكنها أن تقنع زوجها الأمير حسن الأطرش بالحضور معها إلى مصر مرة ومرتين . ونشرت الصحف خبر حضور سعادة الأمير حسن الأطرش محافظ جبل الدروز ومعه زوجته الأميرة آمال الأطرش !

وآمال هو اسمها الحقيقى . . أما «أسمهان» فاسم مستعار لدنيا المسرح والغناء .

* * *

عادت إذن إلى مصر . . فى صحبة زوجها وفى يدها جواز سفر دبلوماسى أعطتها إياها سلطة الانتداب الفرنسى فى سوريا بصفتها زوجة زعيم درزى كبير ومحافظ لجبل الدروز .

وكان الأستاذ زكى سعد أحد مديرى البنك الدولى الآن . .

كان يومئذ مديرا لإداراة الجوازات والجنسية . . وأنا أعرف - ومما سمعته منه شخصيا - أنه لم يكن يحسن الظن كثيرا بالمطربة أسمهان ، وأنه كان يعارض فى إقامتها بمصر . وكان يرفض تجديد الإذن لها بالإقامة . بل وحدث مرة أنه استمضى رئيس الوزراء والحاكم العسكرى العام - وكان يومئذ صاحب الدولة حسين سرى باشا - استمضاه أمرا بإخراج أسمهان من الديار المصرية .

وجاءتنى أسمهان يومئذ تبكى! وزرت «صاحب الدولة» رئيس الوزراء فى مكتبه . . وتفضل الرجل يومها واستجاب لوساطتى وألغى أمر الإخراج وأمر وكيل وزارة الداخلية بتجديد إذن الإقامة لأسمهان لمدة عام!

وها هى ذى أسمهان تعود إلى مصر . . والأستاذ زكى سعد لا يستطيع أن يمنعها من الدخول . فقد عادت بصفتها زوجة لرجل له جاهه ونفوذه ومقامه الرسمى فى قطر عربى شقيق .

وطابت لها الإقامة فى مصر . . ولما عادت إلى سوريا مع زوجها بعد الزيارة الأولى . . غادرت مصر وهى كارهة .

وفى الزيارة الثانية لمصر . . كانت أسمهان قد انتوت أمرا وهو أن لا تعود مع زوجها إلى جبل الدروز .

وطلبت منه أن يطلقها . . ورفض هو الطلاق . . وهنا فعلت ما كانت تفعله فى كل مرة تريد فيها الطلاق . . وهو محاولة الانتحار وتناولت عددا كبيرا من أقراص الإسبيرين وطلقها زوجها حسن الأطرش . . وتركها فى القاهرة وعاد وحده إلى جبل الدروز .

وغاب عن أسمهان أن زواجها كان «حصانة» لها عند سلطات الأمن العام وإدارة الجوازات . . فلما طلقت سقطت عنها «الحصانة» المذكورة .

ولم يتردد الأستاذ زكى سعد فى أن يصدر أمره بخروجها من مصر .

وخرجت أسمهان من مصر . . وسافرت إلى القدس وأقامت كعادتها فى فندق الملك داود .

وكانت تمضى أيامها فى التنقل بين بيروت «فندق سان جورج» وبين القدس . . ولكنها لم تجرؤ على العودة إلى سوريا أو جبل الدروز لأنها كانت تعلم أن زوجها السابق الأمير حسن الأطرش حاقد عليها وأنه صاحب نفوذ وسلطان وأتباع موالين مخلصين مطيعين طاعة عمياء .

وأن رصاصة طائشة ـ كما يقال ـ عنها كذلك فى محضر التحقيق ـ قد تصيب منها مقتلا!

ومن هنا وزعت أيامها ـ كما قلت ـ بين القدس وبيروت . . ولم يلبث المال الذى كان بيدها أن تبدد . . فقد كانت ـ رحمها الله ـ مسرفة كل الإسراف وجاء يوم عجزت فيه عن تسديد حساب الفندق .

وحجزت إدارة فندق الملك داود على حقائب ثيابها واضطرت أسمهان أن تبيع الحلى القليلة التى كانت تقتنيها وأن تقترض من هنا ومن هناك .

* * *

وبينما هى فى هذه الورطة أو هذه المحنة زار القدس الأستاذ إسكندر الوهابى وكان يشغل يومئذ منصبا كبيرا بوزارة الخارجية المصرية . . وأعجب بأسمهان وسحره صوتها وفتنتها .

وكان طبيعيا أن ترجوه أسمهان أن يتوسط ـ بما له من نفوذ ـ فى أمر السماح لها بالعودة إلى مصر . . لكى تستأنف الغناء والعمل فى السينما . . وعاد الأستاذ إسكندر الوهابى إلى مصر وتحدث إلى الأستاذ حسين سعيد خال الملكة فريدة ـ وكانت لا تزال يومئذ ملكة مصر ـ وأطنب له فى وصف أسمهان وفى جمال صوتها وفى فتنتها وسحرها . . . إلخ .

وكان الأستاذ حسين سعيد يشغل يومئذ منصب مدير ستوديو مصر للسينما وسافر حسين سعيد إلى القدس وقابل أسمهان .

ووقع بدوره أسير فتنتها وسحر صوتها .

ووقع معها ـ بالنيابة عن ستوديو مصر ـ عقدا للعمل فى الأفلام التى تنتجها وتخرجها شركة مصر للسينما والتمثيل ونص فى العقد على أن أجر أسمهان عن عملها فى أول فيلم هو ثلاثة عشر ألف جنيه وهو مبلغ يزيد كثيرا على الأجر الذى كانت تحصل عليه كبيرات الممثلات والمطربات فى ذلك الوقت .

وعاد الأستاذ حسين سعيد إلى القاهرة ليبذل مساعيه الحميدة من أجل الإذن لأسمهان بالعودة إلى مصر . . وسمعنا يومئذ أنه بذل هذه المساعى عند السيدة حرم «رفعة» رئيس الوزراء يومئذ مصطفى النحاس «باشا» .

ونترك القاهرة . . ونعود إلى القدس . . حيث كانت أسمهان لا تزال مقيمة بفندق الملك داود فى انتظار وصول الإذن لها بالعودة إلى مصر .

هذا وقد سددت ديونها للفندق من العربون السخى الذى حصلت عليه بموجب نصوص عقدها مع شركة مصر للسينما والتمثيل .

وذات يوم نزل بالفندق الأستاذ أحمد سالم والفنانة المعروفة تحية كاريوكا وكلاهما كان صديقا لأسمهان .

غير أن تحية لم تلبث أن غادرت القدس إلى لبنان وحلب لإحياء بعض حفلات الرقص التى كانت تعاقدت عليها .

وتركت أحمد سالم فى القدس ينتظر عودتها . . ولكنها عندما عادت من حلب وجدت أن أحمد سالم قد تزوج أسمهان بعقد زواج شرعى صحيح .

* * *

ونعود الآن إلى القاهرة وإلى إدارة الجوازات والجنسية . . وجدت الإدارة المذكورة أن أمامها طلبا قويا مؤيدا بأسباب قوية مشروعة . . هذه السيدة ـ أسمهان ـ كانت تعمل فى مصر وفى محطة الإذاعة كمطربة محترفة . . وأفراد أسرتها . . والدتها وشقيقاها الاثنان يقيمون فى مصر .

. . وبيدها عقد اتفاق على العمل مع شركة مصر للسينما والتمثيل .

ثم هى أصبحت بموجب عقد شرعى صحيح زوجة لمصرى هو أحمد سالم «رحمه الله» .

وفوق هذا وذاك لا يمكن لها أن تغفل وساطة أو شفاعة السيدة حرم رئيس الوزراء .

وأخيرا لا آخرا بسبب قوى آخر لعله أقوى الأسباب وقد قص علىَّ الأستاذ زكى سعد نفسه هذه التفاصيل ونحن فى قطار القاهرة ـ دمياط ذات يوم فى صيف عام ١٩٤٥ . قال سيادته ـ وهو كما قدمت لم يكن يحسن الظن كثيرا بأسمهان ـ قال لى :

ـ كان فى إمكانى ألا أقيم أى وزن لعقد أسمهان مع ستوديو مصر للسينما. وأن أرفض الإذن لها بالعودة إلى مصر. . كذلك لم يكن لزواجها من أحمد سالم أى وزن من الجهة القانونية لأن أسمهان رعية أجنبية والقانون القائم يومئذ لا يعترف بزواج المصرى من أجنبية إلا بعد موافقة وزارتى العدل والداخلية. . فإذا لم يحصل الزوجان على هذه الموافقة فإن زواجهما لا يمكن أن تترتب عليه أية نتائج بالنسبة لنا فى إدارة الجوازات والجنسية.

ومضى الأستاذ زكى سعد فى حديثه وقال:

ـ كان يمكننى إذن أن أرفض الإذن لها بالدخول إلى مصر ولكنى تلقيت تقريرا من قنصلية مصر بالقدس جاء فيه أن الأمير حسن الأطرش أقام قناصة من الدروز على الحدود بين فلسطين وسوريا وأمرهم بإطلاق الرصاص على زوجته السابقة أسمهان إذا هى حاولت العودة إلى سوريا. وهذا الخطر القاتل قد يكمن لها كذلك عند حدود لبنان ـ فلسطين! ولهذا السبب راجعت نفسى وضميرى إذ لم يكن فى استطاعتى أن أحكم بالنفى المؤبد على أسمهان فى القدس أو بالموت إذا هى حاولت مغادرة فلسطين إلى سوريا أو لبنان.

راجعت نفسى وسمحت لها بدخول مصر والإقامة فيها وقد زارتنى فى مكتبى عقب وصولها إلى القاهرة فحدثتها طويلا عن السبب الحقيقى الذى حملنى على السماح لها بدخول مصر ثم قلت لها: «إننا نعدك ابنة لمصر لأنك أمضيت فيها من سنّى حياتك أكثر مما أمضيت فى وطنك. . ولا مانع عندنا مطلقا من أن تقيمى فى مصر ما شاءت أو طابت لك الإقامة فيها ولكن على شرط أن لا تسمع عنك السلطات إلا ما يسُر».

* * *

وهكذا عادت أسمهان إلى مصر. .

ولقد فهمت هى من حديث الأستاذ زكى سعد معها أن السماح لها بالعودة إلى مصر لم يكن بسبب عقدها مع ستوديو مصر. . ولا بسبب زواجها من أحمد سالم. . وكانت تزوجته لكى تستطيع العودة إلى مصر.

ولكن هذا الزواج لا دخل له بموضوع إقامتها فى مصر . . ولا يقدم ولا يؤخر كما فهمت من حديث مدير الجوازات والجنسية .

وكان لهذه الحقيقة أثر فى نفس أسمهان . أثر لم يلبث أن بدأ فى سلوكها مع زوجها أحمد سالم وذلك أن أسمهان بدأت تضيق بحياة الزوجية وبقيود الزواج وبغيرة أحمد سالم وبسؤاله أين كانت؟ . . وأين أمضت سهرتها؟ ومع من؟ . . ومن الذى كان يحدثها بالتليفون؟ . . ولماذا قطعت حديثها التليفونى عندما دخل؟!

وبدأ الخلاف والخصام بين الزوجين .

وذات يوم . . ذهبت أسمهان إلى مسكن تحية كاريوكا تطلب مقابلتها .

وكان طبيعيا أن تعجب تحية وتدهش . . ما سر هذه الزيارة وما وراءها؟

لقد كانت آخر مقابلة بينهما ـ بين تحية وأسمهان ـ بفندق الملك داود بالقدس يوم عادت تحية من حلب «سوريا» ووجدت أسمهان قد اختطفت منها أحمد سالم وتزوجته .

وكان شتم وسب وخصام بين أسمهان وتحية!

وها هى أسمهان تزور تحية . . وتطلب أن تقابلها! وتحية طيبة القلب . . ولقد رحبت بأسمهان وأحسنت استقبالها .

وقالت أسمهان :

ـ عاوزة منك خدمة .

ـ بكل سرور .

قالت :

ـ عاوزه تطلبى أحمد سالم اليوم بالتليفون فى الساعة كذا . . وسوف أرد على التليفون . . وتطلبى منى أن تكلمى زوجى أحمد سالم .

وشرحت أسمهان لتحية السر والسبب .

ووافقت تحية . . وأية امرأة لا توافق فى مثل ظروفها على السخرية والهزء من رجل كان تخلى عنها من أجل امرأة أخرى .

وكانت أسمهان وأحمد يعيشان معا فى ذلك الوقت فى «فيللا» استأجرتها أسمهان بشارع الهرم.

* * *

وفى الساعة المحددة دق جرس التليفون عند أسمهان وكان زوجها أحمد سالم موجودا معها. وتناولت هى السماعة.

وسمعها أحمد سالم تقول.. «أيوه موجود!.. ومين عاوزه؟! وعايزاه ليه؟.. طيب.. حاضر.. ماتزعليش.. آهو جاى يكلمك!».

ثم التفتت إلى أحمد سالم وقالت بابتسامة ذات معنى أو معان:

ـ تحية كاريوكا عايزه تكلمك ياسى أحمد!

وكانت مفاجأة للمسكين.. وقام وتناول سماعة التليفون وقد وقفت بجانبه أسمهان.. تنصت إلى الحديث.

ولم يكد أحمد سالم يقول (آلو) حتى انطلقت تحية بصوت عال مجلجل تعاتبه وتوبخه على إخلافه وعوده ومواعيده وتقول له إنها لم تطلب مقابلته وإنه هو الذى طلب مقابلتها وألح وألحف فى الرجاء حتى قبلت.. وحددت له الساعة فلماذا لم يحضر فى الميعاد المتفق عليه... ودى مش أخلاق... ومش أدب.. إلى آخره.

هذا والمسكين فاغر فاه ـ وقد أخذته المفاجأة ـ لا يعرف ماذا يقول؟!

وأنهت تحية حديثها وقطعت المواصلة التليفونية.. ولم تترك له أسمهان وقتا يفيق فيه من دهشته.. بل أخذت بخناقه تهزه بعنف وتقول له:

ـ يا أنا.. يا أنت فى البيت! مش ممكن أعيش معاك.. طلقنى!

ومشهد عاصف.. وبكاء ودموع.. وأقسام وأيمان.. وأسرع أحمد سالم ـ رحمه الله ـ إلى غرفة الحمام وتناول زجاجة فيها مطهر مما يستعمله النساء فى بعض أمورهن وأفرغ ما فى الزجاجة فى جوفه يريد الانتحار.

وعلا الصراخ والعويل . . ودقت تليفونات . . وأسرع إلى «الفيللا» أصدقاء وصديقات الزوجين .

وحضر الطبيب على عجل . . وغسلت معدة الزوج المسكين وتم الصلح بين أحمد وأسمهان .

وخرجت أسمهان من المعركة . . فى شكل «شهيدة» يخونها زوجها . . ويغازل امرأة أخرى . . ومع ذلك تصفح عنه وتغفر له وترضى بالحياة معه!

ومن حق هذه الزوجة بعد ذلك أن تقول لزوجها : «حسبك» ولا تتشدد معى فى الحساب أين كنت ومع من كنت!

ولكن أحمد سالم لم يكن ذلك الزوج . . فقد مضى يدقق فى الحساب ويحاسب زوجته عن كل كبيرة وصغيرة وعن كل ساعة لا تمضيها معه . . أين كانت . . ومع من كانت!

وأخيرا داخله الشك فى أمرها . . ولكنه لم يصارحها بشكوكه . . بل مضى يراقبها ويتبعها دون أن تعلم!

ورآها ـ دون أن تراه ـ رآها تخرج من دار حسنين باشا بميدان عبد المنعم فى الدقى .

وذهب إلى دكان بقالة قريب وطلب حسنين باشا بالتليفون فى داره . . ولما رد حسنين قال له إنه لا يعرف كيف يبدأ حديثه . . فهو يحترم حسنين باشا ويقدر صفاته الممتازة . . ولكنه كزوج يغار على زوجته وله حقوق . . ثم قال :

ـ ومن حقى أن أسأل رفعتك ماذا كانت تفعل زوجتى عندك؟ . . ولماذا تزورك من غير علمى ومن غير إذن منى؟ . . بل ـ وأنت جنتلمان ـ لماذا تستقبل فى دارك سيدة متزوجة من غير أن يكون زوجها معها؟

فإذا كنت دعوتها لزيارتك فإن من حقى أن أسالك لماذا لم تدعنى معها؟ . . وإذا كانت هى قد زارتك من غير أن تدعوها فإن المسألة تحتاج إلى تحقيق فى الأسباب والظروف . . إلى آخره .

وأصغى حسنين إلى «عتاب» أو حساب أحمد سالم فى صبر حليم. ولما تكلم كان فى صوته حزن وأسف!

حزن وأسف المظلوم البرىء الذى اتهمه أحمد سالم فى أغلى ما يعتز به وهو شرفه وعفته ونزاهته!

قال ـ رحمه الله ـ بصوت عادى حزين:

ـ عيب يا أحمد! دا أنت زى ابنى. ومراتك زى بنتى. . وأنا كنت فاكر أنها قالت لك وأنك عارف بزيارتها لى.

ومضى حسنين يقول إنه ـ مثل جميع من فى البلد ـ يعجب بصوت آمال «اسم أسمهان الحقيقى» ويهمه حقيقة أن لا تغنى إلا ما يوافق طبقات صوتها.

ومضى حسنين باشا ـ رحمه الله ـ فى حديث فنى عن الموسيقى والأغانى والصوت وطبقاته.

ثم قال: إن آمال زارته لكى تستأنس برأيه فى أغانى فيلمها الجديد القادم. . «وكان فيلم: غرام وانتقام».

وانتهت المحادثة!

وتظاهر أحمد سالم بأنه صدق حسنين واقتنع. . ولكنه ـ طبعا ـ لم يصدق حرفا مما قاله حسنين.

وعاد إلى داره أو دار أسمهان ليسألها لماذا زارت حسنين باشا ولماذا لم تستأذنه فى هذه الزيارة؟

وأجابت بأن حسنين صديق قديم وأنها عرفته من قبل أن تعرف أحمد سالم. . وليس فى نيتها أن تقاطع أصدقاءها القدامى من أجله. . كما أنه ليس من عادتها أو طبعها أن تستأذن أحدا فى زياراتها. . وأنها حرة تزور من تشاء فى أى وقت تشاء.

وإذا لم يعجبك هذا. . فأنت حر! وطلقنى وأرح بالك وبالى. .

وكلام كتير فى هذا المعنى.

ومرة أخرى حاول المسكين الانتحار . . وأسعفوه وأنقذوه .

* * *

وبدأ أحمد سالم يسرف فى شرابه . . يحاول أن يخدر أعصابه الثائرة .

وكانت أسمهان كذلك تدمن الشراب .

وهكذا مضت الحياة بينهما فى شراب وعراك .

وذات مساء انتصف الليل ولم تعد أسمهان . . وجلس أحمد سالم ينتظر .

والساعة الأولى صباحا ولم تعد أسمهان . . وتناول أحمد سالم التليفون وسأل عنها فى دار صديقة لها ـ كانت تكثر يومئذ من التردد عليها ـ وقالت الصديقة المذكورة إن أسمهان كانت زارتها بعد ظهر اليوم ولكنها انصرفت قبل الثامنة مساء .

وأخيرا . . فى نحو الساعة الثالثة صباحا عادت أسمهان ووجدت زوجها قائما ينتظر ! وشىء ما فى عينيه أخافها وحبس ألفاظ التحدى فى فمها .

سألها أين كانت . . فتلعثمت واضطربت . . وأخيرا قالت إنها كانت عند صديقتها فلانة !

وذكرت اسم الصديقة التى كان أحمد سالم سألها وعرف منها أن أسمهان تركتها قبل الساعة الثامنة مساء !

قال ـ رحمه الله ـ وهو يصر على أسنانه :

ـ كنت عندها لدلوقت؟

قالت : نعم .

قال : ولكنى سألتها عنك فقالت إنك انصرفت من قبل الساعة الثامنة؟

وسكتت أسمهان . . فقد أحست للمرة الأولى بالخوف من زوجها أحمد سالم !

وعاد يسألها :

ـ كنت فين لدلوقت؟ . . عند حسنين؟

ووثب واقفا . . ولكنها كانت أسرع منه إلى الباب ! وكان ـ رحمه الله ـ قد أخرج

من جيبه مسدسا . . صوبه إليها وهى تجرى وأطلق النار . ولكنه لم يصبها . . وهربت أسمهان ولجأت إلى دار أحد جيرانها حيث أمضت ما بقى من الليل .

واتصلت بالتليفون باللواء سليم زكى حكمدار بوليس القاهرة يومئذ وكانت صديقة له ولأسرته وأبلغته أن زوجها أحمد سالم أطلق عليها الرصاص يريد قتلها وطلبت منه أن يحميها .

وأوفد اللواء سليم زكى - رحمه الله - الأميرالاى إمام إبراهيم ليحاول إصلاح الأمر ما بين الزوجين . وكان سليم زكى يعرف بحكم صداقة أسرته لأسمهان أو آمال الأطرش . . كان يعرف كل ما يحدث فى بيت الزوجية .

* * *

وذهب الأميرالاى إمام إبراهيم إلى «الفيللا» التى كانت أسمهان تقيم فيها هى وزوجها أحمد سالم .

ووجد أحمد سالم متمددا فوق فراشه . . وقد شد فوقه الغطاء . . وكأنه يحاول أن يخفى تحته شيئًا ما كان بيده!

وانطلق أحمد سالم يسب ويشتم فى أسمهان وفى حسنين وحاول إمام إبراهيم أن يهدئ من ثورته . . ثم حاول أن يقترب منه ولكن أحمد سالم صاح به أن يقف فى مكانه ولا يقترب وأعلن أن بيده مسدسا وأنه سوف يطلق الرصاص على كل من يحاول القبض عليه!

ودارت مناقشة بين الرجلين . .

إمام إبراهيم يتكلم بهدوء ولطف يحاول أن يهدئ من ثورة أحمد سالم وأن يقنعه أن ليس هناك ما يخشاه . . ويحاول فى نفس الوقت أن يقترب قدما بقدم وخطوة بخطوة من الفراش الممدد فوقه أحمد سالم!

وأحمد سالم يصف أسمهان بأقبح النعوت ويروى ما فعلته وما تزال تفعله معه وكيف أنها تخونه مع أحمد حسنين .

. . وفى لحظة ما اعتقد إمام إبراهيم أنه أصبح على قرب كاف من الفراش . فوثب على أحمد سالم محاولا الإمساك بيده التى تمسك بالمسدس .

وانطلقت رصاصة أصابت الأميرالاى إمام إبراهيم وأعقبتها رصاصة أخرى دخلت فى صدر أحمد سالم واستكنت فى إحدى رئتيه!

وكانت الضجة الكبرى.. وخرجت الصحف تحمل العناوين بالبنط الكبير وتروى مأساة أحمد سالم وأسمهان.

ولكن الصحف لم تنشر شيئًا من أقوال أحمد سالم عن أحمد محمد حسنين باشا رئيس ديوان الملك.. لأن البوليس والسلطات كتمت الأمر عن الصحف ورجال الصحافة.

* * *

ونقل الجريح أحمد سالم تحت الحراسة ـ أو مقبوضا عليه ـ إلى مستشفى قصر العينى.. وقد بقى أياما طويلة فى خطر الموت.

.. وقد وجهت إليه تهمة الشروع فى قتل زوجته أسمهان. وتهمة مقاومة وإطلاق الرصاص على الأميرالاى إمام إبراهيم أثناء القيام بواجبه.

* * *

قلت: إن الصحف لم تنشر شيئًا من أقوال أحمد سالم عن أحمد باشا حسنين لأن البوليس كتم الأمر عن الصحف.. ولأن النيابة لم تستطع استجواب أحمد سالم بسبب خطورة حالته.

ولكن الحكومة ـ حكومة الوفد أو وزارة ٤ فبراير ـ سمعت طبعا بكافة التفاصيل وكذلك سمع بها القصر وجميع من فى القصر.

وعرفت نازلى أن زوجها أحمد حسنين قد «عاد» إلى أسمهان.. أو أن أسمهان قد عادت إلى حسنين!

أما الوفديون فقد سروا سرورا كبيرا وحمدوا الله الذى مكن لهم من عدوهم رئيس الديوان أحمد حسنين.

وأعود هنا بالقارئ إلى الوراء.

سبق أن قلت إن حسنين باشا كان أقسم بعد حادث ٤ فبراير الذى عده لطمة على وجهه . . أقسم على أن ينتقم للقصر ولنفسه من سفير بريطانيا مايلز لامبسون ومن مصطفى النحاس .

. . . وأنه اعتقد فى شهر أبريل ١٩٤٣ أن الفرصة مواتية للانتقام ولإقالة الوزارة . . ورد اللطمة للسفير ولمصطفى النحاس .

ولكن لندن أرسلت إنذارا إلى القصر تقول فيه إنها لا تسمح فى الظروف الحاضرة بتغيير الوزارة أو إجراء أى تعديل فى الأوضاع .

وعرف الوفديون يومئذ أن انقلابا أو إقالة كانت توشك أن تقع . . وأن وراءها حسنين باشا رئيس الديوان !

وأضمروا الشر للرجل .

وأصبح العداء سافرا بين حكومة الوفد ورئيس الديوان وذات يوم ـ وقبل حادث أحمد سالم وأسمهان بشهور قليلة ـ ذات يوم تقدم نائب وفدى إلى «معالى» وزير المعارف بسؤال عن المدارس الصناعية التابعة لوزارته وعن نشاط «ورشها» فى صناعة الأثاث والرياش . . وهل لهذه المدارس ديون عند بعض كبار الموظفين؟

ووقف وزير المعارف يجيب عن السؤال ويقول إن الموظف الكبير الوحيد المدين لإحدى المدارس الصناعية هو صاحب المقام الرفيع أحمد حسنين باشا رئيس الديوان وإن رفعته كان أوصى إحدى المدارس الصناعية على صنع طقم كذا وعدد موائد ومقاعد كيت .

وأن المدرسة الصناعية المذكورة أنجزت الطلب وأرسلت الأثاث المطلوب إلى حسنين باشا . . وبعثت معه الفاتورة وقدرها كذا جنيها وكذا مليمات .

ولكن حسنين لم يدفع وإن المدرسة طالبته مرة ومرتين . . فلم يدفع .

وأخيرا حولت المدرسة الأوراق إلى وزارة المعارف ومضى وزير المعارف يقول إن الوزارة قد بح صوتها من مطالبة حسنين باشا بسداد الدين . . ولكنه لم يدفع !

وكانت فرصة ! . . ووقف أكثر من نائب وفدى ليخرج لسانه لرئيس الديوان

ويسخر منه ويشمت به ويطالب الحكومة بأن تكون حازمة وأن تفعل كذا وكذا مع هذا المدين المماطل الذى اسمه أحمد محمد حسنين!

ووقف النائب الأستاذ فكرى أباظة يدافع عن حسنين باشا ويقول للنواب الوفديين ـ وكان صديقنا يومئذ كما كان دائمًا من نواب المعارضة ـ وقف يقول لهم ما معناه أن هذا الدين ينهض دليلا على شرف ونزاهة وأمانة أحمد محمد حسنين! . . وأن هذا الرجل الذى يشغل هذا المنصب الكبير الخطير فى القصر والذى كان يمكنه أن يستغل منصبه ـ كما فعل آخرون غيره ـ ليجمع ثروة طائلة . . هذا الرجل عاجز عن سداد دين لا يزيد على مائة أو مائتين من الجنيهات.

. . عاجز عن سداد الدين لأنه رجل فقير وشريف نزيه وأمين.

وهاج النواب الوفديون ضد صديقنا فكرى أباظة . . وعاد هو يقول إن حملتهم هذه ضد رئيس الديوان هى صغار فى صغار!

واشتد هياجهم وصاح بعضهم إن فكرى أباظة يشتم المجلس . . واستمر فكرى أباظة فى الكلام.

وأخيراً طلب منه رئيس المجلس أن يكف عن الكلام وأن يجلس ولكن فكرى مضى فى كلامه ولم يجلس.

هذا وثورة النواب تزداد وهياجهم يزداد وفكرى أباظة ماض فى الكلام والدفاع عن رئيس الديوان وأخيرا أمره رئيس المجلس بأن يخرج ويغادر قاعة المجلس ورفض فكرى أباظة أن يخرج.

ودقت الأجراس . . وأسرع حرس المجلس . . وأمرهم الرئيس بإخراج النائب المحترم فكرى أباظة من قاعة الجلسة.

وحمل الحراس صديقنا فكرى أباظة . . وخرجوا به وهو يصيح بأعلى صوته مخاطبا نواب الوفد . . (يا مساكين . . إنكم تلعبون بالنار . . إنكم تلعبون بالنار!).

* * *

وبعد ساعة واحدة من هذا الحادث فى جلسة مجلس النواب ذهب سير والتر سمارت الموظف الكبير يومئذ بالسفارة البريطانية وقابل رئيس الوزارة مصطفى

النحاس وقال له ما معناه أن الحكومة البريطانية التى تؤيد بقاء وزارة رفعته ضد رغبات القصر تعد نفسها والحالة هذه مسئولة عن تصرفات الوزارة . . وأنها لا تقر تصرفات نوابه فى جلسة اليوم وتنظر إلى هذه الحملة ضد رئيس الديوان بعدم الارتياح . . وترجو من رفعة رئيس الوزارة أن يعمل شيئًا يزيل به الأثر السىء الذى خلفته هذه الحملة الظالمة فى النفوس .

واقترح جنابه أن يحذف من مضبطة الجلسة كل ما دار وكل ما قيل حول هذا السؤال وحول حسنين باشا .

ووافق السيد مصطفى النحاس .

وفى اليوم التالى اجتمع مجلس النواب . . ووقف النائب فكرى أباظة وبيده مضبطة الجلسة السابقة وقال إن فى المضبطة نقصا يريد أن ينبه إليه!

وسأله رئيس المجلس عن النقص المذكور فقال :

ـ لم أجد شيئًا فى مضبطة الجلسة عن حادث طردى من المجلس .

وصاح النواب المحترمون :

ـ ما حصلش .

وسألهم فكرى أباظة :

ـ ألم تطردونى من الجلسة؟

ـ أبدا . . ما حصلش!

ـ والكلام اللى قلتوه عن حسنين باشا؟

ـ ما حصلش .

ـ والكلام اللى قلته أنا؟

ـ ما حصلش .

وفهم فكرى أباظة . . وسأل قبل أن يجلس :

ـ يعنى ما حصلش سؤال . . . وما حصلش جواب من وزير المعارف . . . وما حصلش حاجة أبدا؟

وصاحوا جميعا:

ـ برافوا عليك. أدنت فهمت! . . ما حصلش!

وهكذا انتهت هذه المهزلة . . ولكنها خلفت وراءها فى نفوس الوفديين حقدا جديدا ـ إن جاز التعبير ـ ضد رئيس الديوان حسنين باشا لأن حذف كل ما دار حوله فى الجلسة السابقة قد فوت على الوفديين غرضهم فى النشر والتشهير به!

ومن هنا كان سرورهم كبيرا بحادث أحمد سالم وبأسمهان . . وبالدور الذى لعبه عدوهم حسنين باشا فى الحادث المذكور.

وأرسلوا أحدهم إلى أحمد سالم فى مستشفى قصر العينى يعرض عليه أن يوكل عنه أحد كبار المحامين الوفديين.

وكان غرض الوفديين هو أن يقف المحامى الوفدى الوكيل عن أحمد سالم . . يقف فى محكمة الجنايات ويروى علنا وعلى رءوس الأشهاد قصة حسنين وأسمهان . . وكيف أن أحمد سالم هو الضحية المسكينة لرئيس الديوان إلى آخره . . إلى آخره.

وما من شك فى أنها كانت تكون الضربة القاضية على أحمد حسنين!

ولكن القدر شاء غير ما دبر الوفديون . . ذلك أنه لم تمر أيام على الحادث المذكور حتى سافرت أسمهان بسيارتها إلى رأس البر . . وانقلبت بها السيارة فى الترعة . . وغرقت ولاقت منيتها قبل الأوان.

وكان هذا فى شهر يوليه.

وفى شهر أكتوبر ـ وقبل أن تعرض قضية أحمد سالم على محكمة الجنايات أقيلت وزارة الوفد. وهكذا نجا أحمد حسنين من أكبر فضيحة كان يمكن أن تهدد مستقبله ولكنه لم ينج من أثرها، وكان من آثارها أنه بعد أن كان فى شهر أبريل ١٩٤٣ المرشح الوحيد لرئاسة الوزارة التى تخلف وزارة الوفد . . عدل عن اختياره إلى اختيار المرحوم الدكتور أحمد ماهر.

* * *

وكانت ثورة الغضب فى صدر أحمد سالم قد ماتت بموت أسمهان . . ومن هنا لم يقل شيئًا عن حسنين باشا عندما نظرت قضيته أمام محكمة الجنايات.

الكتاب الثانى

أحمد محمد حسنين

فى الحياة العامة

على ماهر والاعتداء على الدستور والحياة النيابية

المذكرات التى أدونها هنا نقلا عن أحمد حسنين باشا لم أسمعها منه فى جلسة واحدة أو فى جلستين بل فى عدة جلسات تمت بين عامى ١٩٤١ و ١٩٤٢ .

والذى لاحظته ـ وأسجله هنا ـ أن حسنين كان حريصا أو محترسا إلى حد ما فى حديثه عن على ماهر أيام كان هذا رئيسا للديوان ثم رئيسا للوزارة. ولم يتحدث حسنين معى بصراحة ويفرغ ما فى صدره أو معظم ما فى صدره عن على ماهر إلا بعد خروج على ماهر من رياسة الوزارة .

كذلك ربما كان لموقف المعارضة الشديدة الذى وقفته دائمًا من على ماهر أثر فى اطمئنان حسنين إلىَّ وهو يتحدث عن صاحب المقام الرفيع .

* * *

١ ـ قال لى حسنين بصراحة إنه هو المسئول إلى حد كبير عن تعيين على ماهر رئيسا لديوان الملك وإنه قال لفاروق ذات يوم : «أظن يا مولانا أنه قد حان الوقت لكى نعين على ماهر رئيسا للديوان» .

٢ ـ وأن على ماهر أخطأ فى إقالة الوزارة النحاسية الوفدية فى ديسمبر ١٩٣٧ ؛ لأنه كان من رأيه ـ رأى حسنين ـ أن يبقى النحاس فى الحكم أطول مدة ممكنة حتى «تبان» سيئات حكمه وحكم الوفديين أمام الشعب بشكل قاطع حاسم .

٣ ـ وأن الملك فاروق كان يثق فى أول الأمر فى على ماهر وكان لعلى ماهر عند فاروق نفس النفوذ الذى كان يتمتع به مكرم عند النحاس. ولكن على

ماهـر بدأ يـدس لمحـمـد محـمـود رئيس الوزراء بعد أسبـوعين اثنين من أيام وزارتـه.

٤ ـ وأن على ماهر كان دائمًا يدس لخصومه على أساس أن هذا ذو ميول إنجليزية وأن ذاك ليس كذلك. . فبعد ثلاثة أسابيع بدأ على ماهر يصب فى أذن فاروق كلاما عن محمد محمود وكيف أنه ذو ميول إنجليزية. وهكذا نجح فى إضعاف ثقة فاروق فى محمد محمود.

٥ ـ وأن على ماهر عندما تولى منصب رئيس الديوان كان له نفوذ كبير عند فاروق إلى درجة أن فاروق كان يخافه ويعمل له حسابا، بل كان إذا تأخر دقائق عن موعد ما مع على ماهر أقبل يعتذر لعلى ماهر عن تأخره عن الميعاد.

ويقول أحمد حسنين إن على ماهر نجح كرئيس للديوان فى أول الأمر نجاحا كبيرا. . «ويومئذ حمدت الله». . هكذا يقول حسنين. . فقد وفيت الدين الذى وضعه الملك فؤاد فى عنقى وأديت أمانتى وهأنذا قد نجحت فى تعيين رئيس ديوان يعرف واجبه.

٦ ـ يعتقد حسنين أن على ماهر كان أفضل رئيس ديوان وأنه لولا مطامعه وشهوته فى تولى رياسة الوزارة لكان خيرا له ولفاروق وللبلد لو بقى رئيسا للديوان.

٧ ـ بعد أقل من شهر واحد من تولية محمد محمود رياسة الوزارة ـ بعد إقالة وزارة النحاس ـ بدأ على ماهر يدس له عند فاروق ويضع العراقيل فى طريق الوزارة.

وعندما وضح الهدف الذى يسعى إليه على ماهر وهو إسقاط محمد محمود لكى يتولى هو رياسة الوزارة. . وأدرك فاروق ما هنالك، هبطت قيمة على ماهر فى نظره إلى حد ما. . بعد أن عرف أن على ماهر له مطامع شخصية وشهوات وأغراض مثل غيره من زعماء مصر.

ومن هنا فقد على ماهر كثيرا من نفوذه عند فاروق. وبعد أن كان فاروق يعتمد على على ماهر. . أمسى على ماهر هو الذى يعتمد على تأييد فاروق.

٨ ـ كان على ماهر هو الذى أشار بإقالة وزارة النحاس فى شهر ديسمبر ١٩٣٧ وبإسناد رئاسة الوزارة إلى محمد محمود. ومع ذلك فقد سعى ـ بعد شهور قليلة ـ إلى مقابلة النحاس سرا وفى ظلام الليل على كورنيش رمل الإسكندرية

لكى يتآمر معه على إسقاط وزارة محمد محمود. ولما عرف فاروق بخبر هذه المقابلة مط شفتيه.. وتوالى هبوط أسهم على ماهر.

٩ ـ كان على ماهر وهو رئيس للوزارة يقول لفاروق: «جاءنى السفير مايلز لمبسون اليوم وطلب منى كذا ولكننى رفضت وقلت له مش ممكن».. «ثم يعود بعد يومين ويقول لفاروق: «جاءنى السفير اليوم وطلب منى كيت وكيت.. وأظن يا مولانا نقدر نساوم ونعطيه ما كان طلبه منذ يومين فى مقابل أن يتنازل عن طلباته الأخيرة».

وهكذا أدركنا فى القصر أن على ماهر كان يلبى طلبات الإنجليز بينما هو يتظاهر بأنه صامد أمامهم كالطود الشامخ.

١٠ ـ لما توفى حسن صبرى باشا كان على ماهر هو السياسى الوحيد الذى استشاره فاروق يومئذ فى الموقف. ولم يعرف أحد بهذا الخبر أو بمقابلة على ماهر لفاروق لأن المقابلة لم تنشر فى بلاغ ديوان كبير الأمناء.

ولقد خرج على ماهر يومئذ من مقابلة فاروق وقال لخاصته: «الوزارة فى جيبى» ويظهر أنه كان رشح لرئاسة الوزارة صديقه محمد محمود خليل الذى أشاع الخبر بين أصدقائه وتلقى منهم التهانى.

١١ ـ ولكن حسنين رشح لرئاسة الوزارة حسين سرى. وكانت مفاجأة غير سارة لعلى ماهر.

هذه هى المذكرات التى وجدتها مدونة فى كراسة. ولعل القراء قد لاحظوا أنها مدونة بأسلوب أشبه ما يكون بالاختزال.. بل هى تكاد تكون رءوس موضوعات.. كل رأس منها يصلح موضوعا لحديث مستفيض.

ولكننى أكتب هنا قصة أحمد محمد حسنين لا قصة على ماهر أو مصطفى النحاس أو محمد محمود. ومن هنا لن أعرض لأحد من هؤلاء إلا بالقدر الذى يقتضيه الحديث عن المرحوم أحمد حسنين. وأبدأ برئاسة الديوان.

* * *

قلت فى الفصول السابقة إن المرحوم أحمد حسنين كان ذا مطامع واسعة. وكان

يسعى لأن يكون الرجل الأول فى الدولة بعد الملك . . وكان البرنامج الذى وضعه ذا خطوات .

الخطوة الأولى : رئاسة ديوان الملك .

الخطوة الثانية : رئاسة الوزارة .

وبين الخطوتين . . خطوة لابد منها للتثبيت والتأمين . . ودعم المركز . . وهى : الزواج من نازلى أم الملك .

ولكن بعض أصدقاء حسنين ينكر علىّ قولى إنه كان ذا مطامع . . وإنه كان يريد رئاسة الوزارة . . ويحاول أن يدفع عن حسنين هذه «التهمة» كأنما الطموح نقيصة أو سبة يجب أن تدفع وتفند .

وقد يجد هذا البعض من أصدقاء حسنين فى صدر هذا الفصل ما يؤيد قوله . . فيسألنى : لماذا أشار حسنين على فاروق بتعيين على ماهر رئيسا للديوان . . ولم يطلب المنصب لنفسه إذا كان ـ كما نقول ـ طموحا طامعا فى المناصب؟

والجواب : إن حسنين كان يعرف يومئذ ـ فى أواخر عام ١٩٣٧ ـ أن الوقت لم يحن بعد لتوليه المنصب المذكور . . وأن فاروق يحب علي ماهر ويثق فيه إلى حد كبير باعتباره «رجل أبيه» الملك أحمد فؤاد وموضع ثقته . . وأن فاروق يريد أن يعين على ماهر رئيسا للديوان لكى يقف بجانبه كما وقف إلى جانب أبيه أحمد فؤاد .

وكانت الخصومة وأسباب الخلاف قد ظهرت وتعددت بين فاروق وحكومة الوفد برئاسة مصطفى النحاس . . وكانت رئاسة الديوان فى حاجة يومئذ إلى رجل قوى أو «أزرق الناب» فى السياسة ومناوراتها لكى يستطيع الوقوف فى وجه الأغلبية الوفدية الكبيرة . . ولم تكن لفاروق ثقة كبيرة يومئذ فى كفاءة حسنين كسياسى ومناور أزرق الناب .

كذلك لم يكن من مصلحة أحمد حسنين أن يصطدم يومئذ بالوفد وحكومة الوفد ومصطفى النحاس وهو الاصطدام الذى كان لا بد من وقوعه بين الوفد وبين الذى يتولى رئاسة الديوان .

وأمر آخر يعرفه كل الذين عرفوا أحمد حسنين ودرسوا أخلاقه . . وهو أنه كان يريد الشيء . . ولكنه ينكر أنه يريده أو يشتهيه . . وكان يتطلع إلى المنصب ولكنه يزعم أنه زاهد فيه لا يريده .

كانت سياسته ـ إذا أراد أو اشتهى أمرا ما ـ أن يناور ويداور ويحاول أن يحمل أصحاب الشأن على أن يعرضوا عليه الأمر أو الشيء الذى يريده ويشتهيه . . تماما كما فعل فى أمر زواجه من الملكة نازلى .

أما أن يطلب الشيء صراحة . . فلا . . لم يكن هذا من خلق أو سياسة حسنين . . وفى ضوء هذه الحقائق وهذه الأخلاق وهذه السياسة نفهم لماذا تطوع حسنين وأشار على فاروق بتعيين على ماهر رئيسا للديوان .

لأن فاروق كان يحب ويثق إلى حد كبير فى على ماهر . . ولأن على ماهر كان الوارث الطبيعي للمنصب المذكور . . ثم سبب آخر وهو أهمها جميعا . . كان حسنين يعرف على ماهر . . ويعرف عنه ما لا يعرفه فاروق . . وكانت الوسيلة الوحيدة لأن «ينكشف» على ماهر أو «يكشف عن حقيقة نفسه» هى تعيينه فى منصب رئيس الديوان بالقرب من فاروق .

أو بعبارة أخرى كان تعيين على ماهر فى رئاسة الديوان هو الخطوة الأولى للقضاء على نفوذ على ماهر عند فاروق .

وقد صح ما توقعه حسنين . . ونجحت سياسته «وانكشف» على ماهر أمام فاروق . . وهبطت أسهمه . . هبطت أثناء توليه رئاسة الديوان . . وتوالى هبوطها بعد توليه رئاسة الوزارة .

ثم لم يمض عام ١٩٤١ حتى كان على ماهر قد فقد نفوذه القديم عند فاروق .

وأعود الآن إلى بداية الحديث عن رئاسة الديوان .

قلت فى فصل سابق إن الدكتور عباس الكفراوى طبيب فاروق فاتحنى ذات يوم ـ وكنا فى قصر كنرى هاوس بالقرب من لندن ـ فى أمر منصب رئيس الديوان الشاغر واقترح علىّ أن أفاتح حكومة الوفد فى أمر تعيين الأستاذ نجيب الهلالى فى المنصب المذكور .

وأعتقد أن عباس الكفراوى لم يرشح نجيب الهلالى لرئاسة الديوان إلا بعلم وإذن فاروق. ولكن حكومة الوفد لم توافق على هذا الترشيح لأن الأستاذ نجيب الهلالى لم يكن يومئذ وفديا صميما بل كان لا يزال حديث العهد بالوفدية.

ولأنه كان خصما للأستاذ محمود فهمى النقراشى الذى كان له نفوذه ولم يكن قد خرج أو أخرج بعد من الوفد.

وثالثا وأخيرا: لأن حكومة الوفد كانت ترغب فى تعيين الأستاذ عبد الفتاح الطويل المحامى المعروف رئيسا للديوان. وكان الأستاذ الطويل قد تولى من قبل منصب الوكيل البرلمانى لشئون القصر.

* * *

وكان حسنين - إذا عرضنا قبل عودتنا إلى مصر لحديث المنصب الشاغر وأسماء المرشحين لرئاسة الديوان - كان يقول: «يا ريتنى كنت أنفع. لكن يا خسارة ما انفعش أبداً لأنى يا محمد زى ما أنت عارف ما أفهمش حاجة فى السياسة. وده منصب سياسى عاوز واحد يفهم فى السياسة».

وكان يكررها لعل وعسى أن أقاطعه وأقول.. «بل أنت تنفع.. أو أنت خير من يصلح رئيسا للديوان».

وعدنا إلى مصر فى أواخر شهر يوليه ١٩٣٧ وواجهت حكومة الوفد فى أول شهر من تولية فاروق سلطاته الدستورية عدة مسائل أو مشاكل منها حكاية المرحوم يوسف الجندى ويمين الولاء التى يقسمها الجيش وهل تكون للملك وحده أو للملك والدستور.. وحكاية التاج التى أشرت إليها فى فصل سابق.. ثم منصب رئيس الديوان.

وقد رشحت حكومة الوفد على التوالى للمنصب المذكور: الأستاذ عبد الفتاح الطويل. الأستاذ نجيب الهلالى. الدكتور حافظ عفيفى. الأستاذ محمد أمين يوسف.

ورفض فاروق هذه الأسماء ورشح من جانبه على ماهر. ورفضت حكومة الوفد هذا الترشيح.

* * *

قالت نازلى ملكة مصر السابقة ذات يوم عقب وفاة زوجها الملك أحمد فؤاد . . قالت لشقيقها حسين صبرى باشا :

ـ إن فاروق طفل . . وعنيد وأنا أخاف عليه من هذا «الطقم» القديم الموجود فى السراى ! (طقم) سعيد ذو الفقار وشوقى وعبد الوهاب طلعت وغيرهم . . وأخشى أن يملأوا رأسه بالكلام الفارغ ضد الوفديين أو يوغروا صدره ضد مصطفى النحاس كما كانوا يفعلون مع «المرحوم» أبيه . . وهذه تكون مصيبة لأن فاروق إذا اصطدم بالوفد فسوف يأكله مصطفى النحاس . . وأنا أعلم أن لك أصدقاء بين كبار الوفديين وأطلب منك أن تذهب وتقول لهم بلسانى ونيابة عنى إن نازلى تقول لكم «فاروق ابنكم فخذوه وربوه وعلموه . وأنها تضعه أمانة فى أيديكم . ولكنها تنصحكم فى نفس الوقت أن تبعدوا عنه بل وعن السراى كل هذا «الطقم» القديم . . » .

وهكذا قدرت الملكة الأم أن تنقذ ابنها الغلام وتنقذ عرشه إذا هى أسلمته أمانة إلى الوفديين الأقوياء أصحاب الحكم والأغلبية «يربونه ويعلمونه» . . ويبعدون عنه رجال «الطقم» القديم .

أو بعبارة أخرى : لقد أرادت نازلى أن تلجأ إلى شهامة الوفديين . وكان رجال الطقم القديم ـ كما أسمتهم ـ هم : سعيد ذو الفقار كبير الأمناء . . وشوقى باشا السكرتير الخاص . وعبد الوهاب طلعت باشا مدير الإدارة العربية .

وذهب حسين صبرى باشا إلى صديقه السيد عبد الحميد البنان وأبلغه رسالة شقيقته الملكة السابقة ونقل عبد الحميد البنان الرسالة إلى أحمد ماهر ومصطفى النحاس .

ولكن الوفد أو حكومة الوفد لم تعمل بمشورة نازلى فلم تطلب إقصاء أو طرد أى موظف كبير من موظفى القصر . . بل أبقوا القديم على حاله . ولو أنهم كانوا عملوا بنصيحة نازلى وتقدموا إلى مجلس الوصاية طالبين فصل أو نقل فلان وفلان وفلان من كبار موظفى السراى لأجابهم مجلس الوصاية إلى طلبهم . . خصوصا أن رئيس المجلس المذكور الأمير محمد على توفيق كان يكره جميع كبار موظفى السراى بالجملة وبالقطاعى .

وشريف صبرى عضو المجلس هو شقيق الملكة السابقة نازلى. وكان طبيعيا أن ينفذ مشورة شقيقته.

والعضو الثالث عبد العزيز عزت باشا كان رجلا مسالما ويميل - إذا مال - إلى جانب الوفديين.

ولكن حكومة النحاس الوفدية أهملت أو لعلها استهانت بالأمر كله ولم تر داعيا أو ضرورة لعمل أى شىء.

وكان الوفديون يعتقدون يومئذ أن الجو قد صفا لهم.. وأنهم باقون فى الحكم إلى ما شاء الله.. فخصمهم القوى العنيد الملك أحمد فؤاد قد مات.. وأسباب الخصام والصدام بينهم وبين الإنجليز الذين كانوا أصحاب الكلمة الأولى فى شئون مصر وحكم مصر.. هذه الأسباب قد زالت بعد عقد معاهدة عام ١٩٣٦.. وعلى العرش غلام صغير أو «ولد» - كما كانوا يصفون فاروق فى مجالسهم الخاصة - ولد صغير ولا يجرؤ على الوقوف أمامهم.. وهم أصحاب الأغلبية الساحقة فى مجلسى البرلمان.

صفا لهم الجو إذن وطاب.. فما الحاجة إذن وما الضرورة لإجراء عملية قاسية مثل فصل أو طرد عدد من كبار موظفى السراى.

وهكذا بقى «الطقم» القديم.. وتولى فاروق سلطاته الدستورية وليس فى القصر كله مسئول واحد أو موظف كبير واحد يحب الوفديين أو يرضى أن يقول فيهم كلمة واحدة طيبة.. حتى ولو كانت كلمة يفرضها العدل والإنصاف.. لأنهم جميعا كانوا من رجال الملك أحمد فؤاد.. الطاغية المستبد الذى لم يكن يؤمن بشىء اسمه الشعب أو حقوق الشعب أو الدستور أو الحياة النيابية.. وكان «رجاله» هؤلاء من نفس رأى «مولاهم» أحمد فؤاد.

واقترحت حكومة الوفد أول ما اقترحت تعيين الأستاذ عبد الفتاح الطويل رئيسا لديوان جلالة الملك. وقالت فى تأييد أو فى تزكية هذا الاقتراح إن الأستاذ الطويل سبق له أن تولى منصب الوكيل البرلمانى لوزارة شئون القصر.. وإنه والحالة هذه على علم وخبرة بهذه الشئون وإنه على علاقات طيبة مع جميع موظفى القصر.. الذين يذكرونه ويذكرون العمل معه بالحمد والثناء.

وهنا قال كبار موظفى القصر نعوذ بالله من عبد الفتاح الطويل والعمل مع عبد الفتاح الطويل.

لقد كان كذا وكذا.. ولقد قاسينا من العمل معه كيت وكيت.. ثم.. ما معنى أن يكون رئيس الديوان وفديا من صميم الوفديين.

وكان هذا هو اعتراض فاروق.. فقد قال: إن رئيس الديوان بطبيعة عمله ومنصبه هو حلقة الاتصال بين الملك أى رئيس الدولة وبين الوزارة.. وهو الحكم والميزان.. وهو مطالب بتسوية أى مشكلة أو خلاف فى الرأى قد يقوم بين القصر والوزراء.. ومن هنا يجب أن يكون رجلا مستقل الرأى محايدا لا يميل مع الهوى.. لا رجل حزب قد أقسم يمين الولاء والطاعة لرئيس حزبه مصطفى النحاس.. وإلا فكيف يمكن لرجل حزبى مثل عبد الفتاح الطويل إذا اختلف القصر مع الوزارة فى أمر من الأمور.. كيف يمكن له أن يتحرر من هواه الحزبى وأن لا يميل بكفة الميزان؟.. غير معقول.

ثم قال فاروق:

- أنا أريد أن يكون إلى جانبى رئيس ديوان يقول دائمًا كلمة الحق.. ويسوى المشاكل ويصون حقوقى.. لا رجل وفدى سوف يكون همه أن يأخذ منى لكى يعطى حكومة حزبه.. وإذا وقعت فى خلاف مع النحاس وجدت أننى قد وقعت فى خلاف مع النحاس وعبد الفتاح الطويل.. وتصبح المشكلة مشكلة مع رئيس الحكومة ومع رئيس الديوان.

وطبعا لم يكن هذا الرد المنطقى القوى من تفكير فاروق الذى كانت سنه يومئذ ثمانية عشر عاما هلالية.. أو سبعة عشر عاما ميلادية.. والذى كان نصف أمى لم ينل من العلم إلا قشورا بل أقل من القشور.. والواقع أنه كان الرد الذى لقنه إياه السيد عبد الوهاب طلعت.

وكان عبد الوهاب طلعت لا يزال يومئذ الصديق المخلص للسيد على ماهر.. وكان يقوم بدور همزة الوصل أو «ضابط الاتصال» بين على ماهر وفاروق.. ينقل إلى على ماهر أولا بأول كل ما يدور بين القصر والوزارة.. ويعود بآراء على ماهر وفتاواه فى المشاكل وربما ينبغى أن يقوله فاروق لرئيس الحكومة.

وعدل مصطفى النحاس عن ترشيح الأستاذ عبد الفتاح الطويل. وعرض بدلا منه اسم دكتور حافظ عفيفى سفير مصر يومئذ فى لندن وهو يقول:

- لقد اعترضتم على تعيين رجل وفدى فى منصب رئيس الديوان.. وها هو حافظ عفيفى.. رجل مستقل كان موضع ثقة المرحوم الملك أحمد فؤاد.. ولم يكن وفديا فى يوم من الأيام.. بل لقد كان فى وقت ما حرا دستوريا ومن ألد خصوم الوفد والوفديين.

وجاء الرد من القصر:

- كله إلا كده.. كله إلا حافظ عفيفى.. إنه رجل متهم بالعيب فى الذات الملكية.

وكيف ذلك؟

كان فاروق قد زار إنجلترا صيف عام ١٩٣٧ قبل عودته إلى مصر. وكان الدكتور حافظ عفيفى قد «تشرف» بالمقابلة بصفته سفير مصر هناك.

وجاء «ابن الحلال» الذى قال لفاروق إن حافظ عفيفى خرج بعد المقابلة يقول: «ده لسه عيل صغير، وبكره الوفديين يحطوه فى جيبهم» وهذه هى تهمة العيب فى الذات الملكية التى تمنع من تعيين حافظ عفيفى فى منصب رئيس الديوان.

وكيف تطلبون تعيين حافظ عفيفى رئيسا لديوان الملك وهو الذى قال عن الملك إنه «لسه عيل؟!».

وأثناء هذه المفاوضات والمناقشات حول رئيس الديوان ومن يرشح له.. كان الخلاف قد بدأ بين الأستاذ مكرم عبيد وعثمان محرم من جانب والنقراشى ومحمود غالب من الجانب الآخر.

وتطور الخلاف واشتد.. وقرر النحاس أو مكرم عبيد أو كلاهما معا أن التعاون مع النقراشى وزميله محمود غالب داخل هيئة الوزارة أصبح أمرا مستحيلا.. وانتهى الأمر بخروج الاثنين من الوزارة.

ورأى الوفد - أو النحاس ومكرم عبيد - أن من الصواب استرضاء النقراشى الذى

كان محدودا يومئذ من كبار أقطاب الوفد وله نفوذه وله أنصاره وخصوصا بين شباب الوفد وأعضاء الهيئة الوفدية . . رأوا أن يسترضوه فعرضوا عليه منصب مندوب الحكومة المصرية لدى شركة قناة السويس وكان المنصب شاغرا يومئذ . . ولمن يشغل هذه الوظيفة أو هذا المنصب مكافأة سنوية قدرها خمسة آلاف جنيه .

وتم العرض فى «بيت الأمة» وفى مكتب سعد زغلول. وكان الوفد لا يزال يجتمع ويعقد اجتماعاته فى بيت سعد . . وكان رئيس الوفد مصطفى النحاس يستقبل زائريه فى مكتب سعد زغلول .

وفى هذا المكتب استقبل النحاس «زميله» النقراشى وعرض عليه المنصب المذكور وأبدى النقراشى شكره وقد بدا عليه التأثر الشديد، وقام وعانق مصطفى النحاس . واعتقد الجميع أن المسألة قد سويت . . وأن السحابة انقشعت وأن خروج النقراشى من الوزارة لن يؤثر على علاقاته مع زملائه أعضاء الوفد . . أو على مركزه فى هيئة الوفد .

ولكن جريدة «البلاغ» لم تسكت بل انتهزت هذه الفرصة وخرجت بمقال لصاحبها الصحفى الكبير تعاتب فيه ـ أو تعيب فيه ـ على النقراشى قبوله للمنصب ذى الخمسة آلاف جنيه .

وجريدة البلاغ كانت معدودة يومئذ لسان حال القصر وكان صاحبها المرحوم الأستاذ عبد القادر حمزة قد بدأ يشن هجومه العنيف على الوفد ورئيس الوفد وحكومة الوفد .

وقالت الجريدة فى مقالها المذكور إنها لا تصدق هذا الخبر بل وترفض أن تصدق أن رجلا مشهودا له بالنزاهة والاعتزاز بالنفس مثل محمود فهمى النقراشى يرضى أن يساوم على مبادئه وعلى نزاهته . . فيتراجع عن خطوة خطاها . . إلى آخره .

وكلام كثير فى هذه المعانى . وكان للمقال أثره المقصود . . وأعلن النقراشى ـ رحمه الله ـ أنه لم يقبل المنصب المعروض وأنه ماض فى سياسته وفى معارضة مشروعات عثمان محرم وزير الأشغال .

وتكهرب الجو من جديد . . وعاد الخلاف إلى ما كان عليه . . وبدا أن فصل

محمود النقراشى من عضوية الوفد المصرى أمر لا بد منه . . وهنا ارتفعت أسهم الأستاذ عثمان محرم الذى كان اختلف مع النقراشى . . ومكرم عبيد الذى كان اختلف مع محمود غالب . . وارتفعت كذلك أسهم نجيب الهلالى . . لأنه ـ كما ذكرت فى مقال سابق ـ كان خصما للنقراشى وكان بين الاثنين عداء أو كراهية لا يعرف أحد على وجه التحقيق كيف بدأت .

ارتفعت أسهم الأستاذ الهلالى فى دوائر الوفد . . وبين يوم ويوم أصبح مقربا من رئيس الوفد مصطفى النحاس وسكرتير الوفد مكرم عبيد ومعدودا من كبار أقطاب الوفديين .

وتذكر النحاس ومكرم عبيد أن محمد التابعى كان أرسل إليهما من إنجلترا خطابا ذكر فيه خلاصة حديث دار بينه وبين الدكتور عباس الكفراوى طبيب فاروق الخاص . . وكيف أن طبيب الملك يرشح نجيب الهلالى لمنصب رئيس الديوان . . تذكرا هذا الخطاب وهذا الترشيح . . فتقدما إلى القصر يقترحان تعيين الأستاذ الهلالى رئيسا للديوان .

وقال فاروق : «اشمعنى دلوقت؟! لقد رفضتم تعيين الهلالى أيام كان مستقلا والآن ترشحونه بعد أن أصبح وفديا؟ . . كلا . . » .

وأصر فاروق على أن رئيس الديوان يجب أن يكون رجلا مستقلا . . ومن غير رجال الأحزاب .

* * *

وعادت حكومة الوفد ورشحت لمنصب رئيس الديوان المرحوم الأستاذ محمد أمين يوسف الذى كان يشغل منصب وزير مصر المفوض فى واشنطون وكان موجودا يومئذ فى مصر «فى إجازة» .

وعاد رسول الوفد يحمل رد القصر على هذا الترشيح . . بالرفض . . لماذا؟ لأن فاروق كان قد اجتمع بمحمد أمين يوسف على ظهر الباخرة النيل أثناء عودة «جلالته» من رحلته إلى أوروبا . . وعودة المرشح المذكور بالإجازة من أمريكا وقد لاحظ فاروق أن وزيره المفوض كثيرا ما يرفع الكلفة بينه وبين «مولانا» فيضحك

مثلا أمامه بصوت عال. وفى كلمة واحدة: فإن «مولانا» لم يستخف دم الأستاذ محمد أمين يوسف.

* * *

وانتهى الوفد إلى هذه النتيجة وهى أن فاروق مصمم على رفض أى مرشح وكل مرشح تقدمه حكومة الوفد.. لأنه يريد تعيين على ماهر رئيسا للديوان.

وبعث مصطفى النحاس رسولا إلى القصر يقول بلسانه إن على ماهر رجل «مستحيل» والتعاون معه أمر مستحيل كما تدل السوابق.. وأن حكومة الوفد النيابية الدستورية لا يمكنها أن تقر تعيين السيد على ماهر فى هذا المنصب الخطير لأنه رجل سبق له أن اشترك مع محمد محمود باشا ثم مع إسماعيل صدقى باشا ومن قبلهما مع أحمد زيوار باشا فى الاعتداء على الحياة النيابية وعلى الدستور.

.. والوفد حامى الحريات وحامى الحياة النيابية وحامى الدستور لا يستطيع أن يوافق على تعيين هذا الذى اعتدى على الحريات وعلى الحياة النيابية وعلى الدستور.

وتأزم الموقف بين فاروق وحكومة الوفد.. ولم يكن الخلاف حول الذى يعين رئيسا للديوان سوى سبب واحد أو مصدر واحد من مصادر الخلاف فقد كان هناك أكثر من مصدر وأكثر من سبب واحد.

كان هناك مثلا (القمصان الزرق) وهى الهيئة أو المنظمة التى أنشأها الوفد على غرار القمصان السود فى إيطاليا الفاشية و(القمصان البنى) فى ألمانيا النازية. وقال فاروق يومئذ ـ أو قيل له ـ إن النحاس باشا يمهد بقمصانه الزرق لإقامة نظام ديكتاتورى يحكم به مصر كما يحكم موسولينى فى إيطاليا وهتلر فى ألمانيا.

وكانت هناك مسألة التاج الذى يشتهيه فاروق وكان يريد أن تقام له حفلة كبرى يدعى إليها ملوك ورؤساء الدول فى العالم.. وكان المفروض أن تكتتب جميع الطوائف والطبقات بتكاليف صنع هذا التاج.

وكان الوفد ـ أو حكومة الوفد ـ يعارض أولا فى حكاية التاج هذه ويقول إن

التاج أمر مخالف للشريعة الإسلامية، ولكن فاروق طلب من المرحوم الأستاذ الشيخ المراغى شيخ الجامع الأزهر يومئذ أن يعلن أن ليس فى (التاج) شيء يخالف الإسلام. وتحدث شيخ الأزهر فعلا إلى جريدة المصرى فى هذا المعنى وأعلن أن الإسلام عرف ولا يزال يعرف التاج والتيجان وأن ليس فى حمل التاج ما يخالف تعاليم الإسلام. «وكان الشيخ المراغى رحمه الله كما هو معروف رجل القصر».

وهنا تراجع الوفد.. ووافق على مشروع التاج ولكن موافقته كانت من طرف اللسان.!

وخاف خصوم الوفد أن تكون حكاية التاج هذه سببا فى إطالة عمر وزارة الوفد إذ إن جمع المال اللازم من طبقات الشعب قد يستغرق شهورا.. وعمل التاج - وكان المقرر أن يكلف بصنعه محل «كارتييه» الجواهرجى الشهير فى باريس - سوف يستغرق شهورا.. ثم الاستعدادات الضخمة لحفلة التتويج التى سوف يدعى إليها ملوك ورؤساء حكومات العالم.. إلى آخره.. كل هذا قد يستغرق عاما أو عامين.

خاف إذن خصوم الوفد أن يكون مشروع التاج سببا فى إطالة عمر وزارة مصطفى النحاس فقالوا لفاروق إن الوفد لم يعدل عن معارضته ويوافق على تقديم التاج إلا لأنه يجد فيه فرصة طيبة لتحريض الشعب ضد (مولانا) ونشر أسباب التذمر والشكوى من صاحب الجلالة.. ذلك لأن فى البلاد أزمة اقتصادية وأسعار القطن فى هبوط.. ولسوف يجمع أعوان الحكومة والوفد المال من الأهالى ومن الفلاحين بالقوة والإكراه ويقولون لهم إن هذه أوامر الملك الشاب لأنه يريد أن يضع على رأسه تاجا وتقام له «زفة» يدعى إليها ملوك العالم؟

واقتنع فاروق.. وأمر بإصدار بلاغ إلى الصحف يعلن فيه عدم رغبته فى التاج مراعاة للحالة الاقتصادية فى البلاد وشفقة ورحمة برعاياه المخلصين.

ولكن فاروق أحس مرارة الخيبة فى فمه فقد كان يشتهى فعلا تاجا يضعه على رأسه، ومن ثم ازداد كرهه للوفد ولمصطفى النحاس الذى كان السبب فى حرمانه من تاجه المنشود.

وأدركت مما كنت أسمعه من أفراد الحاشية المقربين إلى فاروق أن الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ. وكنت يومئذ أقوم - بصفة غير رسمية - بما يشبه مهمة «ضابط الاتصال» بين فاروق وحكومة الوفد.

وكنا فى أوائل شهر سبتمبر. وذات مساء زرت «رفعة» رئيس الوفد ورئيس الحكومة فى داره فى سيدى بشر برمل الإسكندرية وكان يجلس مع «رفعته» الدكتور محمد صلاح الدين.

ولكننى لم أكد أبدأ الحديث فيما جئت من أجله حتى أشار النحاس إلى صلاح الدين أن ينسحب فانسحب.

وتحدثت طويلا إلى (رفعته) وكان حديثى كله فى معنى واحد وهو أن «جلالة الملك» قد بدأ يسيء الظن بالوفد ورئيسه لأنه أصبح يعتقد أن النحاس باشا يكرهه ويريد الاعتداء على حقوقه. . وأن بعض كبار الوفديين يتحدثون فى المجالس الخاصة عن فرصة الانتقام من الملك فاروق لما فعله معهم أبوه الملك فؤاد.

ورفع النحاس باشا يديه واستعاذ بالله وقال: إن هذه كلها أكاذيب من صنع خصومه وإنه - وأقسم بالله العظيم - «يحب فاروق ويستبشر به ويرى الخير فى وجهه».

ثم استطرد يقول:

وأنا لا أفكر. . ومعاذ الله أن أفكر فى الاعتداء على حق واحد من حقوقه الدستورية. . ولكننى فى نفس الوقت لا ولن أفرط فى حق واحد من حقوق الأمة وحقوق حكومتها النيابية التى كفلها الدستور.

وكان «رفعته» يشير إلى مسألة تعيين رئيس الديوان وحق الحكومة فى اختيار الذى يعين فى المنصب المذكور.

ثم قال إنه لا يستطيع أن يمنع «بالقوة» تعيين على ماهر باشا رئيسا للديوان ولكن. .

- وليكن هذا مفهوما منذ الآن. . . ولكننى لن أوافق على هذا التعيين.

قلت :

وأمر آخر يأخذونه عليكم وهو أن الوزارة لم تقم حتى الآن بعمل ما تظهر به ارتياحها وسرورها بخطبة جلالة الملك .

وكان فاروق قد أعلن خطبة الآنسة صافيناز ذو الفقار . قال وهو يدق بيده المائدة الصغيرة :

ـ أهى دى معاهم حق فيها . . أيوه معاهم حق . . تمام معاهم حق .

ثم قال : إنه سوف يقيم بعد غد حفلة شاى فى حديقة أنطونيادس ابتهاجًا بالخطبة الملكية السعيدة .

وأقيمت الحفلة ودعى إليها جميع الشيوخ والنواب وكبار موظفى القصر وتخلف عن حضور الحفلة مكرم (باشا) عبيد بسبب وعكة أصابته .

وحضر الحفلة النقراشي (باشا) . . وما أن رآه الشيوخ والنواب الوفديون حتى أحاط به عدد كبير منهم يرحبون به ويرجونه أن يسوى الخلافات التى بينه وبين زملائه أعضاء الوفد .

وبينما هم كذلك أقبل مصطفى النحاس . . ورأى النقراشى فتقدم منه ومد إليه يده . . وتصافح الرجلان . . وصفق الحاضرون وهتف الأستاذ حسن يس بحياة النحاس .

وردد الحاضرون الهتاف ثم هتف بحياة النقراشى ورد الحاضرون الهتاف . . وهنا تعانق النحاس والنقراشى . . ودوى التصفيق الحاد وعلا الهتاف .

وتفاءل الحاضرون خيرا واستبشروا بعودة المياه إلى مجاريها بين النقراشى ومصطفى النحاس .

وبعد الحفلة ذهبت أعود الأستاذ مكرم عبيد فى داره وصعدت إليه فى غرفة نومه وكان مستلقيا فى فراشه ولا بد أن أحدهم كان أبلغه بالتليفون خبر مقابلة النحاس مع النقراشى وكيف تصافحا وتعانقا وصفق لهما الشيوخ والنواب . . لأنه سألنى عن التفاصيل فرويتها له .

وعلت فمه ابتسامة يعرفها أصدقاؤه . . وقال :

ـ كده . . طيب لما نشوف .

ثم تناول سماعة التليفون الموضوع بجانب فراشه وطلب دار «رفعة» الرئيس . . وكان النحاس باشا قد عاد إلى داره مباشرة بعد انتهاء حفلة الشاى . . وبعد حديث قصير عن وعكة مكرم وما الذى يشكو منه قال الأستاذ مكرم وهو يضحك ضحكته القصيرة المتقطعة .

ـ مبروك يا باشا .

ولا بد أن النحاس باشا سأله «مبروك على إيه؟» لأنه قال ـ مع الضحكة القصيرة المتقطعة ـ مبروك الصلح مع النقراشى .

ولم أسمع طبعا ماذا قال مصطفى النحاس . . ولكننى فهمت من رد مكرم عبيد أن النحاس أنكر أن هناك صلحا لأن مكرم قال :

ـ أنا كمان استغربت الخبر وقلت مش معقول .

وانتهى الحديث . . وعادت الابتسامة الطبيعية المشرقة إلى فم الأستاذ مكرم عبيد . . ذلك لأن الأستاذ مكرم عبيد كان لا يزال يؤمن الإيمان كله فى ذلك الوقت أن كل عضو يختلف مع رئيس الوفد مصطفى النحاس يجب أن يبتر من جسم الوفد بلا تردد أو رحمة .

كان هذا هو مبدأ مكرم عبيد فى عام ١٩٣٧ وهو نفس المبدأ الذى طبقه عليه مصطفى النحاس فى عام ١٩٤٢ .

ولقد كان لاختلاف النقراشى مع مصطفى النحاس ومكرم عبيد نتيجة لم تخطر ببال أحد فى أول الأمر .

لقد توقعوا مثلا ـ وهو ما حدث فعلا ـ أن يغضب أحمد ماهر لغضب صديقه وزميله النقراشى وأن يقف إلى جانبه يؤيده ويدافع عنه وعن رأيه . . ولكن أحدا لم يتوقع أن تغضب السيدة الجليلة صفية زغلول كل هذا الغضب من أجل النقراشى إلى حد أن تهدد بإغلاق بيت الأمة أو بيت سعد فى وجه الوفد ومصطفى النحاس إذا استمر هذا الخلاف . . وهو ما حدث فعلا بعد ذلك ببضعة شهور .

إن أحدا من أعضاء الوفد لم يكن يتوقع هذه الغضبة من جانب «أم المصريين». ولكنها غضبت ولم تخف انتقادها المر لمصطفى النحاس ومكرم عبيد وسياسة الاثنين التي توشك أن تمزق الوفد - تراث سعد - شيعا وأحزابا.

وقيل يومئذ: إن السيدة الجليلة لم تكن تنتظر سوى حادث ما - أي حادث - لكى تعلن سخطها وغضبها على مصطفى النحاس ومكرم عبيد.. وأن حكاية النقراشى لم تكن السبب الحقيقى وإن كانت السبب المباشر لغضب السيدة أم المصريين.

وقال لى الأستاذ مكرم عبيد فى حديث طويل: إن السيدة الجليلة غاضبة من الوفد منذ زمن طويل وأنها كانت تتحين الفرصة التى تعلن فيها هذا الغضب.

قال: لقد أدخلوا فى روعها أنها «جان دارك» مصر.

سألته: من هم الذين أدخلوا هذا فى روعها؟

قال: بعض أقاربها وأنسبائها.

ومضى الأستاذ مكرم عبيد فى حديثه فقال:

- لقد قالوا لها إننا أخطأنا فى حقها يوم سافرنا إلى لندن لإمضاء المعاهدة «معاهدة ١٩٣٦» ولم نصحبها معنا لكى تشترك مع بقية زعماء مصر فى إمضاء المعاهدة بصفتها أرملة سعد زغلول.. ولقد عاتبتنا حضرتها على هذا.. كما لامنا بعض الناس أننا لم نطلب من مجلس الوصاية الإنعام عليها بالوشاح الأكبر من نشان محمد على.. أسوة بالذين أنعم عليهم منا بالوشاح المذكور.. وذات مرة استدعتنى إلى مقابلتها وقالت لى: إنها لاحظت أننا لم نعد نستشيرها فى أمورنا وفى شئون البلد كما كنا نفعل من قبل.. وأنها قد أصبحت فى نظرنا كمية مهملة.

قال مكرم:

- واستغفرت الله وأكدت لها أنها لا تزال عندنا كما كانت موضع الاحترام والتقدير ولكن إذا كنا لم نعد نستشيرها كما كنا نفعل فذلك لأنه ليس هناك ما نستشيرها فيه.. وقد كنا نسألها الرأى أيام كنا فى المعارضة وكنا نعرض عليها بيانات الوفد ونداءات رئيس الوفد إلى الأمة وما أشبه.

أما اليوم ففى أى الأمور أستشيرها أنا مثلا؟! هل أذهب إليها كوزير للمالية وأستشيرها فى أمر الاعتماد المخصص لبناء دار جديدة لمحكمة مصر الشرعية؟! أو يذهب إليها زميلى وزير الخارجية ويستشيرها فى أمر فتح قنصلية جديدة لمصر فى مدينة ميلانو؟!

إذن فقد كانت السيدة الجليلة ـ يرحمها الله ـ غاضبة ساخطة على الوفد ورئيسه وسكرتيره ولم تكن تنتظر سوى الفرصة الملائمة لإعلان هذا الغضب.

وقد سنحت الفرصة وأعلنت أم المصريين غضبها وأنها تقف إلى جانب النقراشى وكان النقراشى ـ رحمه الله ـ من أنسبائها وزوجا لسيدة كريمة من بنات الأسرة.

وهكذا.. كسب النحاس ومكرم خصما جديدا قويا فى شخص زوج سعد وأم المصريين وكانت صفية هانم زغلول صديقة لنازلى ملكة مصر.. وكانت نازلى تحترم أم المصريين احتراما شديدا.. ولا عجب فقد كانت الآنسة نازلى صبرى تقبل يد صفية هانم زغلول قبل أن تصبح سلطانة مصر وزوج السلطان أحمد فؤاد.. وزارت أم المصريين القصر.. واستقبلها فاروق وأمه نازلى بالتحية والإكرام.

ولم تخف السيدة الجليلة رأيها وخيبة أملها فى مصطفى النحاس ومكرم عبيد وسياستهما التى توشك أن تمزق الوفد شيعا وأحزابا.

وأدرك فاروق أنه إذا وقع خلاف بينه وبين الوفد وحكومة الوفد فإن أرملة سعد زغلول أم المصريين سوف تقف إلى جانبه وتؤيده أمام الشعب الذى كان ولا يزال يقدس ذكرى زوجها الراحل العظيم.

* * *

وهكذا.. لم يكن قد مضى على عودة فاروق من رحلته إلى أوروبا وممارسته لسلطاته وحقوقه الدستورية شهران اثنان ـ من ٢٨ يوليه إلى آخر سبتمبر ١٩٣٧ حتى كانت حكومة الأغلبية الوفدية تواجه جبهة قوية معارضة مكونة من:

ـ رأس الدولة فاروق.

ـ جميع كبار موظفى القصر أو الطاقم القديم الذى ترعرع ونما فى عهد الطاغية أحمد فؤاد.

ـ على ماهر وأعوانه وأذنابه فى القصر وخارج القصر.

ـ أحزاب الأقلية. الأحرار الدستوريين.. والوطنيين.. والاتحاديين «ولم يكن حزب السعديين قد تكون بعد».

ـ وفوق هذا وذاك خلاف فى صفوف الوفد يوشك أن ينتهى بخروج النقراشى وأحمد ماهر ومعهما عدد من الشيوخ والنواب.

كل هذه العوامل مجتمعة أضعفت هيبة الوفد فى نفس فاروق.

ـ ومن ثم أقدم على ما كان مترددا فى الإقدام عليه خوفا من صولة الوفد وشوكته.. وتحدى حكومة الوفد وأصدر أمره «الكريم» بتعيين على ماهر رئيسا للديوان.

وكان هذا فى شهر أكتوبر ١٩٣٧.

إذن فقد أقدم فاروق على اتخاذ الخطوة التى كان مترددا فى اتخاذها.. فأصدر أمره بتعيين على ماهر باشا رئيسا لديوانه.

وكان هذا التعيين أو هذه الخطوة إيذانا بسياسة التحدى التى سار عليها فاروق ورجاله.. سياسة التحدى للوفد ورئيس الوفد وحكومة الوفد وأغلبيتها الماحقة فى مجلسى البرلمان.. وإيذانا بسياسة الاستهانة والاستهتار بسلطة البرلمان وحقوق الشيوخ والنواب ممثلى الأمة.. أو بعبارة أخرى.. سياسة استهانة القصر واستخفافه بالحكم النيابى وحقوق وحريات وسلطات الشعب.

ولسوف يقول التاريخ إن المسئول عن هذه السياسة وهذا الاتجاه الخطير الذى سارت فيه سياسة القصر ابتداء من خريف عام ١٩٣٧.. المسئول هو رئيس الديوان السيد على ماهر.

ولقد سمعتها بنفسى من جميع كبار موظفى القصر ولا أحب أن أذكر هنا أسماء حتى لا أحرج أحدا منهم.

وكان أحمد حسنين ـ رحمه الله ـ قال لى ذات يوم ونحن على ظهر الباخرة

«النيل» فى طريق عودتنا مع فاروق إلى مصر ـ وقد أكون أشرت إلى هذا الحديث ـ قال:

ـ إن أخشى ما أخشاه أن يسير فاروق فى نفس الطريق التى سار فيها أبوه من قبل.. ولقد صحبتنا خمسة شهور وعرفت الملك ودرست أخلاقه عن قرب ولعلك لاحظت أنه عنيد وأنه إذا داس أحد على طرفه شب على قدميه وضرب المعتدى بشدة وعنف.. ولهذا أرجوك أن تقنع أصحابك الوفديين بأن فؤاد قد مات.. وأن فاروق لا ماضى له معهم وأنه فى إمكانهم بشىء من السياسة والكياسة أن يكسبوه. وعليهم أن يقدروا مركزه وشعوره بأنه لا يزال غلاما، وأن أقاربه الأمراء سوف يضحكون ويسخرون منه ويعيرونه بحداثة سنه وقلة خبرته إذا هو أظهر ضعفا أمام الوفديين، ويعقدون المقارنات بينه وبين أبيه.. قل للوفديين أن يجعلوا لهذه المسألة تقديرا فى حسابهم، فلا يقدموا على عمل يكشف عن ضعف هذا الملك الشاب أو يثير سخرية أقاربه الأمراء.. وإلا فإنه لن يسكت بل سوف يشب على قدميه ويرد الصاع صاعين.. ويوم يسير فاروق فى نفس الطريق التى سار فيها أبوه الملك فؤاد أى طريق إقالة الوزارات وحل مجالس النواب فإنه سوف يسير فى الطريق ويندفع فيها إلى نهاية الشوط لأنه شاب عنيد ومعتز بحب الشعب له والتفافه حوله.. وليس له ـ ما كان لأبيه ـ من خبرة ومرونة ودهاء.

وهذه هى خلاصة حديث أحمد محمد حسنين على ظهر الباخرة «النيل» قبل وصولنا إلى الإسكندرية بيومين اثنين.

وفى اليوم السابق على وصولنا إلى الإسكندرية.. وكنت متكئا بذراعى على حاجز السفينة شعرت بيد على كتفى فالتفت وإذا به فاروق. وألقيت فى الماء بالسيجارة التى كانت فى يدى.

وقال فاروق:

ـ لعلك كنت «سارحا» فى مصر التى نصل إليها غدا.. وأنا أيضا أفكر فيها كثيرا فى هذه الأيام وفى المسئوليات التى سوف أحملها على أكتافى.

ثم قال ـ من حديث طويل ـ إنه لا يعرف شيئًا عن أحوال البلد ولم يدرس بعد سياسة البلد وسياسة الأحزاب وأن أمامه خمس سنوات سوف يقضيها فى الدرس والبحث . . وأنه لن يتدخل فى شئون الحكم إلا بأقل قدر ممكن ثم ـ وهذه كلماته بحروفها :

ـ وفى البلد أغلبية تحكم وسوف أتركها تحكم . . والشعب وحده هو الذى يغيرها إذا شاء .

* * *

ووصلنا إلى الإسكندرية فى صباح اليوم التالى . وارتدى فاروق ورجال حاشيته سترة الردنجوت .

وكان أول من صعد إلى ظهر الباخرة المرحوم سعيد ذو الفقار باشا كبير الأمناء وخلفه المرحوم مراد محسن باشا ناظر الخاصة .

وأسرع فاروق ليقابل كبير أمنائه الشيخ فى منتصف الطريق احتراما من الفتى للشيخ العجوز ورحمة به .

ومد فاروق يده ليصافح كبير أمنائه وعلى فمه ابتسامة ترحيب . . وإذا بالشيخ كبير الأمناء ينحنى فوق يد فاروق ويلثمها . . وأشهد أن فاروق حاول فى رفق أن يسحب يده حتى لا يلثمها الشيخ العجوز . .

ثم تركها . .

وتقدم مراد محسن باشا ولثم بدوره يد الملك . . وتراجع الرجلان بظهريهما إلى الوراء .

ثم صعد رئيس الوزراء والوزراء . . وبعضهم اكتفى بالانحناء فوق يد الملك الغلام . . وبضعهم الآخر لثم «اليد الكريمة» .

وأعتقد أن هذه اللحظة كانت نقطة التحول فى أخلاق فاروق أو فى نظرته إلى البلد وكبار البلد من ساسة وزعماء . . فقد كانت هذه أول مرة ينحنى فيها شيوخ مسنون فى مثل سن أبيه أو جده ويلثمون يده .

ثم لم يمض يومان أوثلاثة حتى تحدث مصطفى النحاس رئيس الوزراء عن «حكمة جلالة الملك المحبوب وعن إرشاداته السامية ونصائحه الغالية».

حكمة وإرشادات ونصائح غلام أمي أو نصف أمي؟ . . وكان فاروق يعرف عن نفسه وعن جهله أكثر مما يعرف الناس . . ماذا كان ينتظر من شاب حديث السن والخبرة ورث الملك والعرش والسلطان والثروة الطائلة والصحة والشباب والوسامة - يومئذ - ووجد من حب الشعب وتهليله ما وجد . . ومن خضوع كبار البلد وزعمائه ولثمهم ليده وتراجعهم بظهورهم إلى الوراء أمامه.

ماذا كان ينتظر منه إلا أن يدور رأسه وتنقلب فيه الأوضاع والموازين؟

وأعود إلى أصل الحديث . . كان تعيين على ماهر رئيسا للديوان بالرغم من معارضة حكومة الأغلبية الدستورية إيذانا ببدء سياسة التحدى والاستهانة بالحكم النيابى وبالدستور.

وبدأت سياسة المرمطة . . المقصودة . . وراسم خطوطها «رفعة» رئيس الديوان على ماهر «باشا».

كل طلب تتقدم به حكومة الوفد مرفوض . . المراسيم التى ترسلها الوزارة إلى القصر للإمضاء . . تعطل وتبقى فى الديوان. وفى الصحف - بين الحين والحين - غمز ولمز فى حكومة الوفديين.

وفى جريدة البلاغ بالذات - وكانت يومئذ كما سبق أن قلت لسان حال القصر وعلى ماهر رئيس الديوان - فيها وبقلم صاحبها الصحفى الكبير القدير مقالات نقد مرير لمصطفى النحاس وحكومته.

مثلا . . مصطفى النحاس رجل مصاب بلوثة فى عقله! . . ومصطفى النحاس يهدف لقلب نظام الحكم ويسلح عصابات قمصانه الزرق بالخناجر! . . ومصطفى النحاس قليل الأدب فى حق «سيد البلاد» لأنه يتأخر عن مواعيده مع فاروق . . ولأنه يخلع طربوشه ويمسح عرقه أمام فاروق . . إلى آخره . . إلى آخره.

وكنا نعرف أن وراء هذه الحملة السيد على ماهر رئيس الديوان، ثم بدأ الخلاف

بين الوزارة ورئيس الديوان حول مدى حقوق الملك الدستورية . . وما هى التعيينات التى تتم بمراسيم والتعيينات التى ينفرد بها الملك ويصدر بها «أمرا ملكيا كريما» .

وتمسكت الوزارة بنصوص الدستور . . وخصوصا بالنص القائل : إن الملك يحكم بواسطة وزرائه . . لأنه غير مسئول .

وأن الملك يسود ولا يحكم .

وقال على ماهر : إن الملك يسود ويحكم معا .

وهكذا مضى رئيس الديوان «ينفخ» فى رأس الملك الشاب . . ويفهمه ـ بالقول والعمل ـ أن ليس فى البلد كله مخلص لجلالته سواه . . لأنه حريص على حقوقه . . ولأنه ينزع له فى كل يوم حقوقا جديدة تزيد من سلطة الملك وسلطانه .

وهكذا وضع على ماهر أساس سياسة المزايدة فى حقوق الملك على حساب حقوق الشعب والبرلمان .

هذا بينما وقفت أحزاب الأقلية المعارضة وزعماؤها يتفرجون شامتين فى الوفد وحكومة الوفد مسرورين فرحين بالمرمطة التى يتلقاها مصطفى النحاس .

ولقد نسوا أنه إذا كان هذا هو نصيب الأغلبية من الاحترام والتقدير أو الهزء والاستهانة فماذا يكون مصيرهم ونصيبهم هم إذا تولوا الحكم؟!

ولكنهم لم يفكروا ولم يقدروا . . أو لم يهتموا لأن شهوة الحكم كانت عندهم أقوى من كل شىء . . وكان كل همهم أن يحطموا الوفد والوفديين حتى لو حطموا معهم حقوق البلد ودستور البلد أو باعوها للجلاد ثمنا لرءوس الوفد والوفديين .

* * *

وكان الخلاف بين الوفد والنقراشى باشا قد بلغ مداه وأصدر الوفد قرارا بفصل محمود فهمى النقراشى من عضوية الوفد .

واتخذ النقراشى «مكتبا» له بشارع المدابغ ـ شريف الآن ـ ولم يكن المكتب للتجارة أو السمسرة أو المحاماة أو لعمل ما مما تفتح المكاتب من أجله . . ولكنه كان للمعارضة .

وهكذا كان مكتب المرحوم النقراشي باشا أول مكتب - فيما أعلم - يفتح للمعارضة. . وكان النقراشي يقابل أنصاره في المكتب المذكور.

وبدأ الناس يتحدثون عن أحمد ماهر وكيف أنه ضالع مع صديقه وزميله النقراشي، وأنه ينتظر الفرصة لإعلان خروجه على زعامة مصطفى النحاس.

وكان المرحوم أحمد ماهر يومئذ رئيسا لمجلس النواب.

* * *

وكانت الوزارة تتخبط في سياستها أو قل إن شئت إنه لم تكن لها سياسة مرسومة. كانت مثلا تعارض فاروق في مسائل صغيرة وكانت ترفض له طلبات صغيرة وتقف منه موقف «العناد» ومن ثم تحمله على الاعتماد على دعاة السوء من خصوم الوفد وتغريه بالإصغاء إليهم وإلى مشورتهم. هذا بينما كانت في نفس الوقت تتساهل في أمور خطيرة وترفض أن تتخذ قرارات حاسمة أو تخطو خطوات جريئة يفرضها الموقف المضطرب مخافة أن يكون في هذه القرارات أو هذه الخطوات ما يخالف نصوص الدستور أو روحه ومعناه.

وضعفت هيبة الحكومة. . وارتفع مقام القصر وراح كل موظف كبير في الدولة يتطلع إلى القصر ويلتمس رضا القصر. وعمت الفوضى.

وأذكر أنني كتبت يومئذ مقالا في «آخر ساعة» وجهت فيه الحديث إلى «رفعة» مصطفى النحاس باشا وقلت فيه ما معناه «أخشى من فرط حرصك على الدستور أن تضيع الدستور».

وكان أعوان على ماهر باشا يتحدثون صراحة في كل مجلس عن قرب سقوط وزارة الأغلبية البرلمانية الوفدية. . وكان الأحرار الدستوريون يتحدثون بدورهم عن قرب عودتهم إلى الحكم.

وسافرت أنا إلى أوروبا في مساء ٢٧ نوفمبر عام ١٩٣٧ على ظهر إحدى البواخر. وفي صباح اليوم التالي دخل على خادم الباخرة يحمل الشاي ونسخة من البرقيات التي أذاعها ماركوني أثناء الليل، وبينها برقية من القاهرة تقول: إن مصريا

اسمه كذا أطلق الرصاص على رئيس وزراء مصر بينما كان فى سيارته فى طريقه إلى حفلة عامة.

وأرسلت برقية إلى النحاس باشا هنأته فيها بنجاته ثم قلت له «احكم أو اترك الحكم».

* * *

وفى يوم ٣١ ديسمبر ١٩٣٧ أصدر فاروق أمره الملكى بإقالة وزارة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا.

وهكذا تحققت مخاوف أحمد محمد حسنين. وخطا فاروق أول خطوة فى نفس الطريق التى سار فيها أبوه أحمد فؤاد.

خطاها بمشورة رئيس ديوانه السيد على ماهر.

ونفس السيد على ماهر كان مستشار الملك أحمد فؤاد ورجله الأول فى حزب الاتحاد أو حزب السراى أو حزب «القش» كما سماه الزعيم الخالد سعد زغلول.. وكان هو صاحب الفتوى فى إقالة وزارة النحاس الأولى فى يونيه عام ١٩٢٨. وكانت هذه أول إقالة فى تاريخ الحكم النيابى فى مصر؛ فالسيد على ماهر الذى أفتى وفتح باب الإقالات أمام أحمد فؤاد فى عام ١٩٢٨ هو نفس السيد على ماهر الذى أفتى وكتب صيغة الإقالة وفتح نفس الباب أمام فاروق فى آخر ديسمبر ١٩٣٧.

واندفع فاروق فى نفس الطريق حتى بلغ نهاية الشوط فلا حرمة للدستور ولا للبرلمان ولا للشعب وممثليه ولا لحقوق الأغلبية.

أمر كريم مكتوب بخط جميل على ورق مصقول وممهور بإمضاء «سيد البلاد» فاروق، يكفى لشل الدستور وتعطيل نصوصه لفظا ومبنى ومعنى وطرد الحكومة التى اختارها الشعب لغير ما سبب سوى السبب الذى يفتى به رئيس الديوان على هواه.

* * *

ولم يفاجأ الوفديون بهذه الإقالة . . فإن شائعات إقالة الوزارة كانت قد ملأت الجو . كما كان أنصار على ماهر وزعماء الأحرار الدستوريين ـ كما سبق أن ذكرت ـ قد ملأوا البلاد أخبارا عن قرب سقوط حكومة الوفد وعودتهم هم إلى الحكم .

ولكن الوفديين لم يكونوا قد فقدوا كل أمل . . ذلك أن موظفا من موظفى وزارة المالية اسمه أمين عثمان كان نجمه بدأ يلمع لا لسبب إلا لأنه صديق شخصى للسفير البريطانى سير مايلز لامبسون ولرجال السفارة ولكبار رجال الإنجليز فى مصر .

وكان هذا الموظف أو النجم الصاعد من «محاسيب» الأستاذ مكرم عبيد الذى كان أتى به من وظيفته المتواضعة فى الإسكندرية وأسبغ عليه رعايته وعطفه .

وكان أمين عثمان يقوم بدور الوسيط ويسهل أو يسوى الأمور بين الوزارة والسفير البريطانى وقال أمين عثمان للوفديين . . «لا تصدقوا هذه الشائعات . وعندى تأكيد من سير مايلز لمبسون أن حكومته لن تسمح بإقالة الوزارة» .

قالها المرحوم أمين عثمان لمصطفى النحاس، وقالها لمكرم عبيد، وقالها لكل من قابله من أعضاء الوفد .

وبدا يومئذ أن الأمر سباق بين على ماهر رئيس الديوان وبين أمين عثمان وسيط الوفد أيهما الذى يسبق صاحبه ويفوز بثقة وتأييد السفارة البريطانية . هل يفوز على ماهر فتطلق السفارة يده فى إقالة الوزارة وتقف على الحياد؟ . . أو يفوز أمين عثمان وتتدخل السفارة وتحول دون الإقالة؟

وهكذا كان الأمر . . أكبر سلطتين فى الدولة . . القصر والوزارة الدستورية البرلمانية، كلاهما يلتمس تأييد السفارة والسفير البريطانى .

وفاز على ماهر فوزا مبينا على أمين عثمان .

وكانت الإقالة .

* * *

واجتمع مجلس النواب . . وأمر رئيس المجلس أحمد ماهر بتلاوة مرسوم الإقالة ثم قال : إنه لا يسمح بالتعليق عليها . . وهاج النواب الوفديون . . ووقف أكثر من واحد منهم يعلق ويعقب على الإقالة .

وأحمد ماهر يدق جرس الرياسة ويطلب من النواب عدم الكلام. . واشتد هياج النواب. . وكانت جلسة صاخبة. . وأخيرا أمر أحمد ماهر المجلس بإطفاء الأنوار. . ورفع الجلسة وغادر منصة الرئاسة.

واضطر النواب أن يغادروا المجلس. . ومن هناك ذهبوا إلى النادى السعدى. . ولم يتردد المرحوم أحمد ماهر فى الذهاب معهم فقد كان ـ رحمه الله ـ لا تنقصه الشجاعة.

ووقف أحمد ماهر بين صيحات الغضب والاستنكار والسخط والشتائم والاتهام بالخيانة، وقف يهاجم سياسة مصطفى النحاس الخاطئة التى أدت إلى إقالة الوزارة.

واشتد هياج النواب وهياج أعضاء الوفد.

وغادر أحمد ماهر قاعة الاجتماع. . وانسحب معه تسعة وعشرون شيخا ونائبا من أعضاء الهيئة الوفدية.

خرج وخرجوا ولم يعودوا لأنهم أسسوا الحزب السعدى وانتخبوا أحمد ماهر رئيسا للحزب ومحمود فهمى النقراشى وكيلا للحزب.

وأعلنت المغفور لها صفية هانم زغلول أنها كانت قد فتحت بيت الأمة أو بيت سعد لأبناء سعد يجتمعون فيه. . ولكن أما وقد اختلفوا وتفرقوا فإنها تغلق بيت سعد ولا تسمح لأحد منهم بعقد أى اجتماع فيه.

وأقيلت وزارة الأغلبية الوفدية بفتوى من رئيس الديوان على ماهر. . وكانت الفتوى (أن أعمال الوزارة تجافى روح الدستور).

لأن الوزارة قالت: «إن الملك يسود ولا يحكم». . بينما روح الدستور ـ هكذا يزعم رئيس الديوان ـ تنص على أن الملك يسود ويحكم. وإذن ففى موقف الوزارة مجافاة لروح الدستور وهكذا أقيلت وزارة مصطفى النحاس وخلفتها فى الحكم وزارة مؤلفة من الأحرار الدستوريين من كبار المستقلين برياسة المرحوم محمد محمود باشا.

وكان محمد محمود هو «الوريث» السياسى الطبيعى لمصطفى النحاس. فقد كان حزبه هو حزب المعارضة وكان - رحمه الله - زعيم المعارضة.

ومن هنا لم يكن فى استطاعة على ماهر أن يقفز إلى رياسة الوزارة مباشرة بعد إقالة مصطفى النحاس، وإلا لكانت المسألة «مكشوفة».

ترك «رفعته» إذن محمد محمود يتولى رياسة الوزارة.. ولكن إلى حين!

* * *

واستصدرت الوزارة أمرا بحل مجلس النواب.. وأجريت انتخابات جديدة وكانت «جديدة» حقا فى نوعها.. فإن التنافس بين المرشحين الوفديين وخصومهم من رجال الأحزاب الأخرى لم يكن يدور حول مبادئ أو اختلاف فى السياسة الداخلية أو الخارجية، كلا. بل كان يدور حول مدى إخلاص الطرفين لفاروق.

وكان بعض المرشحين يلصقون إعلانات الدعاية لأنفسهم على جدران القاهرة مكتوبا فيها «انتخبوا فلانا مرشح السراى».. أو «لا تنتخبوا فلانا لأنه مغضوب عليه من جلالة الملك المحبوب». ولم تجر الحكومة المؤتلفة هذه الانتخابات العجيبة فى يوم واحد.. بل أجرتها على عدة أيام.

أجرتها أولا فى الوجه القبلى ثم أجرتها فى الوجه البحرى.

وحشدت قوات من الجيش ورجال البوليس وبعثت بها إلى مراكز الانتخابات فى الوجه القبلى.. للمحافظة على الأمن العام.

ثم عادت ونقلت نفس القوات إلى الوجه البحرى للمحافظة على الأمن العام وكان واضحا أن قصد الحكومة هو الإرهاب والتأثير فى حرية الانتخابات.. وأدرك رجال الإدارة فى الأقاليم أن المطلوب هو إسقاط مرشحى الوفد فعملوا على إسقاطهم.. وأسفرت نتائج الانتخابات الأولى - فى الوجه القبلى - عما يشبه الفوز لحزب الأحرار الدستوريين دون السعديين.

وهنا شكا السعديون إلى السراى من أن رجال الإدارة المؤتمرين بأوامر رئيس الوزارة وزعيم الأحرار الدستوريين محمد محمود يضطهدونهم ويعملون على إسقاطهم لكى ينجح مرشحو الأحرار الدستوريين.

وصـدرت الأوامـر من رياسـة الـديوان رأسـا إلى مـديرى الأقـاليـم «بمسـاعـدة» مرشحى حزب السعديين.

وانقلبت الموازين فى انتخابات الوجه البحرى ورجحت كفة السعديين. أما حزب الوفد فقد سقط جميع مرشحيه فى الوجهين البحرى والقبلى ما عدا اثنى عشر مرشحا فقط.

اثنا عشر نائبا للوفد بعد أن كان له فى المجلس السابق المنحل فوق المائتى نائب.. وسقط فى هذه الانتخابات زعيم الوفديين مصطفى النحاس وسكرتير الوفد مكرم عبيد وجميع أعضاء الوفد وكبار الوفديين.

ولم ينجح من الوفديين البارزين سوى الأستاذ عبد الحميد عبد الحق الذى تولى زعامة المعارضة فى مجلس النواب الجديد.

* * *

واجتمع المجلس الجديد فى شهر أبريل عام ١٩٣٨.

وفى شهر يوليه ـ على ما أذكر ـ بعث السيد على ماهر رئيس الديوان إلى السيد مصطفى النحاس رئيس الوفد يطلب منه أن يقابله سرا على الكورنيش فى مكان ما برمل الإسكندرية.. وفى ظلام الليل.

أما لماذا طلب أن تكون المقابلة على الكورنيش.. لا فى دار أحدهما فإن السبب بسيط.

خاف «رفعته» أن يراه أحد وهو يدخل دار مصطفى النحاس.. أو أن أحدا يرى النحاس وهو يدخل داره. وسوف يكون من الصعب تفسير أو تبرير هذه الزيارة.

أما إذا رآهما أحد معا وهما يتحدثان على الكورنيش فإن من السهل أن يقال ساعتئذ أن المقابلة تمت بطريق الصدفة.

النحاس باشا يحب المشى على قدميه.. وكذلك «رفعة» رئيس الديوان فأية غرابة فى أن يلتقى الاثنان مصادفة على الكورنيش بينما كل منهما يتنزه سائرا على قدميه؟

* * *

وكان غرض على ماهر من هذه المقابلة هو «التفاهم» مع زعيم الوفديين، والتفاهم على أساس إسقاط وزارة محمد محمود خصم الوفد العنيد.

وهكذا ولما يمض على وزارة محمد محمود ستة شهور بدأ السيد على ماهر يعمل على إسقاط الوزارة التى كان قد جاء بها وداس بها على الأغلبية البرلمانية وعلى جسد الدستور.

لماذا؟ لكى يتولى هو رياسة الوزارة.

ولا أطيل الحديث.

نفس العقبات ونفس العراقيل التى كانت توضع فى طريق مصطفى النحاس.. وضعت فى طريق محمد محمود.. ونفس الإشاعات التى كان يذيعها ويروج لها أعوان وأذناب على ماهر فى عهد وزارة مصطفى النحاس.. عادت وبعثت من جديد.

وأحس محمد محمود ـ رحمه الله ـ وكان المرض أنهك قواه وأعصابه ـ أحس أن بقاءه غير مرغوب فيه فاستقال.

ونال على ماهر مشتهاه، وانتقل من رياسة الديوان إلى رياسة الوزارة، وكانت الحرب العالمية الثانية على الأبواب.. وهتلر يدق طبول الحرب كل صباح وموسولينى يخطب فى كل يوم عن حرابه التى عددها ثمانية ملايين والتى تنتظر إشارة منه بالهجوم.

* * *

وكان وضع على ماهر فريدا فى بابه فهو رئيس وزارة حزبية برلمانية ولكنه لا ينتسب إلى حزب ما وليس له فى البرلمان حزب ما.

على من كان يعتمد إذن؟ على من كان اعتماده فى بقائه رئيسا للوزارة؟ على فاروق.. وعطف فاروق.. لا على البرلمان. فقد كان الأحرار الدستوريون ـ أحد شقى حكومته المؤتلفة ـ ناقمين عليه بسبب مؤامرته ضد زعيمهم محمد محمود. وكان نفس شقيقه المرحوم الدكتور أحمد ماهر زعيم السعديين أى الشق الآخر من

حكومة على ماهر. كان أحمد ماهر ضده فى السياسة فقد كان ينادى بوجوب دخول مصر الحرب إلى جانب الحلفاء بريطانيا وفرنسا . . بينما كان شقيقه على ماهر يقول بوجوب تجنيب مصر ويلات الحرب . ولم يكن هذا رأيه فى أول الأمر كما سوف نرى.

ولكن الحزبين ـ الأحرار الدستوريين والسعديين ـ صدعا بأمر القصر وأذعنا لمشيئة فاروق وأيدا سياسة على ماهر.

ومن هنا أصبح على ماهر يعتمد على فاروق . . بعد أن كان فاروق يعتمد على السيد على ماهر.

وأصبح فرضا على رفعة رئيس الوزارة أن يعمل ما يمكن عمله استبقاء لعطف فاروق إذا هو شاء الاحتفاظ بمنصبه فى رياسة الوزارة.

وأعلنت الحرب فى أول سبتمبر ١٩٣٩ . وفى اليوم التالى دعا على ماهر باشا مجلس الوزراء للاجتماع . . وقال لزملائه الوزراء: إنه دعاهم للاتفاق على صيغة قرار إعلان الحرب ضد ألمانيا؟

وبهت الوزراء . . وقال أحدهم وهو الأستاذ عبد الرحمن عزام.

ـ ولكن لماذا نعلن الحرب يا رفعة الباشا؟

أجاب رفعة الباشا:

ـ طبقا لنصوص معاهدة عام ١٩٣٦.

وانبرى الأستاذ عبد الرحمن عزام يفند هذا الرأى ويفسر مواد معاهدة ١٩٣٦ وأن ليس فى المعاهدة المذكورة شيء يلزم مصر بدخول الحرب إلى جانب بريطانيا.

وبعد مناقشة طويلة طلب عبد الرحمن عزام من على ماهر أن يترك له هذه المسألة ليسويها مع السفير البريطانى سير مايلز لامبسون.

ووافق على ماهر، وذهب عبد الرحمن عزام وقابل مايلز لامبسون وناقشه طويلا فى نصوص المعاهدة واستطاع أن يقنعه أن من مصلحة بريطانيا نفسها عدم إعلان مصر الحرب . . على ألمانيا.

وهكذا سويت المسألة .

ومع ذلك فإن السيد على ماهر زعم فيما بعد أنه صاحب الفضل فى تقرير سياسة تجنيب مصر ويلات الحرب . ولقد رأيتم كيف كان يريد أن تعلن مصر الحرب ضد ألمانيا غداة إعلان الحرب؟

* * *

والواقع أن على ماهر باشا لم تكن له سياسة معينة إزاء الحرب العالمية الثانية . . أو لعل سياسته إزاء الحرب والدول المتحاربة كانت مثل سياسته الداخلية إزاء الأحزاب وزعماء الأحزاب أى سياسة انتهازية .

كان يعتقد فى أول الأمر - أى فى أول شهور الحرب - أن النصر لبريطانيا وفرنسا ومن هنا أراد كما رأينا أن تعلن مصر الحرب ضد ألمانيا ثم عدل عن هذا الرأى مكتفيا بتقديم جميع المساعدات والتسهيلات الممكنة لبريطانيا .

ولقد أعلن فيما بعد - وبعد خروجه من الوزارة - أن السيد على ماهر تلقى خلال الشهور العشرة التى تولى فيها الحكم ثلاثة وثلاثين خطاب شكر من الجنرال ويلسون القائد العام للقوات البريطانية فى الشرق الأوسط .

وقد شكر فيها القائد البريطانى رفعة رئيس وزراء مصر على الولاء الصادق والتعاون المخلص الذى يلقاه منه .

ولقد ظل على ماهر على ولائه وإخلاصه لبريطانيا وقضية بريطانيا من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩ إلى يونيه ١٩٤٠ .

أما من شهر يونيه والشهور التالية فإن رفعته نقل ولاءه وإخلاصه من بريطانيا وحلفائها إلى ألمانيا وحليفتها إيطاليا .

لماذا؟

كان على ماهر يعتقد فى أول الحرب كما قلت أن النصر لبريطانيا وفرنسا . . ولكن انتصارات المحور بدأت تتوالى . وراحت دول أوروبا تسقط واحدة بعد واحدة تحت سنابك جحافل هتلر .

بولندة . الدانمرك . النرويج . هولندة . بلجيكا . وظل على ماهر على ولائه وإخلاصه لأنه كان يعقد الأمل على فرنسا وخط دفاعها المشهور «ماجينو» .

ولكن هتلر حطم «ماجينو» وانهارت فرنسا واستسلمت . ولم يحل منتصف يونيه ١٩٤٠ حتى كان هتلر يدخل باريس وإلى جانبه جورنج مارين من تحت قوس النصر فى ميدان «الأتوال» .

وهنا تحول على ماهر بإخلاصه وولائه إلى ألمانيا ، ولا أستطيع أن ألوم الرجل . فلعله كمصرى مخلص كان يطلب الخير والأمان لبلاده ومن هنا حرص على أن يقف دائمًا إلى جانب الفريق الغالب المنتصر .

وعلى كل حال فإن على ماهر باشا لم يضيع وقتا قبل أن يطلق لسانه بالسخرية والتشهير ببريطانيا وفرنسا وضعف جيوشهما .

وصرح ذات مساء فى مجلسه الخاص بأنه لن يمضى شهر واحد حتى تستسلم بريطانيا .

ورد عليه وزير حربيته اللواء صالح حرب باشا .

ـ بل شهران يا رفعة الرئيس فسوف تقاوم إنجلترا شهرين ثم تسقط .

واتصل خبر هذا الحديث بالسلطات البريطانية فى مصر .

وكان فاروق بدوره قد بدأ يسخر من بريطانيا وفرنسا و«ينكت» عليهما فى مجالسه ، وكان يحيط به يومئذ بعض الأمراء الشبان من المتحمسين لألمانيا النازية مثل عمر الفاروق وعباس حليم .

كذلك كان خدمه الخصوصيون من الإيطاليين مثل بوللى وبيترو . ويروى أن فاروق خرج مرة للصيد ، وكان معه بعض رجال السلك السياسى الأجنبى ومنهم السفير البريطانى مايلز لامبسون . وأراد سير مايلز لامبسون أن يطرى مهارة فاروق فى إصابة الهدف ؛ فقال له عبارة إعجاب فى هذا المعنى ، وعلى الفور قال له فاروق :

ـ طبعا لأن بندقيتى صناعة ألمانية .

ثم قهقه فاروق . . وقهقه معه مدعووه من الأمراء الشبان .

* * *

ورأت حكومة لندن أن على ماهر باشا الذى كان قائدها جنرال ويلسون قد شكره فى ثلاثة وثلاثين خطابا على صادق ولائه وحسن تعاونه . . قد انقلب إلى النقيض وأخذ يقيم العراقيل والعقبات أمام السلطات البريطانية العسكرية فى مصر .

وها هو ذا ملك البلاد يقفو أثره . . وأرسل وزير خارجية بريطانيا يومئذ لورد هاليفاكس برقيته المشهورة : «على ماهر يجب أن يخرج» .

وكان هذا أول إنذار بريطانى أو أول تدخل مكشوف واعتداء مفضوح على سيادة مصر المستقلة منذ عقد معاهدة ١٩٣٦ أو معاهدة الشرف والاستقلال كما أسموها .

وذهب السفير البريطانى سير مايلز لامبسون إلى القصر وقابل فاروق وأبلغه نص البرقية أو الإنذار ثم قال :

إنه ينصح بقيام وزارة وفدية أو على الأقل وزارة يرضى عنها الوفد ويؤيدها وبادر فاروق وأرسل عبد الوهاب طلعت «باشا» لمقابلة النحاس «باشا» فى كفر عشما وعرض ظروف الموقف عليه .

وكان رفعة رئيس الوفد قد ترك القاهرة خوفا من الغارات الجوية ولجأ إلى ضيافة أصهار السيدة زوجته فى كفر عشما .

وقابله عبد الوهاب طلعت «باشا» وأبلغه نص برقية لورد هاليفاكس ونصيحة سير مايلز لامبسون ثم قال : إن «جلالة الملك» يستشيره فيما يجب أن يفعله .

ولكن . . بينما كان مصطفى النحاس «باشا» يتأهب للعودة إلى القاهرة وجمع أعضاء الوفد وعرض الأمر عليهم واستصدار قرار برأى الوفد وما يجب عمله . . إذا بالأمر الملكى يصدر إلى حسن صبرى باشا بتشكيل الوزارة .

وكانت مفاجأة للوفد . . ومفاجأة للسفير البريطانى . مفاجأة أغضبت مصطفى النحاس كما أغضبت سير مايلز لامبسون .

وأسرع أحمد حسنين إلى السفارة وقابل السفير ليسأله عن سبب غضبه. وقال سير مايلز: «وهذه التفاصيل التى أرويها هنا قصها على المرحوم حسنين باشا» قال:

ـ لقد كان كلامى واضحا وهو أن الحكومة البريطانية تنصح بإسناد الحكم إلى وزارة وفدية أو على الأقل إلى وزارة يؤيدها الوفد.

وقال حسنين وقد تظاهر بالدهشة:

ـ ولكن حسن صبرى باشا صديقكم. . وقد اخترناه بالذات. لهذا السبب.

قال السفير:

ـ نعم حسن صبرى صديقى. . ولكن يا باشا الصداقة شيء والسياسة شيء آخر. . ووزارة حسن صبرى لا هى وزارة وفدية ولا هى وزارة يؤيدها الوفد.

وأجاب حسنين وهو يمعن فى إظهار الدهشة والأسف:

ـ إذن فهذه غلطتى أنا. وأنا المسئول عن هذا الخطأ. . ولكننى أقول إنصافا لنفسى أننى حرصت عند اختيار أعضاء الوزارة على أن يكونوا جميعا من أصدقائكم. . وحرصا على توافر التعاون الذى لا بد من وجوده فى الظروف الحاضرة بين السلطات البريطانية والسلطات المصرية. . ومن هنا اخترنا حسن صبرى. . ومحمود فهمى القيسى أليس صديقا لكم؟

وراح حسنين باشا يذكر أسماء أعضاء الوزارة الجديدة ويشفع كل اسم منها بنفس السؤال «أليس صديقا لكم؟» ثم أنهى حديثه ودفاعه بأن الغلطة غلطته هو. . وأنه المسئول عن هذا الخطأ المؤسف ولكن يشفع له حسن نيته.

ورضى سير مايلز أو تظاهر بالرضا. ووقفت المسألة عند هذا الحد.

* * *

وكان على ماهر باشا مغيظا حانقا. . بسبب إرغامه على الاستقالة وترك الحكم.

وأشاع أنصاره وذيوله أنه ذهب ضحية شجاعته ووطنيته ومواقفه ضد مطالب الإنجليز. . وصدق فريق كبير من الجمهور هذه الدعوى. . وتمتع على ماهر باشا «بالبطولة» ولقب «البطل» بضعة أسابيع.

ولكن الحقائق لم تلبث أن تكشفت فعرف الجمهور أن السيد على ماهر كان يريد ـ غداة قيام الحرب ـ أن تعلن مصر الحرب ضد ألمانيا وتقف إلى جانب بريطانيا وفرنسا . . وأن السيد على ماهر تلقى خلال الشهور التى أمضاها فى رئاسة الحكم ثلاثة وثلاثين خطابا من الجنرال ويلسون يشكر فيها رفعته على ولائه وصادق تعاونه مع السلطات البريطانية .

تكشفت هذه الحقائق . . وسقط ثوب البطولة عن رفعة الرئيس السابق .

ومع ذلك فإن على ماهر «باشا» لم يسكت . . بل انطلق يقيم العراقيل ويخلق المتاعب فى طريق وزارة حسن صبرى وكان رفعته لا يزال محتفظا بشىء من نفوذه عند فاروق .

وذهب عبد الوهاب طلعت «باشا» صديق على ماهر أو الذى كان صديقه إلى يوم استقالته من رياسة الوزارة . . ذهب إلى حسن صبرى باشا وقال له : إن على ماهر يشنع عليك ويتهمك بأنك صنيعة الإنجليز وأنك . . .

ولكن المرحوم حسن صبرى باشا لم يتركه يتم حديثه بل قال له :

ـ إن على ماهر صديقى . . وأنا لا أسمح لك بأن تطعن فى أخلاقه أمامى . . وخصوصا أنك كنت صديقا له .

* * *

وقال حسنين باشا وهو ينهى هذه التفاصيل :

ـ وهكذا ألقى حسن صبرى باشا درسا فى الأخلاق على عبد الوهاب طلعت . . وعلى ماهر فى الوقت نفسه .

ثم حدثنى ـ رحمه الله ـ عن سبب اختيار حسن صبرى باشا رئيسا للوزارة . . وعدم الأخذ بنصيحة سير مايلز لامبسون وهى إسناد الحكم إلى وزارة وفدية أو وزارة يؤيدها الوفد . . قال :

ـ لقد كان رأيى دائمًا أن الوفد هو القوة الشعبية الوحيدة فى هذا البلد وأنه بهذه الصفة أحق بالحكم من جميع الأحزاب الأخرى لأنه يتمتع بثقة الناخبين . وأنا

أعتقد كذلك أن الوفد قوة يمكن استغلالها فى استخلاص حقوق البلاد من الإنجليز . . ولقد عملت ولا أزال أعمل على تسوية جميع الخلافات بين الملك ومصطفى النحاس وإزالة أسباب سوء التفاهم التى خلفها عام ١٩٣٧ وما تلاه . . وهذه خطوة لا بد منها قبل عودة المياه إلى مجاريها الطبيعية أى قبل عودة الوفد إلى تولى الحكم . ومن هنا تفهم لماذا رفضت أن أعمل بنصيحة سير مايلز لامبسون . . لأن العمل بهذه النصيحة كان معناه أن الوفد . . وهو القوة الشعبية الوحيدة . وقوتها فى استخلاص حقوقنا من إنجلترا ، إنما يعود إلى الحكم بإرادة الإنجليز وهذا أمر ليس فى مصلحة البلاد ولا فى مصلحة الملك ولا فى مصلحة الوفد نفسه . . وأظن أنك توافق على أنه من مصلحتنا جميعا أنه إذا عاد الوفد إلى الحكم فيجب أن يعود بالطريق الشرعى السليم أو بموافقة صاحب العرش لا بإرادة الإنجليز .

ثم قال ـ رحمه الله ـ وهو يبتسم :

ـ ورأيت أن نقوم بمناورة تمويه وتضليل ذرا للرماد فى عيون السفير البريطانى فطلبت من الملك أن يوفد عبد الوهاب طلعت لمقابلة النحاس «باشا» فى كفر عشما . . لكى ألفت أنظار السفارة وعيونها إلى كفر عشما وأصرفها عما يجرى فى القاهرة . . وهكذا بينما كان عبد الوهاب طلعت فى كفر عشما كنت أنا قد اتصلت بحسن صبرى وأعضاء وزارته وأعددت المراسيم بتشكيل الوزارة وموخئ السفير البريطانى بوزارة حسن صبرى وبالأمر الواقع . . صحيح أن حسن صبرى باشا صديق للسفير وللإنجليز ولقد اخترناه لهذا السبب كسرا لحدة التحدى فقد كان إغفال نصيحة السفير البريطانى تحديا منا لا شك فيه . . ولكن حسن صبرى مع ذلك مصرى وطنى مخلص لبلاده قبل كل شىء .

* * *

هذا هو مجمل حديث المرحوم أحمد محمد حسنين عن الظروف والأسباب التى دعت لاختيار المرحوم حسن صبرى باشا رئيسا للوزارة فى شهر يونيه عام ١٩٤٠ . وللتاريخ وحده أن يحكم على سياسة حسنين باشا . . وهل أصاب فيها أو أخطأ؟ . . وهل قيام وزارة وفدية . . أو وزارة يؤيدها الوفد فى يونية ١٩٤٠ كان

يجنب مصر مذلة حادث ٤ فبراير ١٩٤٢؟ وهل إغفال «نصيحة» السفير البريطانى كان السبب فى وقوع الحادث المشئوم المذكور أم لا؟

كل هذه الأسئلة فرضية سوف يجيب عنها التاريخ.

تولت إذن وزارة حسن صبرى باشا الحكم. . وكان أول طلب جاءها من السلطات البريطانية هو «اعتقال على ماهر بسبب نشاطه العدائى ضد بريطانيا وحلفائها».

ورفض حسن صبرى هذا الطلب بالرغم مما كان يعرفه عن نشاط على ماهر ضد وزارته ومساعيه لإسقاطها والإشاعات التى كان يذيعها عنه وعن الوزارة.

ولكنه ـ أى حسن صبرى ـ أوفد رسولا إلى على ماهر يبلغه ما حدث وينصحه بالإخلاد للسكينة والكف عن «التشنيع» فى مجالسه الخاصة على بريطانيا وحلفائها.

ولم يعمل السيد على ماهر بالنصيحة. . بل استمر فى نشاطه العدائى ضد الإنجليز وضد حسن صبرى الذى رفض أن يعتقله.

وعاد المرحوم حسن صبرى وأوفد رسولا آخر إلى السيد على ماهر وكان الرسول فى هذه المرة هو الدكتور أحمد ماهر شقيق على ماهر وكانت النصيحة هذه المرة أن يغادر على ماهر باشا القاهرة إلى قصره الأخضر فى ريف البحيرة.

وعمل على ماهر بالنصيحة وسافر إلى القصر الأخضر وأقام فيه يومين اثنين ثم عاد إلى القاهرة.

* * *

ولا أعرف لماذا أو كيف. . ولكن حسن صبرى باشا ـ وبعد شهر واحد من توليه الحكم ـ تقدم إلى فاروق يلتمس تعيين أحمد حسنين باشا رئيسا للديوان. . وكانت حجته أن المنصب المذكور شاغر منذ عام. . وأنه ما دام حسنين باشا هو الذى يقوم فعلا بأعمال رئيس الديوان فإن من المرغوب فيه أن يعين رسميا فى المنصب المذكور.

وأعتقد ـ وإن كنت أعترف أن ليس تحت يدى دليل يبرر هذا الاعتقاد ـ أعتقد أن حسن صبرى باشا إنما تقدم بهذا الطلب استجابة لرغبة وتلميح من حسنين باشا. أو لعله أراد أن يكافئ حسنين على حسن صنيعه يوم أشار باختياره رئيسا للوزارة التى خلفت وزارة على ماهر.

وعلى كل حال فإن فاروق رفض فى أول الأمر أن يعين حسنين رئيسا للديوان.. لأنه كان يحتفظ بالمنصب المذكور لعلى ماهر.. ولم يكن ينتظر سوى الفرصة المناسبة التى تتحسن فيها العلاقات بين الإنجليز وعلى ماهر.. لكى يعيده رئيسا للديوان.

ولكن حسن صبرى لم يسكت بل مضى يكرر هذا الطلب أو هذا الترشيح.. وفاروق يرفض.. حتى نشأ ما يشبه الأزمة الوزارية لأن حسن صبرى جعل بقاءه فى رئاسة الوزارة رهنا بتعيين أحمد حسنين رئيسا للديوان.

وأخيراً ـ وكان ذلك فى شهر أغسطس ١٩٤٠ على ما أذكر ـ وافق فاروق وصدر الأمر بتعيين أحمد محمد حسنين باشا رئيسا لديوان «جلالة الملك».

وتحقق لحسنين باشا ما كان يتمناه منذ عام ١٩٣٧.

* * *

ولكن الأجل لم يطل بالمرحوم حسن صبرى باشا.. فبينما كان يلقى «خطاب العرش» فى يوم السبت الثالث من شهر نوفمبر ١٩٤٠ أصيب بنوبة قلبية.. وفاضت روحه ـ رحمه الله ـ فى قاعة مجلس النواب.

وفى مساء نفس اليوم صدر مرسوم ملكى يكل إلى عبد الحميد سليمان باشا القيام بأعمال رئيس الوزارة.. ريثما تتم المباحثات والاستشارات بشأن اختيار الذى يخلف حسن صبرى باشا فى رئاسة الوزارة.

وكان هذا المرسوم مناورة تمويه وتضليل أخرى من حسنين باشا رئيس الديوان لأن السفارة البريطانية فهمت ـ كما فهم الناس ـ من إنابة عبد الحميد سليمان باشا للقيام بأعمال رئيس الوزراء أن أمر اختيار الرئيس الجديد للوزارة قد يطول ويستغرق بضعة أيام.

ولكن السفارة والسفير والوفد والأحزاب . . كل هؤلاء فوجئوا بعد يوم واحد باختيار حسين سرى «باشا» رئيسا للوزارة .

* * *

وقص على حسنين ـ رحمه الله ـ تفاصيل ما حدث فى مساء يوم وفاة حسن صبرى باشا فقال :

ـ كلمنى الملك بالتليفون فقلت له : «هل يأذن لى مولانا بمقابلته؟» فقال : «أيوه . . لكن خليك فى مكتبك وأنا جاى عندك» .

وجاء فاروق وجلس وقد تكلف هيئة الجد . . وعرض على رياسة الوزارة . . وكان على ماهر باشا هو السياسى الوحيد الذى استقبله الملك سرا بعد وفاة حسن صبرى باشا واستشاره فى الموقف . . وأدركت أن ترشيحى لرياسة الوزارة جاء من جانب على ماهر . . وأنه مقلب من رفعته . . لكى يتخلص منى نهائيا . . يعنى أبقى رئيسا للوزارة أسبوعين أو شهرا ثم أقال أو أرغم على الاستقالة وأخرج من السراى إلى دارى لأبقى فيها نهائيا .

أدركت هذا بالبديهة . . ولأن فاروق الذى كان يعارض ويرفض تعيينى رئيسا للديوان لا يمكن أن يكون هو صاحب فكرة تعيينى رئيسا للوزارة . . الفكرة إذن فكرة على ماهر ولغرض خبىء . . ومضى حسنين فى حديثه فقال :

ـ واعتذرت بأدب عن عدم قبول المنصب الكبير .

وقال لى الملك : «لا تتسرع . . فكر شوية كمان وسوف أعود إليك» .

وتركنى وانصرف . . وهنا دخل على عبد الوهاب طلعت باشا فطلبت منه أن يواتينى بدوسيهات رؤساء الوزارات والوزراء السابقين وفى إدارة المحفوظات بقصر عابدين ملف أو «دوسيه» خاص لكل رئيس وزارة سابق وكل وزير سابق وكل زعيم سياسى من الساسة المصريين .

وعاد الملك وسألنى :

ـ هيه؟

وقلت له :

ـ يا تقعدنى جنبك . . يا تخرجنى من السراى .

قال : يعنى إيه؟

قلت : أنا لا أصلح لهذا المنصب . . ثم إن الناس سوف تقول إن حسنين ربى فاروق وكسب نفوذا عنده لكى يستغل هذا النفوذ ويعمل نفسه رئيس وزارة بينما فى البلد عشرات ممن يصلحون خيرا منه لهذا المنصب .

وهنا تساءل فاروق : زى مين يعنى؟

قال حسنين : هذا ما أبحث فيه الآن .

قال فاروق : ضرورى هذا المساء . . تقول لى مين .

قلت : سمعا وطاعة . . سوف أقدم اسم المرشح هذا المساء .

* * *

وخرج فاروق . . ووضعت أمامى (الدوسيهات) التى كان جاءنى بها عبد الوهاب طلعت . . وفتحت . . بعضها حتى يظن من يدخل وينظر إليها أننى كنت أبحث فيها . . ولكننى لم أحاول أن أبحث لأننى كنت اخترت فعلا اسم المرشح لرياسة الوزارة .

وعاد فاروق بعد نحو ساعة وسألنى : «مين بأه يا سيدى الذى ترشحه؟» .

قلت : حسين سرى .

وصاح فاروق : أعوذ بالله ده راجل بتاع الإنجليز . مش ممكن شوف لك حد تانى .

وتركنى وخرج .

وجلست أنتظر عودته . . وكنت أعرف أن فاروق لا يستريح إلى حسين سرى ولا يحبه رغم وجود صلة النسب العائلية ورغم اجتماعه به مرارا فى سهرات الأسرة ، فقد كان حسين سرى زوجا للسيدة خالة «الملكة فريدة» .

كنت أعرف هذا ولكننى مع ذلك صممت على التمسك بترشيح حسين سرى لرياسة الوزارة .

وعاد فاروق وسألني: هيه؟ وجدت مين غير حسين سرى؟

قلت: مش لاقى حد تانى يامولانا . . مفيش قدامى غير حسين سرى .

وانفجر فاروق غضبا وصاح :

ـ إيه الحكاية؟ دى مؤامرة إنجليزية والا إيه؟

وطفرت دمعة من عينى ـ هكذا قال لى حسنين . . ولا أدرى هل كانت دمعة صادقة أم كانت دمعة تمثيل؟! فقد كان حسنين ـ رحمه الله ـ يجيد التمثيل ويعرف كيف يندمج فى دوره .

وتأثر فاروق ـ فقد كنا لا نزال فى عام ١٩٤٠ وكان قلب فاروق لم يتحجر بعد . . تأثر فاروق وتقدم من حسنين وقبله واعتذر إليه .

ثم قال: لكن يا حسنين مش فاهم سر تمسكك بحسين سرى . . واشمعنى يعنى حسين سرى وده بتاع الإنجليز؟

وأجاب حسنين :

ـ معاذ الله أن أرغم مولانا على قبول أمر ما . . ولكننى أعتقد أننى أستطيع أن أخدم جلالتك وأخدم البلد وأنا فى منصب رئيس الديوان وحسين سرى فى منصب رئيس الوزراء . . فإذا لم يوافق مولانا فإنى ألتمس منه أن يتركنى أروح بيتى .

ـ يعنى إيه . . تفوتنى؟

ـ قال حسنين :

ـ لا يا مولانا . . وإنما علشان يكون مولانا حر فى اختياره وفى سياسته .

وعاد فاروق يتساءل :

ـ يعنى عايز تسيبنى دلوقت؟

وهنا انطلق حسنين يتحدث عن حبه وإخلاصه لفاروق وعن الخدمات التى أداها له . . وعن كيف كان يأمل أنه قد كسب ثقة «مولاه» الملك . . ولكنه قد أدرك مع الأسف من حديث اليوم أن «مولاه» لا يثق فيه .

واغرورقت عيناه مرة أخرى.

واغرورقت عينا فاروق.. وقبل حسنين مرة أخرى.. وهنا راح حسنين يشرح لفاروق سبب ترشيحه لحسين سرى، فقال:

- يعرف مولاى أن سياستى هى هى لم تتغير منذ أول يوم استلمتك فيه وأنت أمير. وسياستى هى أن تكون لك حقوقك.. وحسين سرى مهما يكن رأى مولانا فيه فإنه نسيبك وهو أحرص الناس على حقوقك.. ونحن فى ظروف حرب عالمية ومفاجآت دولية خطيرة.. والحكم الآن فى أيدى أحزاب أقلية لا تمثل البلاد.. والوفد صاحب الأغلبية الحقيقية مقصى عن الحكم.. وتعيين رجل مستقل غير حزبى مثل حسين سرى فى رياسة الوزارة قد يخفف ولو قليلا من حدة خصومة الوفد للسراى. ثم إن حسين سرى رجل مقبول عند الإنجليز.. وسوف يسكتون على تعيينه كما سبق أن سكتوا على تعيين حسن صبرى ولا يلحون ولا ينذرون بوجوب قيام وزارة وفدية.. يعنى أننا بتعيين حسين باشا سرى نتفادى الاصطدام الآن بالإنجليز.. وحسين سرى كذلك هو الوحيد الذى سوف يرضى بتنفيذ سياستى بل ويرضى بمساعدتى فيها.. وسياستى هى التمهيد لعودة الوفد إلى الحكم بعد أن يقدم الوفد لمولانا الترضية الكافية والضمانات الكافية على عدم تكرار ما فعلوه فى سنة ١٩٣٧.

ولما انتهى حسنين من بيانه أو من دفاعه.. هز فاروق رأسه موافقا، وقال:

- وهو كذلك.. فتشوا على حسين سرى.

وكان الوقت بعد منتصف الليل.

وراح الرسل والتليفونات تبحث عن حسين سرى.. ووقف عبد الوهاب طلعت باشا بباب السراى ينتظر وصول رئيس الوزارة الجديد.. فلما وصل استقبله بالأحضان وهنأه.. فكان أول المهنئين.

قال حسنين.. «ويظهر أن عبد الوهاب باشا أراد أن يُفهم حسين سرى أنه هو صاحب الفكرة أو صاحب الفضل فى اختياره لرياسة الوزارة...».

وأشهد أن حسنين - رحمه الله - كان مخلصا فى تنفيذ سياسة التمهيد لعودة

الوفد إلى الحكم . . وكان يصارح بها الساسة والزعماء الذين يطمئن إليهم ويثق فى سلامة تقديرهم وحكمهم ومنهم الدكتور محمد حسين هيكل رئيس حزب الأحرار الدستوريين .

روى لى حسنين أن الدكتور هيكل زاره ذات يوم بعد قيام وزارة حسين سرى وقال له :

ـ قل لى بأه يا أبو الحسن . . وسيبك من شغل المشيخة والدروشة بتاعتك . . إيه بالضبط سياستك دلوقت؟

فشرحت له سياستى وهى التمهيد لعودة الوفد إلى الحكم لأنه صاحب الأغلبية الحقيقية . . هذا مع قيام حياة نيابية سليمة ووجود معارضة صالحة قوية تؤدى مهمتها على الوجه الصحيح . . هذا مع الحد من طغيان الأغلبية والعمل على وجود معارضة قوية .

ووافقنى الدكتور هيكل على سياستى هذه وتمنى لى التوفيق فى تنفيذها .

* * *

قامت وزارة حسين سرى فى نوفمبر عام ١٩٤٠ ، وأقبل صيف ١٩٤١ ، وذهب مصطفى النحاس باشا ومكرم باشا إلى مصيف رأس البر ليمضيا الصيف . . فى أمان من الغارات الجوية .

وذات يوم هبط على رأس البر الأستاذ مصطفى أمين الذى كان يومئذ رئيسا لتحرير مجلة الاثنين .

وقال مصطفى أمين للأستاذ مكرم عبيد : إنه جاء يحمل رسالة من رئيس الديوان أحمد حسنين باشا . وفحوى هذه الرسالة أنه إذا التمس «رفعة» رئيس الوفد مصطفى النحاس باشا مقابلة «جلالة الملك» فإن التماسه سوف يجاب فى الحال .

وكان مصطفى النحاس لم يقابل الملك فاروق منذ أقيلت وزارته فى ديسمبر ١٩٣٧ وكان المعنى الواضح فى هذه الرسالة أو هذه المقابلة المطلوبة أن السراى تخطو الخطوة الأولى فى سبيل التمهيد لعودة المياه إلى مجاريها بين صاحب العرش . . وبين الوفد صاحب الأغلبية فى البلاد .

ورحب الأستاذ مكرم عبيد بهذا الطلب.. وذهب لفوره وأبلغه للسيد مصطفى النحاس.

ولكن النحاس باشا تشكك فى صدق الرسالة وفى صدق الرسول مصطفى أمين وقال مامعناه: إن هذا كله «كلام فارغ وتخدير أعصاب» وكان رفعته - ولا شك - متأثرا بمناورة كفر عشما يوم زاره عبد الوهاب طلعت باشا ليستشيره - باسم فاروق - فى الموقف السياسى بعد تلغراف لورد هاليفاكس.. وكيف فوجئ بعدها بتأليف وزارة حسن صبرى باشا.

تشكك إذن مصطفى النحاس باشا فى جدية رسالة الأستاذ مصطفى أمين.

وأخيرا، قال الأستاذ مكرم عبيد: إن الدليل على جدية أو عدم جدية الرسالة هو أن يطلب الأستاذ مصطفى أمين بالتليفون حسنين باشا ويحدثه أمامنا فى الموضوع.

ووافق مصطفى النحاس باشا وطلب مصطفى أمين قصر عابدين بالتليفون.. وقال: أعطونى حسنين باشا، وأعطوه حسنين باشا.

وقال مصطفى:

- مكرم باشا واقف جنبى وعاوز يسمع منك الكلام الذى طلبت منى إبلاغه لمصطفى النحاس باشا.

وناول مصطفى أمين سماعة التليفون لمكرم باشا عبيد. وقال حسنين لمكرم نفس الكلام الذى كان نقله إليه مصطفى أمين. وأضاف: أن مقابلة النحاس للملك أمر مرغوب فيه وخطوة أولى لا بد منها.

وسأله الأستاذ مكرم عبيد:

- وهل أحضر أنا أيضا إلى القاهرة مع مصطفى باشا..؟

وقال حسنين باشا:

- نعم، يستحسن لو معاليك حضرت كمان.

وهنا قال مكرم باشا:

- إذن وأنا ألتمس مقابلة جلالة الملك باسم مصطفى النحاس وباسمى.

وأجاب حسنين باشا :

ـ والالتماس مقبول .

وحدد حسنين موعدا للمقابلة «الملكية الكريمة» .

* * *

وغادر النحاس باشا ومكرم باشا مصيف رأس البر إلى القاهرة . . وفى القاهرة عرف مكرم باشا أن المقابلة مقصورة على النحاس باشا وحده .

وغضب مكرم وتساءل عن معنى دعوته للحضور إلى القاهرة ، وهل دعوه للحضور لكى يبلغوه أن الملك يريد أن يستقبل النحاس باشا وحده . . ؟

* * *

وتمت المقابلة . . بين فاروق والنحاس .

وتحدث فاروق عن الموقف وعما يلقاه من عنت الإنجليز واضطهادهم له وسأل رئيس الوفد : هل يقف الوفد إلى جانبه إذا اصطدم يوما بالإنجليز . . ؟

وتحمس مصطفى النحاس وأعلن أنه وجميع الوفديين يفتدون «الملك» بدمائهم ورقابهم .

ومرر «رفعته» بيده على عنقه تأكيدا لمعنى الفداء . . ثم أخرج من جيبه مصحفا وأقسم عليه أنه ورجال الوفد مخلصون لفاروق وأنهم . . وأنهم . . إلى آخره .

وهكذا محت هذه المقابلة جميع الآثار السيئة التى كانت خلفتها إقالة وزارة النحاس باشا فى ديسمبر ١٩٣٧ .

وخرج النحاس باشا من مقابلة فاروق وهو يدعو له ولعرشه بالعز والتأييد .

* * *

وعاد النحاس ومكرم إلى مصيف رأس البر .

ولم يمض على عودتهما أيام معدودة حتى أقام بعض كبار الوفديين من المصيفين حفلة تكريم لمصطفى النحاس ـ ولعلها كانت حفلة موعزا بإقامتها ـ وقام

النحاس وألقى خطبة شن فيها على الإنجليز حملة شعواء. وأذكر أنه قال بين ما قاله: إن إنجلترا تزعم أنها تحارب من أجل الديمقراطية والحريات، بينما هى تحارب الديمقراطية وتضطهد الحريات فى مصر.

.. ثم دعا رئيس الوفد لجلالة الملك المفدى.. فاروق، وأعلن إخلاصه وإخلاص الوفديين لصاحب العرش المجيد.

* * *

وكان هذا كما قلت فى أواخر صيف عام ١٩٤١.

واهتزت مقاعد وزارة حسين سرى تحت أصحابها.. وحسب الناس أن أيام هذه الوزارة «الائتلافية» المؤلفة من أحزاب الأقليات.. حسبوا أن أيامها معدودة وأن الوفد يوشك أن يعود إلى الحكم ولكن..

* * *

ولكننى أعود اليوم إلى الحديث عن سياسة حسنين وهى التمهيد لعودة الوفد إلى الحكم وكيف سار فيها وكيف عمل على تنفيذها.. وهل هو أخطأ من مماطلته وتسويفه..؟

قال لى المرحوم حسنين باشا فى حديث طويل فى مساء يوم ٩ مارس عام ١٩٤٢:

ـ لقد كان دائما من رأيى أن نظام الحكم القائم فى مصر نظام غير طبيعى وغير مأمون ولا مرغوب فيه، إذ إن الحكم كان فى يد أحزاب الأقلية.. بينما تقوم الأغلبية بمهمة المعارضة.. وهذا وضع مقلوب ومن هنا بدأت أعمل لتصحيح الأوضاع وإعادة الأمور إلى سيرها الطبيعى.. أى أغلبية تحكم وأقلية تعارض.

وذات يوم ـ وقد أحسست أن الجو المناسب مهيأ تماما ـ قلت للملك: «أظن يا مولانا أن وزارة حسين سرى تعبت خلاص». فقال لى: أيوه.. والورقة اللى فاضلة هى مصطفى النحاس.

* * *

وكنا فى أواخر صيف ١٩٤١ وكانت أحاديث الخلاف بين السعديين والدستوريين وبينهم وبين رئيس الوزارة حسين سرى على الألسنة فى الأندية والمجتمعات . . وكان حسين سرى يرسل من وقت لآخر لسانه بكلام مقذع شديد فى حق بعض أقطاب السعديين حتى إنه تحدث مرة أمام بعض الكبراء فقال عن قطب سعدى كبير : إنه يأوى اللصوص فى عزبته ويحميهم وأن له دوسيها خاصا بين دوسيهات المشبوهين بوزارة الداخلية . . ومع ذلك ـ هكذا قال حسين سرى ـ مع ذلك فإن السعديين يطلبون منى تعيين «المشبوه» المذكور وزيرا!

ومضى حسنين يقول : وكانت أخبار هذا الخلاف تصل إلى الملك أولا بأول . ومن هنا وافقنى على رأيى عندما قلت له إن وزارة حسين سرى تعبت خلاص .

ثم قال حسنين :

ـ لكن الملك دخل علىَّ فى صباح اليوم التالى لحديثنا وقال : إنه يرحب بقيام وزارة على رأسها مصطفى النحاس . . بس بشرط أن تكون وزارة ائتلاف تمثل فيها جميع الأحزاب .

ولا بد أن يكون الملك قد أفضى برأيه هذا ـ أو بحديثنا كله ـ إلى آخرين من رجال الحاشية لأن الخبر بلغ رئيس الوزارة حسين سرى باشا فقد زارنى فى مكتبى وقال لى بلهجة غضب وغتاب مر :

ـ طيب يا أخى ما تجيب أصحابك الوفديين فى الحكم وتخلص مرة واحدة بدل ما تمرمط فىَّ كده .

* * *

والآن نلخص الموقف فى أواخر صيف ١٩٤١ .

فاروق تصالح مع مصطفى النحاس .

مصطفى النحاس يخطب ويمتدح «المليك المفدى فاروق» ويسب الإنجليز أعداء البلاد .

فاروق يفوض رئيس ديوانه حسنين فى إعادة الوفديين إلى الحكم على شرط أن تكون الوزارة ائتلافية تمثل فيها الأحزاب تحت رئاسة مصطفى النحاس .

وبدأ حسنين فى تنفيذ الخطوات الأخيرة وهى إقناع الوفد والأحزاب الأخرى بالاتفاق على هدنة وقبول الاشتراك فى الحكم.

وقيل يومئذ إن الأستاذ مكرم عبيد تعهد بإقناع النحاس باشا بقبول رئاسة الوزارة الائتلافية.

واقتنع النحاس باشا فى وقت ما وأعلن فى حديث له أنه يمد يده إلى الجميع من أجل العمل فى هذه الظروف الخطيرة لمصلحة البلاد العليا.

ولما لم تجب الأحزاب على هذه الدعوة.. عاد «رفعته» وأعلن أنه «قبض يده الممدودة». وأن الحكم للأمة وللناخبين: أى أنه رفض الائتلاف وتوزيع كراسى الوزارة.. وعاد إلى طلبه القديم وهو الاحتكام للشعب فى انتخابات تجرى.. والحكم يكون لمن يفوز.

* * *

ومر عام ١٩٤١.

وأقبل عام ١٩٤٢.. وقد بدأ ثعلب الصحراء المراوغ ماريشال روميل كما وصفه يومئذ ونستون تشرشل.. بدأ يتحرك من مكمنه.

وكان الإنجليز قد سمعوا طبعا وعرفوا بمساعى حسنين لإعادة الوفديين إلى الحكم.. وسمعوا طبعا وعرفوا بمقابلة فاروق لمصطفى النحاس. وسمعوا طبعا بخطبة النحاس باشا فى رأس البر وكيف أنه حمل عليهم وأسماهم أعداء الديمقراطية وجلادى الحريات. وأن رفعته ألقى هذه الخطبة بعد مقابلته لفاروق.

إذن.. فإن فاروق ضدهم، والوفد ورئيسه ضدهم، والرأى العام فى مصر ضدهم.

* * *

وأحس حسنين أنه فى سباق مع الزمن فذهب إلى فاروق يقول إن السعديين والدستوريين قد ركبهم الغرور أو لعلهم قد استعذبوا الحكم بعد بقائهم فيه أربع سنوات، ومن هنا لا يريدون أن يخطوا من جانبهم خطوة إلى الوفديين، بل ذهبوا

يتدللون ويشترطون قبل قبولهم الائتلاف أن ينزل لهم الوفد عن كذا وكذا من الدوائر وأن يكون لهم في الوزارة كذا وكذا من المقاعد . . وأن النحاس باشا يرفض وقد عدل عن رأيه وعاد واسترد يده الممدودة . . فماذا نعمل . . ؟

وقال فاروق . . «وهذا كلام حسنين باشا» :

ـ إذن هات النحاس باشا على شروطه .

أى أن فاروق رضى بعودة النحاس باشا والوفد إلى الحكم بلا قيد ولا شرط .

ولكن حسنين لم يصدع بأمر فاروق . . ولم يبادر إلى الإجهاز على وزارة حسين سرى المتعبة . . و العمل على عودة النحاس إلى رياسة الحكم بدون قيد أو شرط . . بل استأنف مساعيه عند الوفد وعند الأحزاب من أجل الاتفاق والائتلاف .

وكأنما عز عليه أن يسلم بفشله فى تأليف الوزارة القومية . . ومن هنا عاود الكرة .

وقد يتساءل قارئ : ولماذا إذن كان قد ذهب إلى فاروق وأبلغه أن النحاس قد استرد يده الممدودة وأنه يرفض الائتلاف ، وبالغ فى وصف الصعوبات التى يلقاها . . ؟

والرد : لكى يحمل فاروق على إعطائه تفويضا مطلقا بالعمل . . أو بعبارة أخرى لكى يحصل على تفويض على بياض . .

إذا نجحت مساعيه وأفلح فى حمل الوفد والأحزاب على الاتفاق فيما بينهم وتأليف وزارة قومية عاد إلى فاروق ـ وقد تضاعف فوزه وقدره ـ وقال : «لقد حققت لمولانا رغبته ومع أن مولانا قد فوضنى فى عودة النحاس إلى الحكم على شروطه فإننى قد نجحت فى عودة النحاس إلى الحكم على شروط مولانا . . » .

وإذا لم تنجح مساعيه وأصرت الأحزاب على موقفها ومساوماتها . . وأصر النحاس باشا على استرداد يده التى كان مدها إلى الأحزاب . . عاد حسنين إلى فاروق وقال : «لقد صدعت بأمر مولانا وأعدت النحاس باشا إلى الحكم بدون قيد أو شرط» .

فى الحالة الأولى: يكسب حسنين كثيرا لأنه جاء فاروق بكسب يفوق ما كان يطلبه. وفى الحالة الأخرى: لا يخسر حسنين شيئًا لأنه لم يفعل شيئًا سوى تنفيذ أوامر «مولانا» فاروق.

تلك أخلاق حسنين.. أو تلك كانت سياسته.

* * *

حادث ٤ فبراير

وهكذا . . مضت الأيام وحسنين يسعى ويفاوض ويساوم رجال الأحزاب . . لأنه كان حريصا على الفوز وعدم الهزيمة .

ولكن خوفه من هذه الهزيمة كان سببا فى إصابته بأكبر هزيمة حلت به فى حياته السياسية وأعنى حادث ٤ فبراير .

ذلك أنه أغفل الحقيقة التى كان أدركها منذ أسابيع أو منذ شهور قليلة ، وهى أنه فى سباق مع الزمن . . أو لعله لم يقدر سرعة هذا الزمن .

أو لعل انتصاره على مايلز لامبسون يوم فاجأه بالأمر الواقع وتعيين حسن صبرى باشا رئيسا للوزارة . . ويوم فاجأه مرة ثانية بوزارة حسين سرى . . لعل انتصاره فى هذين الحادثين ملأه ثقة بنفسه ومن ثم أراد أن يفاجىء الإنجليز بقيام الوزارة الوفدية التى طالما ألحوا فيها وتمنوا قيامها . . ولكنها وزارة وفدية تأتى إلى الحكم بإرادة فاروق .

وبفضل من فاروق لا بإرادة الإنجليز أو بمشورتهم أو بفضل منهم . . !

ويا له من انتصار لأحمد محمد حسنين ! هاكم وزارة الوفد برياسة مصطفى النحاس .

هاكم الوزارة التى تطلبونها وتقدمون لنا الإنذارات بسببها . . ولكنها وزارة تلى الحكم وهى تلعنكم وتلعن سياستكم وتتهم حكومتكم بأنها تحارب الديمقراطية والحريات .

نعم يا له من انتصار لأحمد حسنين . . أو هكذا قدر أحمد حسنين .

ولكن رئيس الديوان المناور الداهية أخطأ هذه المرة فى الحساب، وفى تقدير مدى خبث السياسة البريطانية . . أو المدى الذى يمكن أن تذهب إليه إذا ترجرجت الأمور وأحست أن مصالح بريطانيا فى خطر .

أخطأ فى الحساب والتقدير وترك الإنجليز يسبقونه .

* * *

قلت : إن ثعلب الصحراء ماريشال روميل تحرك من مكمنه .

وفى شهر يناير سنة ١٩٤٢ بدأ روميل هجوما عنيفا على الجيش البريطانى فى الصحراء . وأوفدت لندن وزير الدولة مستر ليتلتون إلى القاهرة لكى يساعد وجوده فى منطقة الخطر على اتخاذ قرارات سريعة من غير حاجة إلى استشارة لندن فى كل كبيرة وصغيرة .

وطلب مايلز لامبسون من السراى تحديد موعد يتشرف فيه وزير الدولة البريطانى مستر ليتلتون بمقابلة «جلالة الملك» .

ولكن السراى أبقت وزير الدولة والسفير ثلاثة أيام فى انتظار الرد .

وكانت إهانة أغضبت الوزير والسفير . . أو هكذا قال لى حسنين ـ رحمه الله ـ وهو يشرح لى أسباب حادث ٤ فبراير .

روميل يشن هجوما عنيفا فى الصحراء الغربية وهزائم الجيش البريطانى تتوالى . . ومواقعه الحصينة تسقط تباعا فى أيدى جيش روميل .

النحاس باشا يخطب ضد الإنجليز . . وزارة حسين سرى استقالت بسبب الأزمة التى كان بطلها الأستاذ صليب سامى وزير الخارجية يومئذ وهى الأزمة التى عرفت باسم أزمة وزير فيشى المفوض . . الرأى العام فى مصر هائج ضد الإنجليز . . يصفق ويهتف لكل انتصار يحرزه روميل وكل هزيمة تقع بالإنجليز . . والمظاهرات تطوف بشوارع القاهرة تهتف بسقوط إنجلترا وحياة روميل .

وكان انقلاب بطله رشيد عالى الكيلانى وقع منذ شهور فى العراق . . واضطر الوصى على العرش يومئذ الأمير عبد الله أن يغادر بغداد ويلجأ إلى البصرة . .

والسيد نورى السعيد أن يسافر من بغداد ويلجأ إلى القاهرة . . لأن الانقلاب كان ضد الإنجليز وضد أعوانهم فى العراق .

وخشى الإنجليز أن تمتد هذه النار أو هذه المظاهرات من القاهرة إلى الأرياف . . وأن يحدث فى مصر ما حدث فى العراق . . فتكون الضربة قاضية على خطوط مواصلاتهم الخلفية بينما هم يحاربون روميل . . ومن هنا قرروا أن يعملوا . . وبسرعة .

والمصرى الوحيد الذى كان على علم سابق بما ينوى الإنجليز عمله هو «المرحوم» أمين عثمان . . بل لعلهم استشاروه أو لعله هو الذى أشار عليهم بما يفعلونه .

أريد أن أقول : إن مصطفى النحاس ومكرم عبيد كانا بريئين تماما من جريمة تدبير حادث ٤ فبراير .

ولكننى لا أستطيع أن أنفى عن مصطفى النحاس أنه استفاد من الحادث المذكور .

* * *

وعقد كبار الإنجليز فى مصر مجلسا برئاسة مستر ليتلتون وحضور السفير مايلز لامبسون وكبار قواد الجيش البريطانى . . . وفى الجلسة المذكورة تقرر تقديم الإنذار البريطانى المعروف إلى فاروق بوجوب تكليف مصطفى النحاس بتشكيل الوزارة . . وإلا .

. . وحاصرت الدبابات البريطانية قصر عابدين .

وقبل النحاس باشا رياسة الوزارة رغم إلحاح الزعماء عليه بعدم القبول فى هذه الظروف أو على الأقل بتأليف وزارة قومية إنقاذا للمظاهر لوجه مصر وحتى لا يقال إننا خضعنا . . للإنذار البريطانى ونفذناه بحروفه .

* * *

وإليكم التفاصيل :

قلت فى الفصول السابقة إن السفير البريطانى كان قد طلب من رئيس الديوان أحمد محمد حسنين قيام وزارة وفدية أو على الأقل وزارة يؤيدها الوفد . . وأن

حسنين ناور وداور وفاجأ مايلز لامبسون بوزارة على رأسها حسن صبرى باشا . . ومرة أخرى بوزارة حسين سرى باشا . . وسكت السفير البريطانى، ولكن على مضض . . وقد أضمر فى نفسه شيئًا.

وفى نفس الوقت كانت الهزائم تتوالى على الجيش البريطانى فى الصحراء الغربية . . وكانت المظاهرات تطوف بشوارع القاهرة تهتف بحياة ألمانيا وسقوط بريطانيا . . وسقوط جورج السادس.

وأحس الإنجليز أن الشعب ـ شعب مصر ـ ضدهم . . وفاروق ضدهم . . وصديقهم مصطفى النحاس قد مل الانتظار . . فانقلب هو بدوره ضدهم.

ومن هنا قرروا ـ وبنصيحة أمين عثمان ـ غفر الله له ـ قرروا أن يضربوا ضربتهم.

* * *

وفى نفس الوقت ـ ومرة أخرى! كان أحمد محمد حسنين يسعى لتأليف وزارة قومية . . هذا وبالرغم من أن مصطفى النحاس كان أعلن مرة ومرارا أنه يرفض أن يضع يده فى يد خصومه السياسيين . . ويرفض الاشتراك فى وزارة قومية . . وأنه لا يرأس إلا وزارة وفدية خالصة.

. . وكذلك بالرغم من أن فاروق كان قد رضى بقيام وزارة وفدية وقال لحسنين: «فليكن . . وهات النحاس باشا على شروطه» . . رغم هذا كله لم يشأ أحمد محمد حسنين أن يسلم بالهزيمة . . أمام مصطفى النحاس أو مايلز لامبسون، فقد كان من خلقه عدم اليأس وعدم التسليم بالهزيمة . . وما دام فاروق كان يفضل قيام وزارة قومية أو وزارة ائتلافية فليحاول حسنين المستحيل من أجل تحقيق رغبة مولاه.

وبينما حسنين باشا لا يزال فى محاولاته ومداولاته ومفاوضاته مع زعماء الأحزاب . . وبعض كبار الوفديين ـ وكأنما قد نسى أنه فى سباق مع الزمن ـ بينما هو كذلك ضرب الإنجليز ضربتهم.

وفى يوم الاثنين ٢ فبراير ١٩٤٢ استقالت وزارة حسين سرى باشا، وأرسل مايلز لامبسون إلى فاروق يطلب منه أن يكلف مصطفى النحاس باشا بتأليف الوزارة . . أو يقبل إسناد رياسة الوزارة إلى من يختاره مصطفى النحاس ويعد بتأييده.

وأرسل فاروق واستدعى لمقابلته رؤساء الوزارات السابقين ورؤساء الأحزاب والرؤساء السابقين لمجلس الشيوخ ومجلس النواب . . إلى آخره .

وشاورهم فى الأمر وطلب منهم أن يختاروا من بينهم وزارة قومية تواجه الأحداث الخطيرة التى تمر بالبلاد .

وقبلوا جميعهم أن يشتركوا فى وزارة يرأسها مصطفى النحاس . ولكن مصطفى النحاس أصر على موقفه أو على رفضه .

وفى اليوم التالى ـ الثلاثاء ٣ فبراير ـ ذهب مايلز لامبسون إلى قصر عابدين وقابل رئيس الديوان أحمد محمد حسنين وقال له إنه علم أن مصطفى النحاس باشا يرفض الاشتراك فى وزارة قومية ولهذا فإنه ـ السفير البريطانى ـ يطلب من حسنين باشا أن يقدم هذه النصيحة للملك فاروق وهى أن يعهد إلى النحاس باشا بتأليف وزارة وفدية .

ومرة أخرى عز على حسنين باشا أن يسلم بالهزيمة ! ومن ثم فقد قال للسفير البريطانى إن المشاورات لا تزال جارية مع رؤساء الأحزاب لتأليف وزارة قومية وإنه واثق من أن وطنية الزعماء سوف تتغلب على كل شىء .

وانصرف مايلز لامبسون .

انصرف لكى يعود عند ظهر اليوم التالى ـ الأربعاء ـ ويسلم حسنين باشا هذا الإنذار .

ونص الإنذار :

إذا لم أعلم قبل السادسة مساء أن النحاس باشا قد دعى لتأليف وزارة فإن الملك فاروق يجب أن يتحمل تبعات ما يحدث .

* * *

ومرة أخرى لم ييأس أحمد محمد حسنين . . ولم يشأ أن يسلم بالهزيمة ـ بل لم يتردد فى مواجهة الموقف الخطير .

واستدعى الزعماء للاجتماع بقصر عابدين .

وطال اجتماعهم. وطالت مناقشاتهم.

ودخل عليهم حسنين باشا مرة ومرتين لكى يذكرهم أن عليه أن يرد على الإنذار البريطانى وأن يرسل جواب الملك فاروق قبل السادسة مساء.

ولكن اجتماع الزعماء لم ينته إلى النتيجة المرجوة بسبب إصرار النحاس باشا على موقفه.

والوحيد بين رؤساء الوزارات السابقين الذى انضم فى الرأى إلى مصطفى النحاس كان أحمد زيوار باشا صاحب العبارة المشهورة: «إنقاذ ما يمكن إنقاذه».

وغادر الزعماء والرؤساء السابقون قصر عابدين على أن يستأنفوا الاجتماع مرة أخرى.. ولكن..

حوالى الساعة التاسعة مساء امتلأ ميدان عابدين «ميدان الجمهورية الآن» بآلاف الجنود البريطانيين وهم بملابس الميدان.. وبعشرات الدبابات.

وطوقت الدبابات البريطانية قصر عابدين من جميع الجهات.. وصوبت إليه مدافعها.. وتقدمت إحداها وحطمت الباب الرئيسى ـ أو كما كان يسمى «الباب الملكى» ـ ودخلت منه إلى حرم القصر.

ودخلت وراءها سيارة تحمل السفير البريطانى ومعه جنرال ستون قائد القوات البريطانية فى مصر.

ووقفت السيارة أمام باب القصر الداخلى ونزل منها مايلز لامبسون والقائد البريطانى.

ودخلا القصر بينما كان يسير أمامهما ثمانية ضباط بريطانيين ومسدساتهم فى أيديهم.

وتقدم كبير الأمناء بالنيابة يومئذ إسماعيل تيمور باشا يسألهم: ماذا يريدون؟ ولكن مايلز لامبسون نحاه بيده من طريقه وهو يقول:

ـ أنا أعرف طريقى..!

وكان الجنود البريطانيون قد هاجموا حراس القصر وجردوهم من السلاح.

وحاصروا ثكنات الحرس. وقاوم بعض أفراد الحرس، ولكن البريطانيين تكاثروا وتغلبوا عليهم وأصيب بعض جنود الحرس بكسور فى العظام وبجروح مختلفة.

وصدر أمر من القصر إلى رجال الحرس بعدم المقاومة.. حتى لا تحدث مذبحة أمام قصر عابدين..!

وفى نفس الوقت كانت الطائرات البريطانية واقفة على قدم الاستعداد للتحليق فوق ثكنات الجيش المصرى ومعسكراته وقذفها بالقنابل وتدميرها إذا بدرت من الجيش أية مقاومة.

وحاصر الجنود الإنجليز كذلك أقسام البوليس فى القاهرة وقطعوا جميع الأسلاك التليفونية بين قصر عابدين والخارج.

كما حاصروا محطة الإذاعة المصرية لكى يمنعوا وصول الخبر إلى الشعب.

* * *

ودخل سير مايلز لامبسون «الذى كوفئ فيما بعد على عدوانه الشنيع بلقب لورد كليرن».. دخل على فاروق وكان واقفا فى غرفة مكتبه وإلى جانبه رئيس ديوانه أحمد محمد حسنين.

وكان يقف وراء السفير البريطانى جنرال ستون. بينما وقف خارج الغرفة الضباط الإنجليز يحرسون الباب وفى أيديهم المسدسات وقال السفير البريطانى لفاروق ما خلاصته أنه يخيره بين التنازل عن العرش.. أو تكليف مصطفى النحاس باشا بتأليف الوزارة.

وقبل فاروق أن يعهد إلى رئيس الوفد بتشكيل الوزارة.

وقال مايلز لامبسون:

- الآن.. هذا المساء.

ووعده فاروق بذلك!

وانصرف مايلز لامبسون ومن معه.

* * *

ولكن الدبابات البريطانية ظلت تحاصر القصر وثكنات الحرس .

ومرة أخرى ـ وفى نفس المساء ـ أرسل حسنين باشا واستدعى الزعماء والرؤساء السابقين . . إلى آخره .

وتوافدوا على قصر عابدين ورأوا الدبابات البريطانية تحاصر القصر وقال لهم فاروق إنه قد قبل الإنذار البريطانى وإنه يعهد إلى مصطفى النحاس باشا بتأليف الوزارة .

وهنا قال الدكتور أحمد ماهر :

ـ اسمع يا مصطفى باشا . . إننى أقول لك أمام جلالة الملك وزعماء مصر : إنك تتولى الحكم مسنودا بالدبابات والحراب البريطانية .

وقال إسماعيل صدقى باشا :

نعم . . مسنودا بالحراب البريطانية حقيقة لا مجازا . . وقد رأيناها بأعيننا فى الميدان .

وهنا قال مصطفى النحاس باشا إنه لم ير شيئًا من هذا . . لأن الدنيا كانت ضلمة !

ثم قال فاروق :

ـ ولى عندك رجاء يا مصطفى باشا . . وهو أن تذهب الآن إلى السفير البريطانى وتبلغه أننى قد عهدت إليك بتأليف الوزارة .

قال مصطفى النحاس :

ـ ولكن الوقت متأخر يا مولاى .

ولكن فاروق ألح . . وقال :

ـ سوف تجد سير مايلز فى انتظارك !

* * *

ومنعت الرقابة نشر أى خبر عن هذا العدوان فى مصر . . كما أنها منعت إرسال أية برقية فى هذا الموضوع إلى خارج مصر .

وفى صباح اليوم التالى - ٥ فبراير ١٩٤٢ - توجه مصطفى النحاس إلى مكتبه برياسة مجلس الوزراء. وكانت اللجان الوفدية قد استدعيت من مختلف جهات القطر لتهنئة الرئيس الجليل».

وكان الشعب يجهل تماما ما حدث فى مساء ٤ فبراير.

وانطلقت المظاهرات.. وسارت إلى دار الرياسة تهتف بحياة النحاس باشا.

وأقبل السفير البريطانى ليهنئ النحاس باشا.

ثم خرج الاثنان معا إلى الشرفة.. مصطفى باشا ومايلز لامبسون وأيديهما متشابكة.

وهنا خرج أحد أذناب الوفد يصيح بجموع المحتشدين أن تهتف بحياة السفير البريطانى الصديق!!

وهتفت الجماهير.. ولما غادر مايلز لامبسون دار رياسة مجلس الوزراء حمله بعض شباب الوفد على الأعناق.

وأسرعت محطة إذاعة لندن وأذاعت هذا الخبر وقالت: إن الشعب المصرى قد حمل سفير بريطانيا على الأعناق..!

* * *

وفى يوم ٧ فبراير - أى بعد الحادث بثلاثة أيام - تناولت الغداء مع حسنين باشا فى داره. وقص على كثيرا من التفاصيل التى أوردتها هنا.. ومن بينها أن فاروق - عندما رأى إصرار مصطفى النحاس على الانفراد بالحكم ورفض كل اقتراح خاص بقيام وزارة قومية أو ائتلافية أو محايدة تجرى انتخابات جديدة - قال لحسنين باللغة الإنجليزية:

- يظهر أن النحاس باشا واثق من الأرض التى يقف عليها.. أى واثق من تأييد الإنجليز له..!

وقال: إن فاروق قال لرجال حاشيته عقب الحادث:

يظهر أن الإنجليز ـ وقد خسروا معركة بنى غازى ـ أرادوا أن يكسبوا معركة عابدين . . !

وكان الجيش البريطانى قد أخلى مدينة بنى غازى وتراجع أمام جيش روميل .

وأقف قليلا عند حادث ٤ فبراير .

على كثرة ما كتب ونشر عن حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ فإنه لا تزال هناك تفاصيل وأسرار لم تنشر بعد . كما أن أحدا من الذين كتبوا عن الحادث المذكور لم يحاول أن يجلو هذه النقطة وهى :

هل كان اعتداء الإنجليز على السيادة المصرية وعرش مصر فى حادث ٤ فبراير نتيجة قرار اتخذ فجأة عندما توالت انتصارات قوات المحور بقيادة الماريشال روميل فى الصحراء الغربية واشتد خطر غزو المحور . . ؟

أما كان هذا الاعتداء ـ حادث ٤ فبراير ـ نتيجة سياسة تقررت ورسمت قبل ذلك بوقت طويل بعامين أو بعام واحد على الأقل . . ؟

ثم من هم الذين رسموا أو قرروا هذه السياسة أو هذا الاعتداء على سيادة مصر وعرشها . . ؟

هل هم الساسة . . تشرشل وإيدن فى لندن . . ووزير الدولة مستر ليتلتون وسفير بريطانيا سير مايلز لامبسون فى القاهرة . . أم رجال الجيش البريطانى فى مصر والشرق الأوسط . . جنرال ويلسون وزملاؤه . . ؟

ثم ما هو السبب أو الأسباب التى حاولت السياسة البريطانية أن تبرز بها هذا الاعتداء الشنيع على سيادة وعرش بلد مستقل؟

هذه النقطة أو النقط لا تزال ملفوفة فى غموض كثير .

* * *

ذات يوم فى أوائل شهر يونية عام ١٩٤٠ تقابلت صدفة فى محل «جروبى» مع مستر جرافتى سميث السكرتير الشرقى وقتئذ بالسفارة البريطانية .

وجلسنا نتحدث عن معركة فرنسا وانهيار مقاومة الجيش الفرنسى وعن دخول

إيطاليا الحرب. وشكا جرافتى سميث مما تلقاه السلطات البريطانية من معاكسات السلطات المصرية وكيف أن الحكومة المصرية قد انقلبت فى الأيام الأخيرة من حكومة صديقة تنفذ المعاهدة ـ معاهدة ١٩٣٦ ـ بإخلاص وتعاون. . الأمر الذى شكرها عليه الجنرال ويلسون فى نحو ثلاثين خطابا أرسلها إلى رئيس الحكومة «صاحب المقام الرفيع» على ماهر باشا. . انقلبت من هذا إلى حكومة تضع العقبات والعراقيل ولا تبالى فى طريق السلطات البريطانية. ومن ذلك أنها رفضت اعتقال عدد كبير من وكلاء المحور ممن كانوا يشغلون مناصب مدنية أو يقومون فى الظاهر بأعمال تجارية بريئة بينما هم فى الحقيقة يؤلفون شعبة تابعة لأقلام مخابرات العدو السرية. . أى الجاسوسية.

ثم قال مستر جرافتى سميث إن سنيور دودونى مدير وكالة الأنباء الإيطالية هو فى الحقيقة رئيس الجاسوسية الإيطالية فى مصر. ولقد طلبت السلطات البريطانية اعتقاله وعدم تمكينه من مغادرة مصر والعودة إلى إيطاليا لأن المعلومات التى جمعها أثناء إقامته فى مصر تفيد ولا شك القيادة العليا للمحور فائدة كبيرة.

ومضى جرافتى سميث فى حديثه يقول:

ـ ولقد قدر حسن فهمى رفعت باشا وكيل وزارة الداخلية طلبنا هذا حق قدره وفهم الأسباب التى تبرره. ولهذا فإنه ماطل سنيور دودونى عندما تقدم بطلب تأشيرة الخروج من مصر وأبقى طلبه تحت البحث والنظر. ورفض فى نفس الوقت أن يعيد إليه جواز سفره. ولقد أراد حسن فهمى باشا من هذه المماطلة والتسويف أن يتيح للسلطات البريطانية الوقت الكافى لإقناع الحكومة المصرية بوجهة نظرها وهى وجوب اعتقال سنيور دودونى.

ولكن رئيس الحكومة على ماهر باشا تكلم بنفسه مع إدارة الجوازات وألح فى استعجال إتمام إجراءات (الفيزا) أو الإذن بمغادرة الأراضى المصرية إلى سنيور دودونى. . !

بل لم يكتف على ماهر باشا بهذا وذهب بنفسه إلى إدارة الجوازات ولم يبرحها إلا بعد أن تمت إجراءات (الفيزا) وغادر المكتب ومعه جواز سفر سنيور دودونى. .

وقد سلمه إليه بيده. واستطاع السنيور أن يغادر مصر تحت أنفنا وبصرنا ونحن مكتوفو الأيدى لا نستطيع شيئًا.

وكان الغيظ واضحا فى نبرات صوت السكرتير الشرقى للسفارة البريطانية وهو يروى لى هذه القصة ثم يتساءل أين الإخلاص والتعاون اللذان كانت السلطات البريطانية تلقاهما من قبل من حكومة على ماهر باشا؟! وهل هذه العقبات والعراقيل التى تضعها حكومة مصر أمام المجهود الحربى البريطانى مما يتفق مع المعاهدة المعقودة بين البلدين..؟

وانصرف مستر جرافتى سميث وهو يقول لى ما معناه أن للصبر حدودا، وأن دوام هذه الحال من المحال.

* * *

ولقد تلقت السلطات البريطانية فى مصر يومئذ تقارير فحواها أن الوزارة المصرية قد قلبت سياستها رأسا على عقب. وأن سياستها التى كانت تجرى ـ قبل انهيار فرنسا ـ على أساس الإخلاص والتعاون مع إنجلترا قد انقلبت وأصبحت تقوم على أساس أن النصر لدولتى المحور ألمانيا وإيطاليا.. وأن الهزيمة لبريطانيا. وأن بعض الوزراء المصريين قد صرحوا فى مجالسهم وفى حضور وبموافقة «رفعة» رئيسهم بما يفهم منه هذا، بل لقد ذهب أحدهم وهو صالح حرب باشا إلى حد القول بأن أيام بريطانيا معدودة وأن مقاومتها لألمانيا لن تزيد على شهرين اثنين.

وكان أن خطت إنجلترا خطوتها الأولى فى الاعتداء على سيادة مصر واستقلالها وأرسلت إنذارها الأول مصحوبا بالبرقية المشهورة التى أرسلها لورد هاليفاكس وزير الخارجية البريطانية إلى سفير بريطانيا فى مصر سير مايلز لامبسون وفيها يقول:

«Aly Mahir Must Go»

وترجمتها حرفيا: «على ماهر يجب أن يذهب».. أى يترك الحكم..!

* * *

واستقالت وزارة على ماهر باشا . . وفوجئ الإنجليز كما سبق أن قلت باختيار حسن صبرى باشا رئيسا للوزارة .

* * *

وهكذا يمكن القول بأن الاعتداء على سيادة مصر وعرشها كان قد بدأ فعلا ـ وبصورة ما ـ فى صيف عام ١٩٤٠ ، ولم يكن هناك يومئذ خطر داهم على مصر لأن القائد البريطانى الجنرال ويفيل كان منتصرا فعلا على الجيش الإيطالى فى الصحراء الغربية .

والتفكير فى فرض وزارة مصرية معينة وزعيم مصرى معين يتولى الحكم كان قد بدأ فى صيف عام ١٩٤٠ .

ومن ثم يمكن القول وعلى أساس من الاستنتاج المنطقى السليم إن حادث ٤ فبراير لم يكن نتيجة قرار أو سياسة اتخذت فجأة وتحت ضغط خطر داهم . . وإنما كان الفصل الأخير . . أو الخاتمة لسياسة مرسومة كان قد بدأ تنفيذها .

أو قل إن شئت : إن حادث ٤ فبراير كان تحقيق أو تنفيذ الفكرة أو «المشورة» التى تقدم بها مايلز لامبسون فى يونية عام ١٩٤٠ ! وهى أن تتولى الحكم وزارة يؤيدها الوفد .

* * *

وفى منتصف شهر أبريل عام ١٩٤٥ ـ وكانت الحرب العالمية لا تزال دائرة ـ قمت برحلة إلى تركيا مارا بلبنان .

وتفضل صاحب الدولة السيد حسين العوينى ـ وقد قابلته فى بيروت ـ وأعطانى خطاب تقدمة وتوصية إلى صديقه سعادة السيد فؤاد حمزة وزير المملكة العربية السعودية فى أنقرة .

وكان السيد فؤاد حمزة ـ يرحمه الله ـ مستودع أسرار كبيراً ولا أعرف بين دبلوماسيى العرب وساستهم من يفوقه علما وإلماما بأسرار ما يجرى وراء الستار . ولعل مما ساعد على هذا إلمامه وإتقانه لأكثر من لغة أجنبية واحدة . . وهو لبنانى الأصل ، وكان مغرما بالأسفار .

وكان أثناء الحرب العالمية الأخيرة وزيرا مفوضا لدولته لدى حكومة ماريشال بيتان فى فيشى وحكومة الاتحاد السويسرى فى برن . . ثم لدى حكومة تركيا فى أنقرة .

ولقد تمكن فى هذه المناصب فى البلدان الثلاثة من الوقوف على أسرار كثيرة منها ما يتصل مباشرة بحادث ٤ فبراير . . وأنا هنا أنقل مباشرة عن مذكراتى :

حدثنى سعادة فؤاد حمزة بك الوزير المفوض للمملكة العربية السعودية فقال إنه لما كان فى زيوريخ (سويسرة) فى عام ١٩٤٢ ـ بعد وقوع حادث ٤ فبراير ـ قابله اللورد . . الذى كان يدير فى الخفاء قلم المخابرات البريطانية فى سويسرة وقال له إن الحكومة البريطانية قد هالها ما يجرى ويقع فى مصر فقررت خلع الملك فاروق وأن الصعوبة كانت فى اختيار الذى يخلفه على العرش . . ولقد فكرت الحكومة البريطانية فى أول الأمر فى حفيد الخديو عباس حلمى ـ أى نجل الأمير السابق محمد عبد المنعم وكان لا يزال يومئذ فى سن الرضاعة ـ على أن يكون هناك وصى كما هو الحال فى العراق، ثم انتهى الرأى إلى مفاوضة الخديو عباس حلمى فاتصلوا به فى سويسرة وسافر سموه، رحمه الله، إلى إستانبول لكى يكون على مقربة من مجرى الحوادث . . !

وفى إستانبول قابله مستر مرتون وسلمه رسالة من الحكومة البريطانية .

ومستر مرتون هذا عاش معظم سنين حياته فى مصر وكان يعرف البلاد ويعرف أعيانها وساستها حق المعرفة كما كان يجيد الحديث باللغة العربية . . وكان فى أول أمره موظفا بوزارة الزراعة المصرية ثم استقال وعمل مندوبا لجريدة المورننج البوست ثم مندوبا لجريدة الديلى تلغراف .

وكان بحكم عمله الصحفى أثناء الحرب كثير التجول والتنقل بين ميادين الحرب فى الشرقين الأدنى والأوسط . وقد قتل فى حادث انقلاب سيارة فى الصحراء الغربية وقتل معه فى نفس الحادث قائد إنجليزى مشهور اسمه جوك كامبل .

* * *

قلت : إن الخديو عباس حلمى غادر سويسرة إلى إستانبول حيث قابله مستر مورتون وتحدث معه وسلمه رسالة من حكومة لندن .

وأقام الخديو السابق ينتظر «الإشارة» أو الخطوة الثانية . . ولكن قلم المخابرات الألمانية أحس أن هناك شيئًا مريبًا يجرى .

* * *

وكذلك أحس الخديو أن الألمان يشكون فيه . . وأن عيونهم في إستانبول يرقبون حركاته . . ويشكون فى سبب قدومه إلى إستانبول واتصاله بأعدائهم الإنجليز ، فخشى الخطر على نفسه ، وأسرع بمغادرة إستانبول عائدا إلى مقره الأمين فى سويسرة .

وقلت لفؤاد حمزة بك :

ـ ولماذا لم يرشح الإنجليز لعرش مصر ولى العهد الأمير محمد على توفيق وهو صديقهم الحميم . . ؟

قال : فى الواقع أن ترشيح البرنس محمد على للعرش لم يكن محل تفكير فى أى وقت لأن الإنجليز كانوا يعرفون أنه غير محبوب وليست له أقل شعبية فى مصر . . ولقد فكروا فى الخديو عباس حلمى لأنه كان محبوبا إلى حد ما وكانت له شعبية . . ثم هو الرجل الذى كان الإنجليز اغتصبوا منه العرش وأعطوه لحسين كامل ثم لأحمد فؤاد . . ومن هنا رأوا أن يعيدوه أو يعيدوا إليه عرشه ترضية لشعب مصر حتى لا يثور أو يقوم باضطرابات عند خلع الملك فاروق المحبوب . . ؟!

* * *

قلت إن حسنين باشا أكد للسفير البريطانى مايلز لامبسون الذى لم يكن قد أنعم عليه بعد بلقب لورد كليرن ، أنه قد روعى فى اختيار حسن صبرى باشا وجميع أعضاء وزارته أنهم أصدقاء مخلصون لبريطانيا وإلا لما كان الاختيار قد وقع عليهم .

وسكت مايلز لامبسون أو اطمأن إلى هذا التفسير . ولكن رئيس الحكومة الجديدة حسن صبرى باشا لم يطل به الأمر حتى بدأ يشكو لمن يلقاهم من كبار

الإنجليز من أنه لا يستطيع القيام بكل ما يقتضيه تنفيذ المعاهدة بصدق وتعاون وإخلاص؛ لأن خصومه السياسيين أقوى منه وأوسع نفوذا وأن على رأس هؤلاء الخصوم على ماهر.

وطلب منه الإنجليز اعتقال على ماهر باشا ولكنه رفض.. ثم توفى حسن صبرى باشا فجأة بينما كان يلقى خطاب العرش فى حفلة افتتاح البرلمان فى نوفمبر ١٩٤٠.

ومرة أخرى طلب فاروق من أحمد حسنين البحث عن رئيس جديد للحكومة.

ومرة أخرى فوجئ الإنجليز بقيام وزارة ليست وفدية أو يؤيدها الوفديون كما كانوا يطلبون..!

* * *

ولكن حسين سرى - هو أيضا - لم يكد يسير فى الحكم أسابيع حتى ذهب يشكو لكل من يلقاه هنا وهناك من كثرة العراقيل التى توضع فى سبيله من مناورات ودسائس بعض الساسة المصريين بقصد إضعافه وشل يده..!

وكانت السلطات البريطانية فى ذلك الوقت كثيرة الشكوى من نشاط بعض الساسة والكبراء المصريين فى مصر.. وفى خارج مصر وهو نشاط وصفه الإنجليز يومئذ بأنه نشاط «محورى» يعمل لمصلحة دول المحور.. أو على الأقل هو نشاط معاد للسياسة البريطانية، ومعرقل لجهودها الحربية ضد أعدائها.

وكان بين أسماء الكبراء الذين يقومون بهذا النشاط خارج مصر: «سعادة مراد سيد أحمد باشا» - رحمه الله - الذى كان وزيرا مفوضا لمصر فى روما عند إعلان الحرب.. ولقد رفض يومئذ أن يعود إلى مصر.. ومضى يتنقل بين إيطاليا وسويسرة وألمانيا! وتركه الألمان والإيطاليون حرا بينما اعتقلوا مئات من الرعايا المصريين.

هذا وقد لفت أنظار أقلام المخابرات البريطانية إلى نشاط مراد سيد أحمد باشا.

وهنا تذكرت السلطات البريطانية أن مراد سيد أحمد باشا صديق حميم لعلى ماهر باشا، وأن على ماهر باشا كان اختاره وزيرا فى وزارته ثم وزيرا مفوضا لمصر.

وازداد الشك وسوء الظن فى على ماهر.

وتساءلت السلطات البريطانية يومئذ لماذا لا تتخذ السلطات المصرية إجراء ما ضد سيد أحمد باشا ولو بوصفه موظفا كبيرا فى المعاش..؟

وإذا كان كونت شيانو ـ وزير خارجية إيطاليا يومئذ وصهر موسولينى ـ قد كتب فى مذكراته التى نشرت بعد وفاته ونشرت ترجمتها زميلتنا الأهرام، شيئًا عن حديث دار ـ أثناء الحرب طبعا ـ بين مراد سيد أحمد باشا وبين وزير إيطاليا المفوض لدى الفاتيكان وقد قال مراد سيد أحمد باشا فى هذا الحديث إن الملك فاروق يميل إلى المحور ويكره البريطانيين «وقد أغفلت جريدة الأهرام يومئذ نشر ترجمة هذا القسم من المذكرات».. فإن أقلام المخابرات البريطانية كان لديها أقوال أكثر خطورة منسوبة إن صدقا وإن كذبا إلى مراد سيد أحمد باشا.

ولقد كان فى مقدور السلطات البريطانية أن تفهم وتقدر نشاط هؤلاء الكبراء المصريين.. لا على أنه خيانة لقضية بريطانيا وحلفائها.. وإنما على أنه إخلاص لقضية مصر واستقلالها. وأن المصريين هؤلاء ذوى النشاط «المحورى» لا يحبون المحور لسواد عينيه ولا يكرهون الإنجليز لذاتهم.. ولكنهم كانوا يعملون لمصر ولتحقيق ما يعتقدون بإخلاص أنه فى مصلحة مصر. ولقد كانت الدول المحايدة أو معظمها على الأقل تؤمن يومئذ إيمانا راسخا بأن النصر للمحور. وأن الهزيمة مكتوبة لبريطانيا.

ولم يكن إذن هذا النفر من الساسة والكبراء المصريين هم وحدهم الذين يؤمنون بانتصار ألمانيا ومحورها.. فقد كان هناك إخوان لهم فى فلسطين والعراق وسوريا يرون نفس الرأى.

بل وفى إسبانيا والبرتغال وسويسرة والسويد وأمريكا الجنوبية.. وفى الهند. بل وفى فرنسا نفسها كان يوجد كثيرون ممن يؤمنون بأن النصر لدول المحور.

وفى جميع هذه الدول كان يوجد ساسة يحبون بلادهم، وكانوا يرون من بعد النظر وحسن الاحتياط أن يؤيدوا المحور ويعملوا معه لكى يضمنوا السلامة لبلادهم ويضمنوا معها استقلالها وتحقيق أمانيها المشروعة يوم يتم النصر للمحور ويعود السلام.

لم تكن هناك إذن خيانة لقضية الديمقراطية . . وانتصار أو تعاون مع قضية النازية والفاشية وإنما كان هناك إخلاص لقضية البلاد وحرص على تحقيق أمانيها فى العزة والسيادة والاستقلال .

والبريطانى الكبير الوحيد الذى فهم الموقف على حقيقته وقدر وجهة نظر هؤلاء الساسة المصريين . . كان الجنرال «آلان فليد مارشال» هنرى ميتلاند ويلسون ومن هنا فقد نظر إلى نشاطهم «المحورى» ـ كما وصفوه يومئذ ـ بشيء غير قليل من سعة الصدر وقال عن الصدام الذى وقع بين السياسة البريطانية وبين هذا النشاط المصرى المحورى أنه نشاط بين ولاءين . . !

بين ولاء الساسة المصريين لقضية بلادهم واستقلالهم . وبين ولائهم لقضية الحلفاء الديمقراطية .

ولكن زملاءه وأنداده من القادة البريطانيين سواء فى لندن أو فى القاهرة لم ينظروا إلى الموقف بنفس العين . بل نظروا إلى نشاط هذا النفر من الساسة والكبراء المصريين على أنه نشاط خطر بالغ الخطورة .

واستدارت بريطانيا فى سياستها نحو مصر وكان هذا فى أوائل يونيه عام ١٩٤٠ . وأرسلت برقية وإنذارا بوجوب تخلى السيد على ماهر عن رئاسة الوزارة . . وإسناد الحكم إلى وزارة وفدية برئاسة السيد مصطفى النحاس أو على الأقل وزارة يؤيدها الوفد ومصطفى النحاس .

وكان منطق حجة بريطانيا فى هذا أن مصطفى النحاس هو المساهم الأول فى عقد معاهدة ١٩٣٦ وأنه إذن المسئول الأول عن تنفيذها نصا وروحا بولاء وإخلاص ؟ !

ولكن السلطات البريطانية فوجئت باختيار المرحوم حسن صبرى باشا رئيسا للوزارة .

ثم فوجئت مرة أخرى باختيار حسين سرى باشا خلفا له فى رئاسة الوزارة .

ثم جاءت حكاية البوليس الخاص ووضعه تحت قيادة محمد طاهر «باشا» .

وطاهر «باشا» كان من بين الذين طلبت السلطات البريطانية اعتقالهم بدعوى «نشاطهم المحورى» وكانت هذه السلطات تتلقى تقارير يومية عما يجرى فى نادى السيارات «الملكى» وعن الأحاديث المنسوبة إلى بعض كبار أعضائه مثل النبيل «السابق» عباس حليم ومحمد طاهر «باشا». . وكانت التقارير المذكورة تزعم أن الرجلين وغيرهما يفضون بأحاديث مملوءة بالعداء المر للإنجليز وبالتأييد الصريح لدول المحور.

فلما شكل البوليس الخاص وعلى رأسه طاهر «باشا» رفضت السلطات البريطانية أن تصدق أن مهمة هذا البوليس الخاص هى مساعدة البوليس المصرى أثناء الغارات. . إلى آخر ما قيل ونشر يومئذ عن الغرض من تشكيله.

رفض الإنجليز أن يصدقوا هذا وزعموا أن هذا البوليس الخاص إنما أنشئ خصيصا لكى يسهل على قوات المحور مهمتها يوم تدخل مصر. . ويمهد لها ويعاونها أثناء فترة الانتقال المضطربة وهى الفترة التى لا بد منها أثناء انسحاب البريطانيين. . ودخول الألمان والإيطاليين.

. . وأن هناك ـ كما جاءهم من إستانبول ـ نظاما خاصا للإشارات والتعليمات متفقا عليه بين هذا البوليس الخاص وبين الألمان . . وكان الإنجليز يعتقدون ـ فوق هذا وذاك ـ أن فى مصر محطات لاسلكية سرية للاستقبال والإرسال . . أى محطات تستطيع أن تلتقط الرسائل وترسل الرسائل من مصر بدون أن تمر الرسائل المذكورة بالرقابة العسكرية.

. . وأن هذه المحطات اللاسلكية السرية كانت ترسل إلى «وكلاء المحور وسلطاته الحربية» تفاصيل عن بعض ما يجرى فى مصر وما تحرص السلطات البريطانية كل الحرص على كتمانه كل الكتمان، كما أنها ـ أى هذه المحطات السرية ـ كانت تتلقى من وكلاء المحور وسلطاته الحربية التعليمات عما يجب عمله.

وبعبارة أخرى كانت السلطات البريطانية تعتقد أن هذه المحطات اللاسلكية السرية جزء من «النشاط المحورى» الذى يقوم به «طابور خامس» يتزعمه نفر من كبار الساسة المصريين.

وأثناء هذا وذاك ـ أى فى الفترة ما بين يونيه ١٩٤٠ وأواخر عام ١٩٤١ ـ تلقت

السلطات البريطانية تقارير من أقلام مخابراتها فى مصر وفى أنقرة وإستانبول ولبنان وقد جاء فيها :

١ ـ أن سمير ذو الفقار بك التشريفاتى السابق ـ وأحد أصدقاء على ماهر باشا ـ قد سافر أكثر من مرة إلى تركيا بحجة التجارة فى الجلود والتبغ وأنه اجتمع بسفير ألمانيا فى أنقرة فون بابن عدة مرات. وأنه قابل أيضا بعض وكلاء الألمان فى لبنان وأنه لما عاد إلى مصر اجتمع بفلان وفلان من الساسة وكبار رجال الدولة!

٢ ـ وأن شوقى الهان وزير تركيا المفوض يومئذ فى مصر قد سافر أكثر من مرة إلى تركيا بحجة الإجازة أو مراجعة حكومته فى بعض الشئون بينما هو سافر فى الحقيقة موفدا من «سلطات مصرية عليا» للاتصال بالسلطات الألمانية فى تركيا وإبلاغها كذا وكيت . . لكى تبلغها هى بدورها إلى «السلطات العليا» فى برلين.

وكانت تركيا يومئذ أى فى عام ١٩٤١ على الحياد . . ولكنه كان حيادا مشوبا بالميل لألمانيا وتأييد المحور . . وكان فريق كبير من ساستها وقوادها العسكريين يؤمن بأن النصر للمحور.

٣ ـ وأن الآنسة دولورس دى بدروزو الملحقة السياسية بمفوضية إسبانيا فى القاهرة كانت «واسطة» اتصال بين فريق الكبراء المصريين الموالين للمحور . . وبين سفارة ألمانيا فى مدريد.

وكانت إسبانيا يومئذ على الحياد . . ولكنها كانت تؤيد المحور صراحة.

٤ ـ وأن مسيو بوتزى الوزير المفوض لحكومة فيشى الفرنسية فى القاهرة يقوم بنفس الدور.

وحكومة فيشى كانت تتعاون مع الألمان.

كانت السلطات البريطانية تتلقى هذه التقارير فى عام ١٩٤١.

وكانت تؤمن بصحة ما فيها . . هذا بينما كانت الحرب تمر بمرحلة من أخطر مراحلها . . بالنسبة لإنجلترا وحلفائها فقد كانت بريطانيا تحارب فى الواقع وظهرها

إلى الجدار وقد توالت عليها الهزائم . . ثم إذا باليابان تقوم بهجومها المفاجئ فى نهاية العام ـ عام ١٩٤١ ـ وتجتاح المعاقل البريطانية فى الشرق الأقصى .

وتوالت انتصارات اليابان فى البر والبحر ضد البريطانيين وحلفائهم الأمريكان . وسقطت جزر الباسفيك والملايو وجزر الهند الشرقية وبورما وسنغافورة . . ثم بدأ زحف اليابانيين صوب الهند . واضطرت بريطانيا أن تعيد توزيع قواتها المنهكة .

كان هذا هو الموقف فى الشرق الأقصى .

أما فى أوروبا فإن الجيوش الألمانية كانت تحاصر موسكو ولينينجراد . . وتعدو عدوا صوب آبار البترول فى القوقاز .

وفى كلمة موجزة كان هتلر قد سحق أوروبا تحت حذائه العسكرى من النرويج إلى اليونان ومن شاطئ الأطلنطى إلى نهر الفولجا وجبال الأورال .

وفى أفريقيا وعلى حدود مصر الغربية كان الثعلب المراوغ الماريشال روميل ـ كما أسماه يومئذ تشرشل ـ كان لا يتراجع مرة إلا ليرتد بعدها ـ مثل وتر القوس ـ وهو أكثر شدة وقسوة وعنفا ليكيل للبريطانيين ضربات قاصمة !

وكانت إنجلترا قد هرعت خلال العام ـ عام ١٩٤١ ـ إلى التدخل فى العراق لتحبط الانقلاب ـ الذى قام به السيد رشيد عالى الكيلانى الذى كان متهما بأنه ضالع مع المحور .

. . وتدخلت كذلك فى إيران ـ بالاتفاق مع حليفتها روسيا ـ وخلعت شاه إيران رضا بهلوى ونفته إلى جزر سيشيل .

وفى كلمة موجزة كانت أعصاب الإنجليز متوترة . . وصوابهم يكاد أن يطيش . . ما بين هزائم متوالية . . وانقلابات فى بلدان صديقة موالية .

وكانت السلطات البريطانية فى مصر تخشى أن يقع هنا انقلاب كالذى وقع فى العراق .

انقلاب يخرج به الأمر نهائيا من أيدى الساسة المصريين (أصدقاء) بريطانيا إلى أيدى الساسة المصريين خصومها الذين يعملون على إحباط مجهودها الحربى فى مصر وفى الشرق الأوسط ويمهدون لانتصار المحور .

وكانت تقارير أقلام المخابرات البريطانية كما سبق أن ذكرت تزعم أن ساسة وكبراء مصريين يترقبون الفرصة للقيام بانقلاب فى الوقت الذى يتفق عليه بينهم وبين وكلاء المحور وعيونه فى مصر . . وأن الغرض من هذا الانقلاب هو إخراج البريطانيين فى الوقت المناسب الذى يشن فيه روميل هجوما عنيفا على مصر فيضطر البريطانيون إلى توزيع قواتهم بين مصر وميدان القتال فى الصحراء الغربية . . وتضطرب خطوط التموين وتقطع خطوط المواصلات مع جبهة القتال .

كان الموقف إذن خطيرا بالغ الخطورة، وكانت السياسة البريطانية قد فقدت اتزانها وطاش صوابها وكانت تتعثر وهى تتلمس أسباب النجاة . . وكان ساسة بريطانيا وقوادها ورجال سفارتها فى مصر يشعرون أن شعب مصر يكرههم وأن عواطفه كلها مع ألمانيا وهتلر . . وكانت عيون السفارة ورجال أقلام المخابرات البريطانيون يقدمون تقارير فيها أن رواد المقاهى فى الأحياء الشعبية فى القاهرة والإسكندرية ومدن القطر يجتمعون كل مساء حول أجهزة الراديو وينصتون للإذاعات العربية من محطات المحور وخصوصا محطة برلين .

وتناقلت الألسن يومئذ نكتة أو عبارة مشهورة قالها المرحوم أحمد زيوار باشا عندما سئل عن رأيه فى الحالة . فقد قال :

ـ حالة إيه يا مونشير! شعب مصر ألمانى . . وملك مصر طليانى والحكومة إنجليزية .

أى أن عواطف الشعب مع الألمان .

والملك السابق فاروق ضالع مع الإيطاليين بحكم نشأة أبيه والصداقة الموروثة والحاشية الإيطالية التى تحوطه . . بينما الحكومة تتعاون مع الإنجليز !

* * *

كان الإنجليز يدركون هذا ويشعرون أن المصريين ضدهم . . والملك فاروق ضدهم .

وأن هناك «نشاطا محوريا» ـ كما وصفوه ـ يقوم به نفر من كبار المصريين فى مصر وفى خارج مصر . . وأن هناك اتصالات سرية تجرى بين السلطات المصرية

العليـا ـ أى فـاروق ورجـالـه ـ وبين السلطات العليـا فى برلين . . وأن بين الذين يقـومـون بهـذه الوسـاطة ويسـهلون هذه الاتصـالات وزير تركيـا المفـوض فى مـصـر شوقى الهـان . . والآنسة بدروزو الملحقة بالمفوضية الإسبانية ومسيو بوتزى وزير حكومة فيشى المفوض فى مصر .

وأن هناك خطة مرسومة لإحداث انقلاب فى مصر عندما يشدد روميل هجومه على مصر .

* * *

كـانت هـذه حـال البـريطانيين وكـان هذا موقـفـهم . . والمعلومات التى تجـمعت لديهم .

ومن ثم كانوا يوجسون شرا ويخشون أن يقع فى مصر ما سبق أن وقع فى العراق وأن يفاجأوا فى ساعة الخطر ـ هجوم روميل ـ بوقـوع انقلاب فى مصر يتـولى على إثره الحكم أحـد السـاسة الموالين للمحـور ذوى «النشـاط المحـورى» الذى سبق أن أشرت إليه .

وكـان الإنجليـز يرون أن الحل الوحـيـد لعـلاج الموقـف هو أن يتـولى الوفـديون الحكم . . وهو ما سبق أن أشاروا به فى صيف عام ١٩٤٠ ثم عادوا وأشاروا به بعد وفاة المرحوم حسن صبرى باشا . . ولكن مشورتهم لم يعمل بها فى المرتين .

وكـان الاعـتقـاد السـائد فى لندن وفى الدوائر البـريطانية فى القـاهرة أن «رفـعـة» مصطفى النحاس باشا هو وحده الزعيم الشعبى القـادر على «تحويل الدفة» . . دفة عواطف الشعب . . من الاتجاه إلى ألمانيا إلى الاتجاه إلى بريطانيا وحلفائها !

* * *

ومـرت شـهـور الصـيـف . . والخـريف . . وأقـبل الشـتـاء . وبدأ روميل يتـحـرك بجيوشه فى الصحراء الغربية صوب مصر .

واستعرض الإنجليز الموقف فإذا به :

الملك ضدهم .

والشعب المصرى أو الرأى العام فى مصر ضدهم .

وحزب الأغلبية الشعبية ـ أى الوفد ـ ضدهم بعد خطبة النحاس باشا المشهورة فى رأس البر . وأنه ـ أى الوفد ـ ينتظر من فاروق ـ ومن يوم لآخر ـ أن يعيده إلى الحكم .

وكان الإنجليز ـ طبعا ـ يعرفون جميع الخطوات التى تمت من أجل عودة المياه إلى مجاريها بين الملك فاروق وحزب الأغلبية الوفدية ، ومن هنا قدرت السياسة البريطانية أنه إذا تولى الوفد الحكم فسوف يتولاه وهو يشعر بأنه مدين بهذا (الفضل) لفاروق !

فاروق الذى كان ممالئا أو نصيرا لسياسة المحور . . وأن الوفد والحالة هذه سوف يسير على نفس السياسة أى سياسة العداء لبريطانيا وممالأة أعدائها دول المحور !

وأسرع الإنجليز وانتهزوا فرصة حوادث آخر يناير ١٩٤٢ ـ أزمة فيشى واستقالة وزارة حسين سرى باشا ـ أسرعوا وضربوا ضربتهم التى فرقوا بها بين الملك والوفد . . وكسبوا فيها الوفد وأغلبيته إلى جانبهم .

وفى غداة حادث ٤ فبراير . هتف الشعب ـ شعب الوفد ـ لسفير بريطانيا وهو فى طريقه إلى رياسة مجلس الوزراء .

وهتف وصفق له طويلا عند ما أطل عليه السفير سير مايلز لامبسون وإلى جانبه رئيس الوزراء مصطفى النحاس باشا من شرفة رياسة مجلس الوزراء !

وأحس الوفديون يومئذ أنهم مدينون فعلا (بالفضل) . . فضل توليهم الحكم ـ بعد حرمانهم منه زهاء أربع سنوات ـ مدينون بهذا (الفضل) لبريطانيا وسفيرها سير مايلز لامبسون . . لا لفاروق أو أحمد حسنين !

* * *

وكانت أكبر هزيمة منى بها حسنين فى حياته السياسية ، فقد ترك الإنجليز يسبقونه وينتزعون من بين يديه النحاس والوفديين .

وقال لى يوم قابلته بعد حادث ٤ فبراير بثلاثة أيام :

القلم كان جامد يا محمد . . لسه بيرن على صدغى . . شغل ثمانية أشهر راح فاشوش .

وكان يقصد مساعيه من أجل عودة الوفد إلى الحكم . . ولكن لا بهذه الطريقة بل بالطريق الشرعى السليم .

وتنهد حسنين وقال :

ـ آه لو كنت قابلت ليتلتون قبلها ولو بأربع وعشرين ساعة بس . . ما كنش حصل حاجة من دى .

وحدثنى طويلا عن تفصيلات الحادث والإنذارات التى سبقته وعن اجتماعات الزعماء فى قصر عابدين ثم محاصرة الدبابات البريطانية للقصر وحضور السفير مايلز لامبسون . . . إلخ .

ولقد خرجت يومئذ من هذا الحديث بهذا الأثر وهو أن حسنين كان لا يزال حائرا لا يعرف كيف وقعت هذه الضربة . . ولا من أين جاءت ، هل من السفير . . أو من مستر ليتلتون وزير الدولة؟ وهل النحاس باشا برىء ـ كما يقول ـ من تبعة هذا الحادث ومن الاشتراك فى تدبيره؟ وإذا كان هو بريئا فهل مكرم وأمين عثمان بريئان كذلك . . أم تراهما مع الإنجليز من وراء ظهر مصطفى النحاس . . إلى آخره . . ؟

كان حسنين لا يزال حائرا يوم قابلته عقب الحادث فى يوم ٧ فبراير . . ولكنه عاد بعد أيام وفى مقابلة أخرى وقال إنه اقتنع بأن النحاس ومكرم بريئان وأنه أفلح فى إقناع فاروق بذلك .

ولكننى أتساءل اليوم ـ وفى ضوء تصرفات حسنين التالية مع مصطفى النحاس ـ أتساءل هل كان حسنين قد اقتنع حقا ببراءة النحاس أو أنه قال لى هذا الكلام لكى أنقله إلى مصطفى النحاس فيطمئن إلى حسنين ولا يأخذ منه حذره؟

وأخرج من هذا السؤال أو هذا التساؤل بحقيقة قررها ويشهد كثيرون على صحتها وهى أن حسنين باشا ـ رحمه الله ـ أقسم بعد حادث ٤ فبراير على الانتقام من مايلز لامبسون ومن مصطفى النحاس .

والقسم على الانتقام من رئيس الوفد ينهض دليلا على أن حسنين لم يكن يؤمن ببراءة مصطفى النحاس .

ولكننى أترك المنطق والاستنتاج وأروى حديثه أو أحاديثه كما سمعتها منه .

* * *

فى حديث له أفضى به إلىّ فى جلسة لنا بداره فى مساء ٢٧ مارس عام ١٩٤٢ قال : إن فاروق قال له عقب الحادث مباشرة : «حصل اللى حصل وعلى كل حال أنا أعطيت النحاس كلمة أني سوف أساعده . . وجم الحكم خلاص ولازم أشتغل معاهم» .

قال حسنين :

ـ وكان على بصفتى رئيسا للديوان أن أقيم سياستى على هذا الأساس . . وهو التعاون مع حكومة الوفد . . والتعاون مع السلطة التى جاءت بها إلى الحكم أى الإنجليز . . وأن أنسى عواطفى الشخصية .

وأشهد أنه قال هذه العبارة بمرارة فلم تكن الهزيمة أمرا سهلا على حسنين وأية هزيمة أكبر وأشنع من هزيمته السياسية فى حادث ٤ فبراير . . وهو الذى طالما باهى وفاخر بانتصاره على السفير لامبسون وكيف كسب منه الجولة يوم فاجأه بوزارة حسن صبرى باشا .

ويوم كسب منه الجولة الثانية يوم واجهه بالأمر الواقع ووزارة حسين سرى . . وها هو ذا السفير مايلز لامبسون يكسب الجولة الأخيرة الحاسمة ويفاجئه بالدبابات تحيط بالقصر . . وبوزارة الوفد بفرضها على فاروق فرضا وإلا . .

وزاد فى مرارة حسنين، وفى حدة شعوره بالهزيمة، علمه أن الشامتين فيه كثيرون . . وأن الساخرين منه ومن سياسته قد أطلقوا فيه ألسنتهم فى كل ناد ومجلس . . وأن خصومه فى داخل القصر وفى خارج القصر قد بدأوا يستخفون به ولا يبالون أن يعلنوها صراحة أنه ـ أى حسنين ـ لا يصلح لمنصب رئيس الديوان . . وأن أحدهم وهو على ماهر باشا ـ قد سأل بعض أصدقاء حسنين بلهجة اصطنع فيها الدهشة والعجب . . كيف أن حسنين باشا لم يستقل من منصبه حتى الآن؟

ويستطيع القارئ أن يدرك من هذه التفصيلات أن حسنين باشا لم يكن شريكا في جريمة تدبير حادث ٤ فبراير . . ولم يكن مطية للسفير أوغيره من الإنجليز . . بل كان ضحية من ضحايا الحادث الشنيع المشئوم . . وأن كل ما قيل عن تآمره مع الإنجليز في الحادث المذكور كان محض افتراء أذاعه عنه الحاقدون المغرضون . . وأمشي الآن في سرد الحوادث كما رواها لي أحمد حسنين . . ولقد أتفق معه على ترتيب الوقائع ولكني أختلف معه قطعا في الأسباب والنتائج .

ومن ذلك .

قال لي رحمه الله :

- . . . ورغبة مني في تصفية الجو بين الملك والوزارة وتحسين العلاقات بينهما سعيت عند الملك حتى وافق على مقابلة مكرم وأمين عثمان . . وذلك لكي يعرف البلد أن الملك لا يكره مكرم أو أمين عثمان كما يذاع ويشاع . . ولأننا كنا جميعا نعرف أن مكرم باشا هو ذراع النحاس اليمني ومستشاره في الشئون الداخلية والمالية . . وأن أمين عثمان هو ذراعه اليسرى ومستشاره في الشئون الخارجية فكان من المرغوب فيه والحالة هذه أن توثق علاقتنا بهاتين الذراعين أو بالرجلين المقربين إلى رئيس الحكومة . . وهكذا طلبت من مكرم باشا أن «يلتمس» مقابلة جلالة الملك لسبب ما . . وسألني مكرم «سبب زي إيه؟» . . وسكت مكرم قليلا ثم قال :

- وجدت السبب . . لقد أعددنا أوراق نقد جديدة وأحب أن أعرض الرسم الجديد على جلالة الملك قبل البدء في طبعها .

قلت : عظيم . . والسبب وجيه .

وتمت المقابلة فعلا . . وقد نجح مكرم باشا واستطاع أن يكسب عطف الملك وخصوصا بعد أن قال له : أنا أعرف يا مولاي أن من السهل جدا مهاجمتي وتحميلي مسئولية كل ما يقع من الوفد . . وأنا والله شهيد . . برىء .

وكذلك تمت مقابلة الملك بأمين عثمان . . ولكن المقابلة لم تنجح .

الخلاف بين مصطفى النحاس ومكرم عبيد

إذن . . فإن حسنين السياسى الداهية يزعم أنه سعى لدى فاروق حتى أقنعه بالموافقة على مقابلة عبيد رغبة منه فى «تصفية الجو وتحسين العلاقات بين الوفد وفاروق» .

هذا ما قاله أو ما زعمه حسنين غفر الله له .

والحقيقة أن غرض حسنين كان أبعد ما يكون عن الصفاء والوئام والسلام .

لقد كان غرض رئيس الديوان ـ فى تنفيذ أو تحقيق سياسة الانتقام من مصطفى النحاس ـ كان غرضه أن يوقع بين النحاس ومكرم وبين النحاس وأمين عثمان . . أو بعبارة أخرى أن ينتزع من رئيس الوفد ذراعيه الاثنتين اللتين يستند إليهما فى إدارة شئون البلاد : الداخلية والخارجية .

ويا له من انتصار يمحو عار هزيمة ٤ فبراير يوم ينجح حسنين فى ضم مكرم وأمين عثمان إلى جانب القصر . . ضد الوفد ومصطفى النحاس .

أو على أقل القليل يوم يستطيع أن يستغل نفوذ مكرم عند النحاس فى تحقيق أغراض السراى والموافقة على طلباتها . . ويوم يستطيع أن يستغل حظوة أمين عثمان عند الإنجليز فى إقناعهم بتعديل سياستهم الجافة أو موقفهم المتعنت المتشدد من القصر .

كان هذا هو الغرض الحقيقى من هذه الخطوة التى خطاها حسنين وجمع فيها بين فاروق ومكرم . . وبينه وبين أمين عثمان .

ولقد نجح فوق ما كان يأمل . . ويوم عرف مصطفى النحاس أن السراى قد

حددت موعدا يتشرف فيه معالى وزير المالية مكرم عبيد باشا بمقابلة جلالة الملك فاروق . . قال النحاس باشا لجلسائه : «أنا عارف إنهم عايزين يفرقوا بينى وبين مكرم» .

ثم عاد وقالها لمكرم نفسه . قال : «يا مكرم خد بالك . . عاوزين يفرقوا بيننا» .

ومشت الحوادث سريعة تلهث . خرج مكرم باشا من مقابلة فاروق مغتبطا مسرورا واتصل به زميل كان يعمل فى «الأهرام» وسأله عن المقابلة وما دار فيها وأثرها فى نفس «معاليه» . . وكان اتصاله بناء على إيحاء من حسنين باشا وكان مكرم كما قلت مغتبطا مسرورا ومن هنا أفاض فى وصف العطف السامى الكريم الذى لقيه إلى آخره .

وقال مكرم باشا إنه سيملى الجريدة تصريحا مكتوبا .

وكان هذا هو الفصل الثانى فى المؤامرة أوالشباك التى نصبها أحمد حسنين لمصطفى النحاس ومكرم عبيد ولم تكن العادة قد جرت بأن يخرج الوزير - أى وزير من مقابلة الملك ، أى ملك فى أى بلد - ويصف المقابلة فى مقال ينشر فى الصحف .

ولكن هذا هو ما حدث . . فقد طلعت جريدة «الأهرام» فى عددها الصادر بتاريخ يوم الجمعة ١٣ مارس عام ١٩٤٢ وفيها الكلمة أو المقال الآتى .

وزير المالية
فى الحضرة الملكية

تشرف معالى الأستاذ مكرم عبيد باشا وزير المالية بمقابلة صاحب الجلالة الملك بعد ظهر أمس فعرض على المسامع الملكية بعض الشئون المالية والاقتصادية فلقى من لدن جلالته كل عطف ورعاية وقد أفضى معاليه إلى مندوب «الأهرام» بالتصريح الآتى :

«تشرفت مساء أمس بمقابلة جلالة المليك المحبوب . . وعرضت على مسامعه الكريمة أهم شئون التموين والسياسة التى ندرسها الآن تمهيدا لإقرارها وتطبيقها

على محصول القمح الجديد، كما عرضت على جلالته بعض التعديلات فى الميزانية التى أعتزم عرضها على مجلس الوزراء وفى مقدمتها المشروع الذى يرمى إلى تخفيف الأعباء المالية عن صغار الفلاحين والمزارعين . . ورفع مستوى معيشتهم وغير ذلك من المشاريع التى تؤدى ـ أو أرجو أن تؤدى ـ إلى موازنة الميزانية موازنة حقيقية لا حسابية بحيث لا تهمل المشاريع الحيوية ويكون جباية المال وإنفاقه فى حدود العدالة الاجتماعية .

ثم تشرفت بعرض ما تم فى مسألة القطن والحبوب ومبلغ ما وفقت إليه حكومة جلالته فى هذا الصدد . . بالتعاون مع الدولة الحليفة .

وأطلعت جلالته على نموذج من أوراق النقد الجديدة . . التى لوحظ فى طبعها وإعدادها تعذر تزييفها . فنالت رضاءه السامى .

وقصارى القول . . فقد تناول حديثى فى حضرة جلالته . . حالة البلاد المالية من مختلف وجوهها ـ وهى حالة ـ بفضل الله مرضية ـ ولقيت من جلالته لا مجرد عطف فحسب أو تشجيع فحسب مما ألهج لسانى بالشكر والحمد ـ بل لقيت ما هو أعظم من ذلك وأهم فقد لقيت اطلاعا واسعا . . وإرشاداً نافعا ونظرة دقيقة وعميقة إلى جوهر المسائل المعروضة رغم تباينها وبعد نواحيها . فلم ألبث طويلا حتى أدركت أن ملكنا الشاب قد ملك زمام الأمور . بفضل ما أوتى من رجولة مبكرة وخبرة منوعة نادرة . قلما أتيحت لملك من الملوك .

ولذلك لم يلبث الحديث طويلا حتى انتقلت دفته إلى يديه الكريمتين فكان ينتقل من موضوع إلى آخر ومن نصح إلى نصح . فى عطف ووداعة . وصراحة أخاذة ونفاذة معا .

وغاية القول أنه قد أتيح لى فى هذه المقابلة الملكية السامية أن أعرف الرجل الملك فكان الرجل فى رجولته لا يقل جلالة عن الملك فى مملكته وقد تفضل جلالته فأكد لى فى بساطة وديمقراطية أنه ملك للجميع . لا يفرق بين طوائف . . أو أحزاب أو طبقات فى شعبه الوفى . وقد خرجت من لدنه وهذا اعتقادى . . بل ويقينى .

* * *

وكان النحاس باشا يقيم هو والسيدة حرمه فى جناح خاص بفندق مينا هاوس

وتصادف أننى ذهبت أزوره فى مساء نفس اليوم الذى ظهرت فى صباحه كلمة الأستاذ مكرم عبيد بجريدة الأهرام.

وبينما نحن نتحدث دق جرس التليفون الموضوع فوق مائدة صغيرة بجوار «رفعته» وكان المتكلم الأستاذ مكرم عبيد وكان يتكلم من مدينة المنيا.

وفهمت من الحديث الذى دار بينه وبين السيد مصطفى النحاس أن مكرم كان قد سافر فى صباح نفس اليوم إلى المنيا لكى يسوى خلافا خاصا بترشيحات الوفد لانتخاب مجلس النواب وكان الخلاف بين مرشحين وفديين أحدهما الأستاذ إبراهيم الشريعى.

وبينما كان مكرم يتحدث.. ولم أسمع حديثه طبعا وإن أكن قد فهمت بعض ما قاله من تعليق أو رد مصطفى النحاس.. أقول بينما كان يتحدث قاطعه النحاس وهو يقول:

ـ لكن سيبك من ده كله وقول لى إيه الكلام ده يا مكرم اللى أنت كاتبه فى أهرام النهاردة؟!

ويظهر أن مكرم باشا أبدى دهشته أو عجبه من استنكار النحاس باشا أو قال ما معناه إنهم جميعا يقولون مثل هذا الكلام عن الملك فى كل يوم.. لأن النحاس باشا قال:

ـ أيوه لكن لما أقوله أنا بأقوله فى مقابل شىء.. بأقوله وآخد حاجة فى مقابل كده.. لكن إنت تقوله ليه؟! ثم علشان إيه ما عرضتوش علىّ قبل نشره؟! دى غريبة.. لأنك دائمًا بتاخد رأيى فى أحاديثك وتصريحاتك قبل نشرها اشمعنى المرة دى لا..؟!

ويظهر أن مكرم قال إن الساعة كانت متأخرة وأنه لم يرد إزعاج «رفعته» أو إيقاظه من نومه.. لأن النحاس باشا قال:

ـ يعنى إيه.. عايز تقول إنك كتبت الكلام ده نص الليل.. وقبل كده ماكنتش لسه كتبت حاجة؟!

* * *

وانتهت المحادثة بين الصديقين . . رئيس الوفد وسكرتير الوفد، وكانت لهجة الحديث فى نهايته قد اشتدت واحتدت .

ولاحظت عندما أنهى النحاس باشا الحديث وأعاد سماعة التليفون إلى مكانها أن علامات الغضب كانت مرسومة واضحة على وجهه وفى عينيه . . وقال «رفعته» :

ـ ده كلام ما يكتبوش إلا العبيد . . أقول إيه للإنجليز اللى جابونا علشان نقف فى وشه «يقصد الوقوف فى وجه فاروق»؟ أقول لهم إيه؟ أقول لهم بعد جمعة والتانية بقينا أمامه عبيد نتكلم عنه بلهجة العبيد . . ؟!

* * *

ولم يكن أحمد محمد حسنين سبب الخلاف بين رئيس الوفد وسكرتير الوفد السيد مصطفى النحاس والأستاذ مكرم عبيد . . ولكنه كان أحد الذين عملوا بمهارة «وشطارة» على توسيع شقة الخلاف .

وكان حسنين ـ كما سبق أن ذكرت ـ قد أقسم بعد حادث ٤ فبراير على الانتقام من مصطفى النحاس . ومن هنا سعى إلى إضعاف مصطفى النحاس ـ ولا أقول هدمه ـ عن طريق التفريق بينه وبين أخلص صديق له وأقوى أعضاء الوفد نفوذا وأقربهم إلى قلب الشعب وهو مكرم عبيد .

وما من شك فى أن الخلاف بين الصديقين القديمين والذى انتهى إلى خروج أو إخراج مكرم عبيد من الوفد ثم هجومه وحملاته الشديدة على مصطفى النحاس . . ما من شك فى أن هذا كله كان ضربة قاسية للوفديين عامة ولمصطفى النحاس بوجه خاص .

أما عن أسباب الخلاف الأصلية أو الأصيلة . . فقد قال لى الدكتور محمد صلاح الدين الذى كان من أخلص الوفديين لمصطفى النحاس وكان أقربهم إليه وكان موضع ثقته والذى عهد إليه النحاس باشا بمنصب وزير الخارجية فى وزارة الوفد فيما بعد قال لى ذات يوم أثناء الخلاف بين مكرم ومصطفى النحاس :

ـ إن مصطفى باشا بحكم طبيعته لا بد أن يسيطر عليه شخص ما . . ولقد كان

هذا الشخص فى وقت ما هو مكرم عبيد . . أما الآن فإنها زوجته زينب هانم التى تسيطر عليه وتسيره كما تريد.

ـ ثم قال:

ـ وزينب هانم تتدخل الآن فى شئون الحكم ومع ذلك فقد كانت قالت لى فى أول أسبوع من قيام هذه الوزارة كلامًا سررت منه جدا وتفاءلت منه خيرا . . قالت لى: «لازم نتعظ بأخطاء الماضى ونمشى فى الحكم كويس. وأنا سأستعمل نفوذى عند الباشا ـ تقصد زوجها ـ من أجل هذا» . . ولكنها للأسف سرعان ما نسيت وعدها وعملت على العكس.

* * *

إذن . . فقد كان مكرم عبيد صاحب السيطرة والنفوذ . . إلى أن زحزحته أو أزاحته السيدة زينب الوكيل . .

وكان طبيعيا أن تتطور المنافسة بين الاثنين إلى عداء أو ما يشبه العداء . . وأن يطلق كل من الاثنين لسانه فى صاحبه.

وامتلأت المجالس والأندية بالإشاعات «والتشنيعات» وسمع الجمهور لأول مرة أن السيدة حرم رئيس الوفد ورئيس الوزراء تستغل نفوذ زوجها ونفوذ الوزارة من أجل الثراء السريع . . وأنها ليست وحدها بل ومعها عدد من أقاربها وأصهارها.

وعرف النحاس باشا والسيدة حرمه أن مكرم عبيد وأقاربه وأنصاره هم مصدر هذه الإشاعات.

وسمع الناس أن مكرم باشا يقول فى مجالسه الخاصة إن زينب هانم تحاربه بسبب نزاهته ولأنه ـ وهو وزير المالية ـ رفض أن يوافق على طلباتها وطلبات شقيقها السيد أحمد الوكيل الخاصة بأذونات التصدير والاستيراد.

وهذا فضلا عن الخلاف الذى شجر حول الاستثناءات والترقيات والعلاوات.

وأحب أن أعفى قلمى هنا من الخوض فى حديث الفساد واستغلال النفوذ وما قيل يومئذ، وبعدئذ . . فما أظن أن قلمى أو أى قلم آخر يمكنه أن يكتب اليوم أكثر

مما كتب أو يقول اليوم شيئا جديدا لم يسبق قوله ونشره . . ولكنى حريص مع ذلك على تقرير حقيقة منصفة وهى أن الأستاذ مكرم عبيد سبق أن دافع دفاعا بليغا قويا عن الاستثناءات والترقيات فى عام ١٩٣٧ . . فما باله يحاربها فى عام ١٩٤٢ .

الحقيقة المنصفة هى أن السيدة حرم النحاس باشا وأقاربها أرادوا أن يحملوا نزاهة مكرم عبيد فوق ما تطيق .

أنا شخصيا أعتقد أن مكرم باشا لم يكن ليمانع أو يعارض كثيرا أو طويلا فى إجابة بعض الطلبات الصغيرة التى - مع مخالفتها للقوانين - لا تثير ضجة وقالا وقيلا . . وذلك حرصا منه على رضاء صديقه النحاس باشا . . وثمنا لسكوتها عنه أو تأييدها له عند زوجها . . ولقد سبق أن تساهل أو أغمض عينيه .

ولكنه فى هذه المرة وجد أن المطلوب منه - أو الحمل على نزاهته - ثقيل وفوق ما تطيق . . فرفض .

ثم تشدد بعد أن اشتد الخلاف وراح يتعنت ويرفض الطلب الصغير اليسير كما يرفض الموافقة على الطلب الكبير الخطير .

أى أن الأمر كله أصبح بين السيدة حرم رئيس الوفد والوزراء ومكرم عبيد نوعا من العناد .

* * *

هذا سبب . .

وسبب آخر وهو أن كثيرين من أعضاء الوفد كانت صدورهم ضاقت بالنفوذ الأكبر الذى يتمتع به «زميلهم» مكرم عبيد دونهم جميعا عند «رئيسهم» مصطفى النحاس وبالسلطات الواسعة التى كانت له فى كل شأن من شئون الوفد وخصوصا بعد خروج أحمد ماهر والنقراشى من الوفد .

هؤلاء الأعضاء رأوا أن الخلاف بين زينب هانم ومكرم عبيد فرصة طيبة أو فرصة سانحة يحسن بهم أن ينتهزوها لكى يتخلصوا من مكرم عبيد ومن نفوذه الطاغى فى الوفد . . أو كما قال لى أحدهم : «نريد أن نكون أرقاما صحيحة . . لا أصفار إلى اليسار» .

وقال لى الدكتور محمد صلاح الدين أثناء الخلاف: «إن صبرى باشا أبو علم ونجيب باشا الهلالى يعملان على توسيع شقة الخلاف بين مصطفى باشا ومكرم باشا.. وليس هناك من يعمل معى على تسوية الخلاف سوى الأستاذ محمود سليمان غنام».

وتناول الأستاذ فؤاد سراج الدين العشاء معى مرة فى مسكنى.. وكنا وحدنا.. وكان يومئذ وزيرا للزراعة.. وسألنى.. «إيه رأيك فى فصل مكرم باشا من الوفد؟».

وقبل أن أجيب مضى يقول:

ـ أظن أن الأحسن فصله دلوقت.. لأن الخلاف استفحل ومستحيل بعد كده تصفى القلوب.. أو يتصالح تانى مع مصطفى باشا وزينب هانم.. وإذا فصلنا مكرم دلوقت مش راح يقدر يعمل حاجة لأن الوفد فى الحكم وتحت يدنا الرقابة.. لكن إذا سبناه جايز نخرج من الحكم.. ويخرج هوه بعدها علينا ويحاربنا.

* * *

وهكذا.. السيدة حرم رئيس الوفد تحارب مكرم وتعمل على خروجه أو إخراجه من الوزارة والوفد.. وكل من فى الوفد أو معظم أعضاء الوفد يعمل كذلك على إخراج مكرم عبيد.

وكذلك «القصر» أو الرجل الأول فى القصر ورئيس الديوان أحمد محمد حسنين.. أسباب وعوامل تضافرت جميعا على التفريق بين الصديقين الحميمين القديمين النحاس ومكرم عبيد.

* * *

وكانت الوزارة قد تقدمت بطلب عدد من الاستثناءات والترقيات لبعض الموظفين الوفديين الذى اضطهدوا ـ كما قالت الوزارة ـ فى عهد الوزارات غير الوفدية.

ورفض وزير المالية ـ مكرم عبيد ـ الموافقة على هذه الطلبات.. ولما راجعه رئيس الوزارة مصطفى النحاس فى الأمر أحال مكرم المسألة كلها على اللجنة المالية.

وطال الأخذ والرد . . وتطور الخلاف فى الرأى إلى أزمة . . كل هذا وعوامل التفريق التى أشرت إليها تسعى وتعمل .

وفى مساء ١٨ مايو ١٩٤٢ أقمت فى دارى حفلة بمناسبة عيد مولدى وغنت فيها أم كلثوم .

وكان بين المدعوين الأساتذة صبرى أبو علم ونجيب الهلالى وأحمد حمزة ودكتور محمد صلاح الدين وعدد من الشيوخ والنواب الوفديين وبعض الزملاء الصحفيين ومنهم أنطون الجميل ومحمود أبو الفتح ومصطفى أمين وعلى أمين وحسن الأعور وكان يومئذ مديرا لمكتب وزير المالية الأستاذ مكرم عبيد .

ولاحظت أثناء السهرة «حركة» أو نشاطا بين بعض المدعوين . . لاحظت مثلا أن محمود أبو الفتح تكلم بالتليفون بصوت خافت مرة أو مرتين .

وأن حسن الأعور وعلى أمين اختليا فى غرفة مكتبى بمكرم باشا . . وأخيرا عرفنا أن مكرم كان أرسل إلى جريدة المصرى بصورة من المذكرة التى وضعتها اللجنة المالية وفيها قرارها برفض جميع الاستثناءات .

وأن جريدة المصرى أدركت خطورة نشر هذه المذكرة ـ لأنها تخالف رأى الوزارة ورأى رئيسها مصطفى النحاس ـ فاتصلت بصاحبها الأستاذ محمود أبو الفتح فى مسكنى .

وأراد الأستاذ أن يتخلص من مسئولية إبداء رأيه فطلب من جريدته أن تعرض المذكرة على الرقيب «وكانت الرقابة مفروضة يومئذ على الصحافة بحكم حالة الحرب» .

وسمع مكرم باشا بهذا كله فثار وهاج وتساءل منذ متى كان للرقابة سلطان على الوزراء وما يريد الوزراء نشره . . ؟

واتصل مكرم باشا بالتليفون بالأستاذ محمود سليمان غنام الذى كان موكولا إليه أمر الإشراف على شئون الرقابة وأبلغه أنه سوف يستقيل من الوزارة إذا لم تنشر جريدة المصرى المذكرة كما هى .

وكان سليمان غنام كما سبق أن قلت أحد القليلين الذين كانوا يسعون لتسوية

الخلاف بين النحاس ومكرم . . ولقد خشى أن ينفذ مكرم وعيده ويستقيل فأذن بنشر المذكرة .

سمعنا أثناء السهرة بهذا كله فأشفقنا من عواقب النشر . . وراح على أمين وحسن الأعور يرجوان الأستاذ مكرم عبيد أن يعدل عن نشر المذكرة حتى لا يثير نشرها مصطفى النحاس .

إلى آخره . . إلى آخره . . وخرجت «المصرى» فى الصباح وفيها مذكرة اللجنة المالية ومكرم عبيد برفض طلبات الاستثناءات .

وكانت القاضية على كل أمل فى الصلح أو تسوية الخلاف . وثار مصطفى النحاس وأعلن أنها مؤامرة ضده وضد الوزارة وأن صاحب المصرى محمود أبو الفتح شريك فى المؤامرة ولا بد من «شلحه» من الهيئة الوفدية وإصدار قرار من الوفد بأن المصرى لم يعد يعبر عن رأى الوفد . . وكان هذا القرار يومئذ شبيهًا بقرار الحرمان الذى يصدره بابوات روما ضد المغضوب عليهم من أعداء الكنيسة .

واختفى محمود أبو الفتح بضعة أيام . . ريثما تهدأ العاصفة وثورة «الرئيس الجليل» ثم عاد من مخبئه وذهب وقابل النحاس باشا . وكانت أول مرة يلقاه فيها بعد نشر المذكرة وكان النحاس باشا هائجا ثائرا ضده وقال :

ـ أرجو من رفعتك أن تطول بالك شوية . . وأن يتسع حلمك لما أقول . .

وقال النحاس باشا ساخرا :

ـ حلمى ياسى محمود . . طيب قول ياسى محمود .

وقال محمود أبو الفتح :

ـ ما هو أساس حملة التشهير التى يقوم بها مكرم باشا ضدك؟ أليس أساس هذه الحملة المحسوبية التى يزعم أن أقارب رفعتك يتمتعون بها؟ أليست الاستثناءات التى يرفضها ويجعل منها أساسا لحملة التشهير؟ أليست مطلوبة لأقارب وأنصار رفعتك؟ وأليس شقيقى متزوجا من بنت شقيق رفعتك؟

ألسنا إذن من أقارب رفعتك المقصودين بالتشهير؟ فكيف إذن يخطر ببال رفعتك

أننى أتآمر ضدك مع مكرم باشا؟ ثم إذا انهار مصطفى النحاس وضاع نفوذه ألا ننهار نحن أيضا معه ونفقد نفوذنا؟! إننا الآن نستمد جاهنا من جاهك فإما ارتفعنا معك وإما سقطنا معك، فكيف إذن يمكن أن أعمل عملا يؤذى أو يحط من قدر رفعتك؟! ورفعتك تعرف أن مكرم عدوى وأنه يكرهنى وكان دائمًا يشككم فى وفى إخلاصى لكم وفى ولاء المصرى لرفعتكم. وأنا لم أنشر المذكرة إلا كارها وقد رفضت نشرها ولكن إزاء إلحاحه أحلت الأمر على الأستاذ غنام فصرح بالنشر.. ولما انتهى الأستاذ محمود أبو الفتح من دفاعه قام النحاس باشا وضمه إلى صدره وتعانقا.

* * *

وأقف هنا قليلا لأتساءل مرة أخرى: لماذا نشر محمود أبو الفتح هذه المذكرة مع علمه بخطورة ووخامة العاقبة؟

وإذا كنت ألح فى هذا السؤال؛ فذلك لأن المذكرة كما وصفتها ـ كانت القاضية.. وكانت السبب المباشر لإخراج مكرم عبيد من الوزارة أولا.. ثم إخراجه من هيئة الوفد ثانيا.

لقد قرأتم دفاع الأستاذ أبو الفتح عن نفسه وهو دفاع ضعيف عند الذين يعرفون الحقائق، وكان من السهل جدا على صاحب «المصرى» أن يرفض نشر المذكرة بعد أن رفض الرقيب إجازة النشر. أما اعتذار أبو الفتح بأن الأستاذ سليمان غنام أجاز النشر فمردود عليه بأنه لم يسمح بالنشر إلا لكى يحول دون استقالة الأستاذ مكرم عبيد.

فهل كان الأستاذ أبو الفتح حريصا مثله على عدم استقالة مكرم عبيد.. بالعكس كما سترون مما يأتى.. ثم لماذا لم يختصر الأستاذ أبو الفتح ليلتذ الطريق ويتحدث مباشرة بالتليفون مع النحاس باشا ويعرض عليه الأمر.. وإذنً لكان سمعها من رئيس الحكومة ورئيس الوفد حاسمة قاطعة بعدم نشر المذكرة.. ولكنه لم يفعل.. واستتر وراء الأستاذ غنام!

ومرة أخرى لماذا نشر المذكرة؟هل مراعاة أو مجاملة لمكرم عبيد..؟ هذا احتمال ولكنه كما سترون أضعف الاحتمالات.

أم لأنه كان يعلم أن نشر المذكرة سوف يوسع الهوة بين مصطفى النحاس ومكرم عبيد ومن هنا نشرها لكى تكون القاضية؟

وهذا هو الاحتمال الراجح. . لأن أصدقاء أبو الفتح كانوا يعرفون يومئذ أنه حانق مغيظ لعدم دخوله الوزارة. . وقد كان أذاع أو أذاع له بعض أصدقائه وبعض الصحفيين ـ وألمحوا إلى الخبر فعلا فى صحفهم ـ أنه سوف يدخل الوزارة.

وفى هذا سألت مرة الأستاذ فؤاد سراج الدين ـ وكنا فى النادى الأهلى ـ فقال وهو يضحك:

ـ ويتصدق برضه الكلام الفارغ ده. . طيب دحنا رفضنا أن نرشحه وكيلا لمجلس الشيوخ فكيف إذن نقبل دخوله معنا فى الوزارة؟

إذن فقد كان فؤاد سراج الدين أحد الذين عارضوا فى ترشيح صاحب المصرى لكرسى الوزارة. . ولكن الأستاذ أبو الفتح لم يكن يعرف هذه الحقيقة. بل كان يعتقد أن الذى عارض فى دخوله الوزارة هو الأستاذ مكرم عبيد. . ومن هنا نشر المذكرة لكى تكون القاضية على كل أمل فى تسوية الخلاف بين مصطفى النحاس ومكرم عبيد. . هذه هى الحقيقة.

وأكثر من هذا. .

قال لى الأستاذ الشافعى البنا ـ رحمه الله ـ إنه كان فى وقت ما رئيسا لتحرير جريدة المصرى أيام كان الوفد فى المعارضة. . وكان يحدث أن يطلب الوفد نشر مقال معين فى موضوع معين. . وكان أبو الفتح يماطل فى نشر المقال إما خوفا من أن تبطش الحكومة القائمة «بالمصرى». . وإما لأن له مصلحة معينة فى عدم النشر وكان سكرتير الوفد مكرم عبيد يتكلم بالتليفون ويلح فى نشر المقال ثم يهدد ويتوعد ويقول «قولوا للأستاذ أبو الفتح إنه إذا لم ينشر المقال غدا فى المصرى فإن الوفد سوف يصدر بيانا يعلن فيه أن جريدة المصرى لا تعبر عن رأى الوفد».

وكنت أشفق من عواقب هذا التهديد وأذهب إلى أبو الفتح أرجوه أن ينشر المقال المطلوب، فكان يبتسم ويقول «ماتخافش» بس سيبنى أنا. . بكره يشتمونا شتمتين ويزعلوا منا يومين وبعدها الحكاية تفوت».

وحكاية أخرى.

قال لى الأستاذ فؤاد سراج الدين فى نفس المعنى ونفس الموضوع إنه حدث مرة وكان موجودا فى مصيف رأس البر مع النحاس باشا ومكرم باشا أن نشر «المصرى» مقالا فيه دعاية قوية لوزارة حسين سرى من أجل اتفاقية القطن التى كانت عقدتها مع الإنجليز. وغضب مكرم باشا وثار ثورة عنيفة وطلب من محمود أبو الفتح أن تنشر «المصرى» مقالا تنقض فيه المقال الأول ولكنه ماطل ولم ينشر.. وهنا أعلن مكرم باشا إما أن يشلح أبو الفتح من الهيئة الوفدية وإما يستقيل هو من الوفد.

ومضى الأستاذ فؤاد سراج الدين يقول:

ـ لقد أمضيت يوما وليلة وأنا أهدئ من ثورة مكرم باشا ضد المصرى وصاحبه.

خلاصة القول إذن ـ وهذه جرأة أبو الفتح فى نشر ما يريد أوعدم نشر مالا يريد رغم الوفد وزعماء الوفد ـ خلاصة القول إذن أن أبو الفتح كان يمكنه أن يرفض نشر المذكرة.. ولو كان فى رفضه ما يغضب مكرم عبيد.

ولكنه نشرها.. لأنه كان يريد أن تنشر.

حدث مرة فى عام ١٩٣٨ وكان السعديون والدستوريون فى الحكم والنقراشى باشا وزيرا للداخلية.. حدث أن اعتدى رجال البوليس على «موكب» النحاس باشا أثناء سيره من المحطة إلى داره.. وكان مكرم باشا يجلس بجوار النحاس باشا فى السيارة..

وأصابت هراوة أحد رجال البوليس رأس مكرم باشا وأحدثت فيه جرحا عميقا. وحملت الصحف الوفدية حملات عنيفة على الحكومة وطالبت بمحاكمة ضباط البوليس المسئولين.

وقال لى حسين أبو الفتح شقيق محمود أبو الفتح أن شقيقه قال يومها.. «معلوم.. يجب أن يحاكموا العسكرى ابن.. اللى ضرب مكرم لأنه ما عرفش يضرب مكرم ضربة جامدة كفاية تخلص عليه وتريحنا منه».

* * *

قلت إن جريدة «المصرى» نشرت المذكرة التى وضعتها اللجنة المالية ووزير المالية مكرم عبيد وقد رفضت فيها الموافقة على الاستثناءات التى طلبها النحاس باشا وبعض زملائه الوزراء لطائفة من الوطنيين الوفديين . . وكان رفض اللجنة مسهبا ومقرونا بالأسماء والأسباب .

وكانت القاضية . . وأعلن السيد مصطفى النحاس أن التعاون بينه وبين مكرم باشا أصبح مستحيلا . . ومن ثم فهو يطلب منه أن يبر بوعده ويستقيل .

ولهذا «الوعد» حكاية أذكرها بإيجاز . . ذلك أنه كان حدث قبل ذلك ببضعة أسابيع ـ أى فى بدء الخلاف وأيام كان العتاب لا يزال مقبولا بين الرجلين ـ حدث فى إحدى جلسات العتاب أن أعلن الأستاذ مكرم عبيد أنه لا يزال الصديق الوفى والوفدى المخلص لرئيس الوفد مصطفى النحاس وأنه ـ معاذ الله ـ لن يسمح لنفسه بالخروج على الوفد أو زعيمه مصطفى النحاس . . وأنه مستعد فى أى وقت إثباتا لولائه وإخلاصه أن يقدم استقالته من الوزارة وفى أى وقت يطلبها منه مصطفى النحاس .

وهكذا . . أوفد النحاس باشا وزير الأشغال عثمان محرم باشا بصفته أكبر الوزراء سنا وأقدمهم عهدا بالوزارة . . أوفده إلى الأستاذ مكرم لكى يطلب منه أن يفى بوعده ويستقيل .

ولكن مكرم باشا لم يكد يرى عثمان محرم داخلا عليه فى داره حتى صاح .

ـ أنا عارف أنت جاى ليه . . علشان تطلب منى أن أستقيل لكننى أرفض . . ولن أستقيل . . فاذهب وقل لمن أرسلك يقيلنى من الوزارة إذا استطاع .

وحاول عثمان محرم أن يقنع مكرم عبيد بالنزول على رغبة مصطفى النحاس والاستقالة ويقول له : «ولو إلى حين تهدأ ثائرة النفوس ويصفى الجو . . وليس من المستحيل أن تعود وتدخل الوزارة إلى آخره» .

ولكن مكرم رفض أن يصغى ورفض أن يستقيل . . وسمع النحاس باشا . وكانت مصادر أخبار السوء ووسطاء السوء يومئذ كثيرة ، كما أن الساعين لإخراج مكرم من الوزارة ومن الوفد ـ وقد أشرت إليهم ـ لم يقصروا جهدا فى نقل الأخبار التى توسع الهوة بين النحاس ومكرم .

وسمع النحاس أن مكرم لم يرفض الاستقالة إلا لأنه موحى إليه أو موعز إليه بهذا الرفض . . وأن مصدر الإيحاء أو الإيعاز هو رئيس الديوان أحمد محمد حسنين .

وازداد النحاس غضبا وثورة . . وأعلن أنه إذا لم يستقل مكرم عبيد طوعا فسوف يخرج من الوزارة مقالا .

هذا ومكرم يخرج لسانه ساخرا ويتحدث إلى بعض الصحف الإفرنجية فى مصر وإلى مندوبى وكالات الأنباء ويعلن أنه لن يستقيل . . وليفعل النحاس باشا أقصى ما يستطيع .

وذهب النحاس باشا إلى القصر يطلب إقالة وزير المالية مكرم عبيد .

وحاول فاروق أن يهدئ من ثائرة رئيس وزرائه ضد وزير المالية وأن يسوى ويصلح ما بين الرجلين والصديقين القديمين . . ولكن عبثا!

وما من شك فى أنها «مناورة» أو سياسة مرسومة . . وأن فاروق مثل رئيس ديوانه أحمد حسنين كان يريد التفرقة بين الرجلين والصديقين القديمين . . وإضعاف الوفد وقسمته شيعا وأحزابا .

* * *

أصر إذن النحاس على إقالة مكرم عبيد من منصب وزير المالية . . وأخيرا قال له فاروق :

ـ طيب بلاش الإقالة . .

واقترح أن يقدم النحاس باشا استقالة الوزارة . . فيكلفه بإعادة تشكيلها . . وهنا يمكنه أن يعيد تشكيل الوزارة من غير مكرم عبيد .

ولم يعجب هذا الاقتراح السيد مصطفى النحاس . . لم يعجبه لأنه كان أولا : يريد «مرمطة» مكرم عبيد والانتقام منه بإخراجه من الوزارة مطرودا أو مقالا .

ولم يعجبه ثانيا : لأنه خشى أن ينتهز فاروق الفرصة فيقبل استقالته هو وأعضاء وزارته . . ويكلف زعيما آخر بتشكيل الوزارة الجديدة .

وتململ مصطفى النحاس . . ولكن فاروق ثبت على رأيه وقال :

ـ لا . . لا . . كله إلا الإقالة . . بلاش حكاية الإقالة دي .

واضطر مصطفى النحاس أن يتراجع وأن يذعن . . وقدم استقالته ثم أعاد الوزارة بدون مكرم عبيد .

خرج مكرم عبيد من الوزارة ولكن خروجه لم يهدئ من ثورة مصطفى النحاس ، بل على العكس . . فقد ازداد حنقا وغضبا لأن «خصوم الأمة» ـ على حد تعبيره ـ الذين في السراى وعلى رأسهم رئيس الديوان أحمد حسنين حالوا بينه وبين طرد مكرم عبيد ولم يمكنوه من إقالة مكرم عبيد .

ومضى النحاس باشا يتحدث في مجالسه وبين شيوخه ونوابه عن المؤامرات التي تحاك ضده والتي يدبرها رئيس الديوان بمساعدة بعض خصومه ـ خصوم النحاس باشا ـ من رجال الصحافة وغيرهم .

وأنقل هنا من مذكراتي :

زرت حسنين باشا بناء على موعد سابق حددناه بالتليفون وبقيت معه نحو ساعتين .

وقلت له : إن النحاس باشا يعتقد أنك ضالع مع مكرم عبيد . وهو يكره بعض الصحفيين الذين يعارضونه . ولما كان بعض هؤلاء صديقا لك ومتصلا بك ويستقى أخباره منك وهو ينشر دعاية واسعة لمكرم باشا وينشر في الوقت نفسه دعاية ضد النحاس باشا ـ كما تقول التقارير التي يقدمها رجال البوليس السرى لرفعته . . فإن «رفعته» معذور إذا هو اعتقد أن بعض هؤلاء الصحفيين إنما يفعل ما يفعله بإيعاز منك ومن السراى .

فقال حسنين . . وأنا مالي؟ ما هو مصطفى النحاس ومكرم عبيد اللى كانوا بيبعتوا لى هؤلاء الصحفيين في كل حاجة .

ثم أخذ حسنين يدافع عن نفسه دفاعًا طويلاً . . فقال :

ـ لقد كانت سياستي بعد حادث ٤ فبراير وقيام وزارة مصطفى النحاس أن ما

جرى قد جرى واللى فات فات . . وأنه لا بد من التعاون مع الوزارة ورئيسها النحاس وأن «مولانا» الملك قد أعطى النحاس كلمة بمساعدته.

. . ولقد رأيت أن هناك رجلين من ألصق الناس بالنحاس باشا وهما مكرم وأمين عثمان وأن العلاقات بين الرجلين وبين الملك والقصر ليست على ما يرام لأن الإشاعات كانت دائمًا كثيرة عنهما . كما أن الإشاعات فى البلد كانت تزعم أن الملك لا يحب مكرم عبيد ولا يحب أمين عثمان . ومن هنا أردت أن أخدم الوزارة وأخدم النحاس باشا نفسه بل وأخدم أمين عثمان ومكرم عبيد . وذلك بأن أجعل الملك يقابلهما ويظهر عطفه عليهما ، فيخرج الاثنان راضيين شاكرين لكى يعرف البلد أن هذه الإشاعات ليست صحيحة وأن الرجلين أو ذراعى النحاس ومستشاريه وألصق الناس به ليسا مغضوبا عليهما بل على العكس يتمتعان برضاء الملك وعطفه . . ولقد خرج مكرم من مقابلة الملك راضيا مسرورا . وكذلك أمين عثمان فهل يلومنى النحاس على هذا . . ؟

* * *

وهكذا خرج حسنين ـ رحمه الله ـ عن الموضوع الذى زرته من أجله .

وقلت : ولكن النحاس باشا ليس غاضبا بسبب مقابلة الملك لمكرم وأمين عثمان .

قال : صبرك على شوية .

ثم مضى يقول : إن هذه لم تكن محاولته الأولى من أجل تقريب مكرم من الملك وذلك أنه أثناء الأزمة أول فبراير «أى الأزمة التى انتهت بحادث ٤ فبراير» اقترح حسنين على الملك دعوة مكرم عبيد مع الزعماء الذين استدعاهم القصر للمشاورة فى الموقف السياسى ولكن فاروق عارض وقال : إن الدعوة مقصورة على طبقة من الزعماء وهى طبقة رؤساء الوزارات السابقين . . ورؤساء الأحزاب السياسية ، فكيف إذن يمكن دعوة مكرم عبيد وهو ليس من هؤلاء أو هؤلاء؟!

قال حسنين :

ـ لكننى استطعت فى آخر الأمر أن أحصل على موافقة الملك بدعوة مكرم باشا .

وكان فى النية استدعاؤه فعلا إلى القصر للاشتراك فى مناقشات الزعماء بصفته السكرتير العام لأكبر هيئة سياسية فى البلاد . . ولكن الأزمة تطورت بسرعة والحوادث أسرعت وكان ما كان .

ثم تحدث حسنين عن مقابلة فاروق لمكرم عبيد باشا مرة أخرى فى يوم الثلاثاء ٢٦ مايو . وقد تمت المقابلة من غير علم مصطفى النحاس وأثناء اشتداد الأزمة بينه وبين مكرم عبيد وإلحاح النحاس باشا فى إقالة مكرم من الوزارة .

قال حسنين :

ـ لم يكن من مصلحة أحد ولا من مصلحتى كرئيس الديوان أن أتصرف أى تصرف يبدو منه أننى ضالع مع النحاس ضد مكرم . بل كان من واجبى أن أحافظ على الحياد الدقيق . وأنه إذا كان النحاس باشا سوف يقابل الملك لكى يعرض عليه إقالة مكرم من الوزارة ويبسط الأسباب فإنه من واجبى ـ ومقتضيات الحياد ـ أن أمكن مكرم كذلك من مقابلة الملك لكى يعرض عليه وجهة نظره فى الخلاف الذى نشب بينه وبين رئيسه مصطفى النحاس . كذلك كنت أرجو أن نتمكن من تسوية الأمر وإزالة أسباب الخلاف بين الرجلين الصديقين القديمين «كذا؟» ولهذا السبب أشرت على الملك بدعوة مكرم باشا لمقابلته . . ولم يعلم النحاس باشا بهذه الدعوة إلا فيما بعد ويلغنى أن رفعته غضب جدا يومها ولكن مالوش حق .

ثم قال حسنين : إن فاروق قال له بعد مقابلة النحاس : «مفيش فايدة . . لقد حاولت ولكنه مصمم على خروج مكرم من الوزارة» .

لقد قالها فاروق وهو «بيشوح» بذراعيه شأن الذى أفرغ كل ما فى جعبته ولم يفلح .

* * *

ثم قال حسنين إنه هو الذى أشار على فاروق برفض طلب النحاس الخاص بإقالة مكرم عبيد ، وقال فى هذا :

ـ إن إقالة مكرم كانت ستفرح النحاس باشا يوما واحدًا ! وهو يوم تنشر فى

الصحف ولكن هذه الإقالة كانت ستدفع مكرم إلى «التشليت» للنحاس باشا . . فهل كان هذا فى مصلحة رفعته كرئيس للحكومة ورئيس للوفد؟ ثم لماذا الإقالة وتوسيع الهوة بين الرجلين؟ فليخرج مكرم من الوزارة ما دام النحاس مصمما على إخراجه . ولكن أليس من الأفضل أن يخرج بطريقة لا توغر صدره وتملؤه حقدا ونقمة على مصطفى النحاس؟

ثم قال حسنين : إن هذه الشكوك لم تتولد ضده فى صدر مصطفى النحاس إلا بسبب زينب هانم .

قال حسنين باشا : إن السيدة زينب الوكيل هى التى أوغرت صدر النحاس باشا ضده بسبب موقفه منها فى مشروع كبير . ثم مضى يقول : إن لا كلمة ولا رأى للنحاس باشا عند زوجته وأنها تسيطر عليه تماما! وهى امرأة ذكية الفؤاد و«شاطرة جدا» وواسعة الأفق وهى إذا اقتنعت برأى سارت فيه إلى النهاية ، ولقد ساعدتنى فى عدة مسائل فكثيرا ما كنت أذهب لمقابلة النحاس باشا فى فندق مينا هاوس أثناء إقامته فيه ، فكانت تستقبلنى وتجلس معى إلى أن ينتهى «رفعته» من ارتداء ملابسه . وكانت تقدم لى القهوة وتتبسط معى فى الحديث . وكنت فى بعض الأحيان أتحدث معها فى المسألة أو الموضوع الشائك الذى يشغل بالنا والذى جئت أتحدث فيه مع زوجها وكنت أبسط وجه المصلحة ووجهة نظرنا ، فكانت إذا اقتنعت برأيى ساعدتنى وأقنعت زوجها النحاس باشا بأن المصلحة فيما أقوله أو أطلبه . ومضى حسنين يقول :

ولكن زينب هانم بالرغم من ذكائها فإنها امرأة على كل حال ، ومن عيوب المرأة أنها إذا جرحت فى كبريائها اختل ميزانها وحسن تقديرها للأمور . . كنا نتحدث ذات يوم عن الرتب والألقاب عندما ضحكت وعرضت لما أسمته «رتب الجزم» وهى الرتب التى كان أنعم بها جلالة الملك على الذين تبرعوا لمشروع مقاومة الحفاء . . ثم قالت إن عندها مشروعا تستطيع أن تجمع به نصف مليون جنيه . . وإن هناك أشخاصا مستعدون لأن يتبرع الواحد منهم بعشرة آلاف جنيه بس على شرط أن ينعم عليهم برتبة الباشاوية . . ولقد سألتها زى مين؟ فقالت . . توفيق مفرج . وصبحى الشوربجى ولكننى أشرت عليها بتأجيل هذا المشروع وأن الأفضل عدم الخوض فيه الآن لأن الظروف غير مناسبة .

ولكن زينب هانم لم تستمع لنصحى ومشت فى مشروعها . . وأعلنت عنه فى الصحف وأصبح «مشروع البر» الذى تتولاه زينب هانم حديث الناس فى كل مجلس وناد . . ولقد كنت أوثر ـ ولمصلحتها هى بالذات ـ ما دامت قد مضت فى مشروعها أن تترك أمر جمع التبرعات للجنة منظمة وأن يكون هناك بنك يشرف على هذه العمليات كلها . . ولكن زينب هانم والذين معها تركوا الأمر فوضى بلا ضابط ولا رقيب ولا حساب . . وازدادت إشاعات السوء انتشارا ، ولقد كانت أقاويل الفساد والرشوة واستغلال النفوذ موجودة قبل مشروع البر . . ثم جاء هذا المشروع وضاعف فى انتشارها . . ففيم كان هذا التصرف وفى مصلحة من؟

ثم استطرد حسنين يقول :

وفى هذا الجو . . جو الإشاعات والقيل والقال والاتهامات التى ترمى من هنا ومن هناك . . طلبت منى زينب هانم أن يتفضل «جلالة الملك» بحضور الحفلة التى أقيمت لمشروع البر فى دار الأوبرا ومن حسن الحظ ـ حتى لا أصدم بها ـ كان الملك غائبا عن القاهرة فى رحلة فى سينا . . ومع ذلك فقد بذلت وساطتى إرضاء لها وحضرت الملكتان فريدة ونازلى الحفلة فى الأوبرا . . وعاد الملك من سيناء . . وعادت زينب هانم تطلب منى أن يحضر الملك حفلة الشاى التى تقيمها فى فندق مينا هاوس .

وقلت لها : إن هذا أمر مستحيل بحكم التقاليد . . وحاولت أن أقنعها بأن هذا الأمر ليس له سابقة ولكن عبثا .

قلت لها : إن الملك لا يمكنه أن يجلس إلى مائدة الشاى وبجانبه حرم رئيس الوزراء إلا إذا كانت جلالة الملكة موجودة وأن جلالة الملكة لا يمكنها أن تحضر حفلة يدعى إليها السفير البريطانى وسفراء الدول والوزراء ورجال الدولة ؛ لأن حضورها يكون ثورة على جميع التقاليد

ولكن زينب هانم لم تقتنع بحجتى وقالت إن الملك سبق أن حضر حفلة أقامتها هدى هانم شعراوى . . «واشمعنى يحضر حفلة الولية العجوزة الوحشة دى ولا يحضرش حفلتى؟» .

قلت لها إن الملك حضر حفلة هدى هانم شعراوى «متنكرا» ـ أى بصفة غير

رسمية ـ ولقد منعت الصحف من ذكر خبر حضوره الحفلة . . ومع ذلك فهناك فرق كبير بين الحفلتين : فحفلة هدى هانم لم تكن شبه رسمية مثل حفلتك . . والملكتان فريدة ونازلى حضرتاها . . وأما حفلتك أنت فإن لها طابعا رسميا أو شبه رسمى . . إلى آخره .

ولكن زينب هانم لم تقتنع وأسراتها ضدى فى نفسها . .

وذات يوم أرادت أن تضاربنى بعبد الوهاب طلعت باشا وكان هذا ذكاء رخيصا منها . . فقد قالت لى : «تعرف مين جانا النهارده؟ عبد الوهاب طلعت باشا جه علشان يقول لى إنه مستعد لأى خدمة ويقدر يعمل لى كل اللى أطلبه منه ولكنى قلت له . . «أبدا . وإننى ما أطلب حاجة من حد إلا من حسنين باشا بس . . » .

* * *

وقال حسنين : إنه قال مرة لزينب هانم : «قولى بس إنت عاوزه منى إيه وأنا أعمله علشان خاطرك . . » .

قالت : عاوزاك تكسر لى . . كذا وكذا وكيت . . «سلسلة من النعوت والشتائم» وكانت تقصد مكرم عبيد .

وسألها حسنين : وليه عاوزه تكسريه؟

قالت : لأنه بيكره الملك .

ومرة أخرى كان ذكاؤها رخيصا .

* * *

وانصرفت من مقابلة حسنين باشا إلى مكتبى . ومن هناك كلمت فؤاد سراج الدين باشا بالتليفون واتفقت معه على أن نتقابل فى المساء فى فندق مينا هاوس وكان النحاس باشا يقيم وقتئذ بالفندق المذكور وكذلك الأستاذ فؤاد سراج الدين .

وتقابلنا فى الموعد المحدد . وجلسنا إلى إحدى الموائد الموضوعة حول حوض السباحة وتناول فؤاد باشا طعام العشاء بينما كنت ألخص له دفاع حسنين باشا عن نفسه كما سمعته منه فى الصباح .

ثم قلت ـ ووافقنى هو على رأيى ـ: إن حسنين برىء مما يتهمه به النحاس باشا. وعلى كل حال «أية مصلحة للنحاس باشا فى محاربة حسنين ومجاهرته بالعداء؟ بل هل من المصلحة أن نحارب فى جبهتين، جبهة حسنين ومن معه من رجال القصر.. وجبهة المعارضة من الأحرار الدستوريين والسعديين؟

وبعد تناول العشاء قمنا وصعدنا إلى غرفة فؤاد باشا، وتركنى فيها وغاب نحو نصف الساعة لأن «رفعة» الرئيس كان يتناول العشاء مع حرمه زينب هانم والسيدة حماته وحميه عبد الواحد باشا الوكيل.

وعاد فؤاد سراج الدين وصحبنى إلى غرفة الجلوس فى الجناح الخاص الذى كان النحاس يقيم فيه هو والسيدة حرمه.

وكان النحاس باشا متربعا فوق كنبة.. ولاحظت أنه مشغول الخاطر معكر المزاج.

وبدأت الحديث فقلت له: إن حسنين صديقى وأنا أعرفه جيدا، وأستطيع أن أثق فيما يقول لى كصديق.. وهو برىء.

وسردت ـ أو حاولت أن أسرد حجج حسنين ومنها أن النحاس باشا ومكرم باشا هما اللذان كانا يرسلان إليه الوسطاء من أصدقائه.

وهنا قاطعنى النحاس باشا بحدة. وبدأ هو يتكلم.. ولم يترك لى بعدها فرصة للكلام وإتمام دفاعى عن حسنين.

والذين يعرفون الرئيس السابق مصطفى النحاس يوافقوننى على أنه لا فائدة من مقاطعة «رفعته» إذا اندفع يتحدث.

وهكذا سكت. وتركته يتكلم.

قال: هذا غير صحيح فأنا عمرى ما أرسلت له وسطاء، ربما مكرم هو الذى أرسلهم أما أنا فلم أرسلهم ولا مرة واحدة لأننى أكرههم ولا أثق فيهم والذى حدث أننا كنا فى مصيف رأس البر فى الصيف الماضى وجاء أحد أصدقاء حسنين يقول لمكرم إنه حاضر موفد من قبل الملك لكى يدعونا لمقابلة جلالته.. وجاء مكرم فقلت له: «يا مكرم بلاش فلان لأنى لا أثق فيه».

قال: صحيح. . ولكن ما الضرر أن نسمع كلامه.

ثم قص رفعته التفاصيل وهى لا تخرج عما سبق أن ذكرته.

ثم استطرد النحاس باشا يقول:

ـ وسافرت أنا ومكرم إلى القاهرة وقابلنى جلالة الملك ولكنه لم يقابل مكرم، وغضب مكرم وقال: «وعلشان إيه جابونى بأه؟ يعنى أنا طيشه». هذه يا سى التابعى هى المرة الوحيدة اللى جاءنا فيها صديق لحسنين باشا. . ولقد جاءنا كما رأيت من حسنين.

ثم قال بحدة وانفعال شديد:

ـ ده كلام فارغ دول بيلعبوا بالنار. . هؤلاء العكاريت.

إلى آخره. . إلى آخره.

وبعد أن هدأ قليلا انتقل إلى الحديث عن مقابلة فاروق لمكرم عقب تأليف الوزارة وهى المقابلة التى أثارت شكوك النحاس فى مكرم عبيد، ولقد سبق أن أشرت إلى هذه المقابلة وقلت إنها كانت مناورة أو مؤامرة من حسنين باشا للتفريق بين النحاس ومكرم.

وأعود الآن وأثبت هنا رواية النحاس باشا نفسه عن المقابلة المذكورة.

قال: بعد تأليف الوزارة بأيام جاءنى مكرم باشا وقال إن حسنين طلب منه أن يلتمس مقابلة الملك وأنه ـ أى مكرم ـ قال له إن ليس عنده سبب يبنى عليه طلب المقابلة. ولكن حسنين قال له: «فتش على حاجة» وأخيرا قال له مكرم إن عنده رسم الورق الجديد البنكنوت من فئة عشرة قروش وخمسة قروش، فهل يطلب المقابلة ليعرضه على الملك؟ ووافق حسنين.

ومضى النحاس باشا فى روايته. . وأنا أسجلها هنا بحروفها نقلا عن مذكرات مكتوبة. . قال:

ـ ولما قال لى مكرم هذا رأيت أنها حاجة غريبة. وأحسست أن فى الأمر شيئا غير برىء، فقلت لمكرم باشا «وهو كذلك. . روح. . ولكن كن على حذر. .

دول يا مكرم عاوزين يفرقوا بيننا، وابقى فوت على بعد المقابلة أو كلمنى بالتليفون وقل لى على الحديث اللى دار فيها».

وانتظرته في المساء.. الساعة التاسعة.. تسعة ونصف.. عشرة.. ونصف، وكنت كلما طلبته بالتليفون وجدت نمرته مشغولة.. وأخيرا وكانت منتصف الليل تقريبا دخلت ونمت.

وفى الصباح أحضروا إلى «نوتة» أو رسالة منه كان أملاها بالتليفون بعد نومى أى بعد منتصف الليل وفيها يقول إن المقابلة كانت «عال وعظيمة» وأنه سوف يقص على التفاصيل بعد عودته من الفشن.

وفي نفس الصباح قرأت فى إحدى الجرائد بيانا لمكرم عن مقابلته للملك.. وهو بيان لا يكتبه سوى عبد.. وماذا يقول الإنجليز الآن؟ أمن أجل هذا جاءوا بنا إلى الحكم؟ لقد جاءوا بنا ظنا منهم أننا وحدنا الذين نستطيع الوقوف فى وجه الملك.. فماذا يقولون اليوم بعد هذا البيان الذى لا يكتبه سوى عبد.

ثم كلمنى مكرم بالتليفون من الفشن بخصوص المسألة اللى كان سافر من أجلها. وسألته: إيه الكلمة اللى كتبتها دى فى الجرائد يا مكرم؟! فقال: إيه رأيك فيها؟ قلت له: «زفت وقطران» لما ترجع وأقابلك نتكلم فيها.

وعاد مكرم وقابلنى.. وقال إنه لا يرى رأيى وإنه لم ير ضررا فى كتابة الكلمة المذكورة لأننا سبق أن كتبنا مثلها ومدحنا الملك بأعظم منها.. فقلت له: «فليكن.. ولكن أنا الذى أكتب وأمدح لا أنت» لأننى أنا أقدر الظروف.. وأنا إذا مدحت فأنا أتقاضى فى مقابل المدح ثمنا.. أنا اللى بياخد من الملك واللى بأعامل الملك مش أنت.. ولكن قل لى لماذا لم تأخذ رأيى فيها وتستشرنى قبل نشرها؟»

قال: فى الحقيقة حسنين باشا طلب منى بعد خروجى من مقابلة الملك أن أكتب كلمة كويسة عن الملك وأنشرها.

فقلت له: هذا سبب كان أدعى لأن يحملك على أن تأخذ رأيى وأنت دائما تأخذ رأيى فى كل مسألة فلماذا لم تفعل هذه المرة؟ هذا سعى للتفريق بيننا وبكره تشوف يا مكرم.

ثم قال النحاس باشا إنه عرض بلباقة لهذه المسألة فى اجتماع لمجلس الوزراء وعاتب مكرم ثم قال له أمام زملائه الوزراء أنه يشفق أن تصبح المسألة مسابقة أو مزايدة بين الوزراء كل واحد منهم يسابق زملاءه إلى مدح الملك ويزيد فى المدح عما قاله الذى سبقه.

ثم انتقل النحاس باشا إلى الحديث عن إخراج مكرم من الوزارة، فقال: إنه كان يعرف قبلها بشهر أن مكرم باشا ينوى أن يجعل من «الاستثناءات» ميدانا للمعركة.. وأنه - أى النحاس باشا - أفضى برأيه إلى الوزراء فقال لهم: «مكرم مش ناوى يقعد معانا وبكره تشوفوا».. وأن نجيب الهلالى ذهب يومئذ إلى مكرم وسأله فى هذا فأنكر مكرم أن فى نيته شيئا من هذا وأكد إخلاصه للنحاس. وتضامنه مع زملائه أعضاء الوزارة، ولكن النحاس باشا ظل متمسكا برأيه وهو «أن مكرم مش ناوى يقعد معانا».

إلى أن كانت مسألة الاستثناءات التى كان رئيس الوزراء والوزراء طلبوها لعدد كبير من الموظفين الوفديين ومن الأنصار والأقارب والمحسوبين.. وهنا أخذ وزير المالية مكرم عبيد يسوف.. ويماطل فى الرد على طلبات النحاس والوزراء.. وكان - عندما يعجله النحاس باشا بالرد - كان يقول: طول بالك شوية لأن اللجنة المالية بتعارض وأنا بأعمل جهدى علشان أقنعها بالموافقة».

ومضى النحاس باشا فى حديثه يقول:

- ولكننى قلت له: المهم أن ترسلوا لنا ردكم أيا كان، بالموافقة أو بالرفض مش مهم.. بس ردوا علينا لأن الحركة واقفة، وهناك حركة أخرى سوف تتلو هذه الترقيات المطلوبة ومش ممكن عملها إلا بعدها.. وأخيرا جاء رد اللجنة المالية وقال مكرم إنه لم يكتبه وأن اللجنة المالية هى التى كتبته.. وفى جلسة مجلس الوزراء التى عرضت فيها مذكرة اللجنة المالية بعدم الموافقة على الاستثناءات المطلوبة - وقد رفض المجلس هذه المذكرة - قال مكرم إنه لا يرتب أية نتيجة على رفض مجلس الوزراء مذكرة اللجنة المالية.. وأنه يضع استقالته تحت تصرفى.. ولكننا تصافينا فى الجلسة.. وعند مغادرتنا لقاعة اجتماع مجلس

الوزراء دعانى مكرم لتناول الغداء معه فى داره ولكنى اعتذرت بمرضى وأننى أتناول أدوية معينة لم تكن معى . . وقلت له : إننى سوف أتناول الغداء فى فرصة أخرى .

* * *

ولكن مكرم ـ وقد كنا تصافينا كما قلت ـ نشر مذكرة اللجنة المالية بقصد التشنيع على وعلى أقاربى ولكى يحرجنى ويحرج زملاءه الوزراء أمام الرأى العام ، وهنا رأيت أن التعاون بيننا لم يعد ممكنا وقررت إخراجه من الوزارة ومن منصب سكرتير الوفد . . لأن دى مسألة ثقة وتعاون بين رئيس الوفد وسكرتير الوفد . . ولكن ليس فى نيتى إخراجه من هيئة الوفد أو من الهيئة الوفدية . . وأرسلت إليه عثمان محرم باشا بصفته أقدم الوزراء لكى يذكره بوعده ويطلب منه أن يستقيل . . ولكن مكرم لم يكد يرى عثمان باشا حتى صاح : «أنا عارف أنت جاى ليه . . لكن مش راح أستقيل . . وخلى النحاس يقيلنى إذا كان يقدر» .

ومعنى هذا أن مكرم كان واثقا من مركزه ، وكان يعرف مقدما ومن حسنين و«شلته» أن الملك سوف يرفض أن يقيله من الوزارة .

ثم انتقل النحاس باشا بالحديث إلى مقابلته لفاروق فى يوم الثلاثاء ٢٦ مايو ١٩٤٢ .

ولقد تمت المقابلة المذكورة بينما كان مكرم باشا جالسا فى إحدى غرف القصر ينتظر دوره للمقابلة «الملكية» ولكن النحاس باشا لم يكن يعرف أن مكرم موجود فى السراى وأنه سيقابل الملك» .

قال النحاس عن مقابلته لفاروق :

ـ ولما قابلت الملك التمست منه إقالة مكرم وشرحت لجلالته حكم الدستور فى هذا الشأن وكذلك حكم السوابق الدستورية ومنها إقالة عبد العزيز فهمى باشا ولكن جلالته قال : لا . . لا . . بلاش السابقة دى . . شوف لنا يا مصطفى باشا طريقة تانية غير الإقالة .

قلت لجلالته : حسنين باشا هوه اللى تخن ودن مكرم علشان بعت له مع حسن

الأعور يطلب منه ألا يستقيل، فقل جلالتك لحسنين باشا أن يطلب من مكرم أن يستقيل أو أحسن من كده يبعت يجيبه في السراى ويطلب منه باسم جلالتك أن يستقيل . . فقال الملك : دى فكرة عال . . ولكن نفرض أن مكرم رفض أن يستقيل يبقى الحل إيه؟ أظن الأوفق يا مصطفى باشا أن تقدم استقالة الوزارة وأنا أعدك أن خطاب التكليف بتشكيل الوزارة سوف يصلك فى نفس اليوم .

ومضى النحاس باشا فى روايته فقال :

ـ ولما رآنى الملك ترددت قال : «والا أنت خايف منى ومش واثق فى كلامى» . . وأسرعت أقول له : معاذ الله يامولانا . . وأنا أؤكد لمولاى أننى لم أقبل الوزارة إلا إجابة لرغبتك ورغبة منى فى خدمتك وأنا الآن أحترق بالنار فى كل يوم ولا أنام الليل . . وثق يا مولاى أن أهنأ يوم فى حياتى هو يوم يقبل جلالة الملك استقالتى ويعفينى من أعباء الوزارة وأنا مريض وصحتى متعبة .

* * *

وقال فاروق : لو تعلق الأمر بصحتك فقط لما كان هناك مانع من إعفائك من أعباء الحكم . ولكن الظروف لا تسمح .

ثم قال النحاس باشا : إن مكرم قال لبعض الشيوخ والنواب الذين زاروه إننى ـ أى النحاس ـ طلبت من الملك إقالته وأن الملك رفض . . فمن الذى أخبر مكرم بهذا وبما دار بين الملك وبينى . . لازم يكون حسنين باشا . . وهى مؤامرة بينه وبين مكرم .

* * *

وأصبحت وكلمت حسنين باشا بالتليفون . . قلت له : «النحاس باشا هايج جدا ويصر على اتهامك إنت وبعض أصدقائك بكذا وكذا» .

واحتد حسنين باشا . . ولعلها كانت المرة الوحيدة التى سمح فيها لنفسه بأن ينفعل وأن يحتد . . ولعله خشى العاقبة، وأشفق من محاربة النحاس باشا له وقد كان يعرف أن مركز النحاس يومئذ كان قويا مؤيدا . . وأنه إذا ركب النحاس رأسه وأعلن الحرب على حسنين، وقال مثلا : «إما أنا . . وإما حسنين» فقد يتدخل

الإنجليز مرة أخرى وقد يسفر تدخلهم عن نتائج لاتسر رئيس الديوان أحمد محمد حسنين.

ومن هنا بدا الانفعال واضحا فى صوت حسنين وهو يقول:

ـ شوف يا محمد.. أنا زى ما قلت لك.. لا يد لى فيما حدث.. وليس فى برنامجى أن أحارب النحاس باشا. ولكن إذا كان عايز يهاجمنى فسوف أضطر أن أشب على قدمى وأرد الضربة ضربتين.

ثم تواعدنا على اللقاء فى بحر الأسبوع على أن أكلمه بالتليفون قبلها ووجدت أن الحالة خطيرة وأن الشد من الطرفين قد يؤدى إلى قطيعة أو ينتهى باصطدام.. وكلمت فؤاد باشا سراج الدين بالتليفون وقلت له: إن مقابلتى مع النحاس باشا مساء أمس لم تنته إلى النتيجة التى كنا نرجوها، وإننى اضطررت إلى التظاهر بالموافقة على رأيه لأنى أدركت أن لا فائدة من مناقشة «رفعته».. وقلت:

ـ وأنت تعرف النحاس باشا وتعرف عناده وأنه إذا انطلق فى حديث فليس هناك من يستطيع أن يقاطعه أو يوقفه، وأنا فى الحقيقة لا أوافقه على رأيه فى حسنين.. وبعد هل من حسن السياسة مبادرة حسنين بالعداء؟ فأرجوك يا باشا أن تعمل من ناحيتك على إقناع النحاس باشا بهذا الرأى.

ووافقنى فؤاد سراج الدين وقال إنه يفكر فى دعوة النحاس باشا والسيدة حرمه وحسنين باشا لتناول العشاء معه فى داره.. ولعل هذا الاجتماع العائلى يساعد على تهدئة الجو بين الطرفين.

* * *

ومر يومان أو ثلاثة.. ولما لم أتصل بحسنين بالتليفون كما كنت وعدته سأل عنى هو مرتين وزرته فى داره فى صباح السبت، وقلت له إن فؤاد سراج الدين يفكر فى دعوتك مع النحاس باشا لتناول العشاء فى داره فقال: إنه يفضل أن يبدأ هو بدعوة النحاس باشا والسيدة حرمه لتناول الغداء أو العشاء معه.. ثم عاد وقال:

ـ الأفضل أن تتناول الغداء معى أنت وفؤاد باشا أولاً.

وقمت إلى التليفون وكلمت فؤاد باشا واتفقنا على أن نتناول الغداء مع حسنين باشا بعد غد أى يوم الاثنين.

* * *

وجلسنا حول مائدة الغداء فى دار حسنين باشا بميدان عبد المنعم بالدقى.

وأنقل هنا - بشىء من الإيجاز - ما دونته يومئذ فى مذكراتى بتاريخ الاثنين ٨ يونيه عام ١٩٤٢ .

* * *

قص علينا فؤاد باشا - ويظهر أنه كان أعد مقدما حديثه - قص علينا بوادر الخلاف بين النحاس ومكرم ولو أننى أعتقد أن هذه الحكاية لم تكن أول بادرة من بوادر الخلاف.. قال:

ذات يوم وكان النحاس باشا لا يزال يقيم فى الباخرة محاسن.. قالت زينب هانم للأستاذ قاسم جودة الذى كان يزورها كلاما كثيرا معناه أنه وغيره من الصحفيين يسرفون فى الكتابة عن مكرم باشا وعن حركاته وسكناته بينما رئيس الوزراء نفسه وبقية الوزراء لا يكتب عنهم نصف ما يكتب عن مكرم عبيد.

ويظهر أن الأستاذ قاسم جودة أبلغ مكرم باشا ما قالته زينب هانم لأن مكرم ذهب وقابل النحاس باشا وقال له: إن زينب هانم تسىء إليه وتطعن فى حقه، وعاتبه فى هذا.. وقال له النحاس باشا: إنه يستبعد صحة الخبر وسأله عن اسم الذى أبلغه هذا ولكن مكرم رفض أن يبوح باسمه.

وأبلغ النحاس باشا السيدة زوجته أن مكرم عاتب عليها، وروى لها ما سمعه منه، وكانت السيدة مريضة فى فراشها، ولكنها كلمت مكرم بالتليفون وطلبت منه أن يزورها ففعل.

ولما دخل عليها قالت له: إن مصطفى باشا أبلغها عتابه ولكنها تنكر أنها طعنت فيه أو أساءت إليه فى أى حديث لها. وسألته عن اسم الذى نقل إليه هذه الرواية فقال «شخص أثق فيه كل الثقة وهو لا يكذب» ورفض أن يذكر اسمه.

وطال الحديث والعتاب . . ويدرت من مكرم باشا هذه العبارة . . «يظهر إنك خايفة على مركز جوزك منى» .

وهنا انتفضت زينب هانم غاضبة وصاحت بصوت عال : «منك أنت . . أخاف منك على مصطفى النحاس؟ إيه اللى تقدر عليه؟ تقدر تعمل رئيس وزارة لكن هل تقدر . . تكسب الزعامة أو الحب الذى تكنه الأمة لمصطفى النحاس؟ جوزى هو اللى خلقك؟

وقال مكرم : «اللى خلقنى ربنا مش جوزك . . وأنا اللى كونت نفسى بجهادى وتضحياتى» .

وكان النحاس باشا قد آثر أن يترك مكرم باشا وزينب هانم وحدهما يتعاتبان . ولكنه أقبل على صياحهما فوجد زوجته تبكى غيظا وغضبا . . ولما سأل عن السبب التفت إلى مكرم وقال : «إنت غلطان قوم بوس راس أختك وصالحها » وقام مكرم وقبل رأسها ويدها وتصالحا وتصافيا .

* * *

ثم قال فؤاد باشا : إن زينب هانم اتفقت مع النحاس باشا على كتمان هذا الحادث عن جميع الناس حتى إنه لما ذهب نجيب الهلالى باشا وأحد الوزراء إلى والدها عبد الواحد الوكيل لكى يوسطاه فى الصلح بين ابنته ومكرم باشا ، وجدا أن الرجل لم يكن يعرف شيئا مطلقا ولم يكن قد سمع أى شىء مطلقا عن وجود أى خلاف أو سوء تفاهم بين ابنته زينب هانم ومكرم عبيد .

ثم قال فؤاد باشا : ولكن مكرم خرج يقول لأصدقائه إن زينب هانم شتمته وأهانته .

ثم انتقل فؤاد باشا سراج الدين إلى نقطة أخرى فقال : إن النحاس باشا كان قال للوزراء قبلها بشهر : إن مكرم باشا مش ناوى يقعد معانا ، وأنه سوف يختار ميدان المعركة حول الاستثناءات .

وأنكر الوزراء على رفعته هذا القول وذهب نجيب الهلالى إلى مكرم وسأله فى

هذا فأنكر مكرم وأكد أن لاشيء من هذا يدور بخاطره، وأكد مرة أخرى إخلاصه وولاءه لمصطفى النحاس.

ولكن النحاس أصر على رأيه واتهامه لإخلاص مكرم وأن الاستثناءات هي الميدان الذي سوف يختاره لمهاجمة الوزارة.. ثم قال النحاس: «وبكره تشوفوا. وأنا أقبل منازلته في الميدان الذي يختاره».

وتحدث فؤاد سراج الدين بعد ذلك عن وزارة التموين والخلاف الذي كان ناشئا بسببها و أنكر على مكرم عبيد دعواه، وهي أنه فوجيء بها في خطاب العرش.. وقال: إن الحديث في إعادة الوزارات الثلاث دار في إحدى جلسات مجلس الوزراء وأن مكرم عارض بشدة في سحب وزارة التموين منه ولكن النحاس باشا أقنعه بضرورة تخليه عن الوزارة المذكورة.. وهنا تظاهر مكرم بأنه قد اقتنع، وبعدئذ طلب مكرم تأجيل تعيين وزير لوزارة التموين لمدة شهر واحد فأجابه النحاس باشا إلى طلبه.

وكان المفهوم - بل والمتفق عليه - أن يتقدم مكرم بعد انتهاء الشهر ويقول إن صحته متعبة وأنه لا يستطيع القيام بأعباء العمل في وزارتي المالية والتموين ومن ثم فهو يرجو إعفاءه من منصب وزير التموين - وكان هذا هو المتفق عليه - وهكذا ينقذ المظاهر أمام الناس ويعتقد الجميع أنه - مكرم - هو الذي تخلى بمحض إرادته عن وزارة التموين، ولكن الشهر الذي كان طلبه انقضى ولم يحرك مكرم ساكنا وبقي محتفظا بالوزارتين: المالية والتموين. وكان النحاس باشا قد وعد الملك بتعيين وزراء للوزارات الثلاث في بحر أسبوعين.

واستدعى النحاس باشا مكرم وسأله متى يعلن رغبته في ترك وزارة التموين؟

وقال مكرم: إنه لن يترك وزارة التموين.

وقال له النحاس.. إزاي يا مكرم؟ وأقول للملك إيه؟ أقول له أنا كذاب.. فأجابه مكرم: لا.. قل له أنا اللي كذاب.

* * *

وبعدها انتقل فؤاد سراج الدين إلى الحديث عن البيان الذي قدم به مكرم الميزانية

فقال: إن البيان المذكور كان مفاجأة للنحاس وللوزراء لأن مكرم باشا لم يكن قد أطلع عليه أحدا منهم مع أنه تعرض فى البيان لكل وزارة ولعمل كل وزير، وارتبط فى هذا البيان أمام البرلمان بوعود لا يرجع أمر تحقيقها إليه وحده بل يعود إلى الوزارة كلها وإلى جميع الوزراء.. مثال ذلك أنه أعلن فى بيانه أن ثمانية أوامر عسكرية سوف تصدر من الحاكم العسكرى العام ـ وهو النحاس باشا ـ فى مسائل كذا وكذا وكيت.. فهلا كان سأل الحاكم العسكرى أولاً عن رأيه قبل إعلان النبأ أمام البرلمان؟

وأعلن كذلك فى بيانه أن قوانين كذا وكذا سوف تصدر.. فهلا كان سأل الوزراء المختصين عن رأيهم... مثال ذلك وهو أمر سبب حرجا كبيرا للوزارة.. أنه أعلن فى بيان الميزانية ومن غير أن يستشير زميله وزير العدل أن البيوع الجبرية سوف توقف وصفق البرلمان طويلا لهذا النبأ.

ولقد حدث بعد أيام معدودة من إلقاء البيان أنه كانت هناك بيوع جبرية فى المحاكم المختلطة.. واستند المدينون الذين سوف تباع أملاكهم إلى ما جاء فى بيان وزير المالية أمام البرلمان.. ولكن المحاكم المختلطة قالت إن بيان الوزير لا يربطها لأن ما جاء فيه لم يصدر به قانون.

وفزع المدينون إلى وزير العدل.. وكان أن اضطر الوزير ـ صبرى أبو علم ـ إلى أن يتصل بالنائب العمومى لدى المحاكم المختلطة وبصفة شخصية ودية ويرجوه أن يتدخل وينقذ الوزارة من هذا الحرج.

واتفق الرأى على أن يحضر وكلاء النيابة جلسات البيوع الجبرية ويطلبوا التأجيل للاطلاع.. إلى أن يصدر القانون المطلوب.

* * *

وقال فؤاد باشا: إن بيان مكرم كان طويلا.. وكان النحاس يتململ ويظهر ضجره وامتعاضه من بعض ما جاء فى البيان.. ولما طال إلقاء البيان وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة مساء إلى الحادية عشرة.. هم النحاس باشا بمغادرة الجلسة «مجلس النواب» ولكننى ـ فؤاد سراج الدين ـ همست فى أذنه أنه لا يليق أن يغادر الجلسة قبل أن ينتهى مكرم من إلقاء بيانه.. وجلس.

ولما انتهى مكرم من إلقاء البيان قام إليه النحاس باشا من باب المجاملة ـ وقبله وقال له «برافو يا مكرم» فكانت تحية بل ومجهود يشكر عليه النحاس باشا.

ومضى الأستاذ فؤاد سراج الدين فى روايته فقال:

ـ وفى صباح اليوم التالى استدعى النحاس باشا مكرم وعاتبه على ما جاء فى بيانه من وعود وعهود قيد بها الوزارة من غير أن يستأذن أو يستأنس برأى أحد من زملائه الوزراء. فضحك مكرم وقال له:

ـ نبقى خالصين.. زى حكاية وزارة التموين فى خطبة العرش أى أن هذه مفاجأة لكم.. وتلك كانت مفاجأة لى.

ثم تكلم فؤاد سراج الدين عن مذكرة اللجنة المالية عن الاستثناءات التى كانت السبب المباشر فى إخراج مكرم من الوزارة فقال: إن النحاس ـ كما سبق الذكر ـ كان يعرف أن مكرم سوف يختار هذا الميدان بالذات فكان يستعجله رد وزارة المالية على طلبات الترقية المطلوبة فى وزارة الداخلية وكان مكرم يقول إنها لا تزال قيد البحث.. و«طول بالك يا باشا لأنى ألاقى صعوبة مع اللجنة المالية».

وأخيرا، قال له النحاس باشا: «ردوا علينا كما تريدون المهم ابعثوا ردكم بالرفض أو الموافقة علشان نقدر نتصرف.

وأخيرا جاءت المذكرة:

وكانت جريدة المقطم فى مساء الأربعاء.. وجريدة الأهرام فى صباح الخميس قد أشارتا إلى هذه المذكرة المقدمة من اللجنة المالية أنها تتضمن رفض الموافقة على الترقيات والاستثناءات المطلوبة.. وقد أغضب نشر الخبر النحاس باشا.

وكان الجو مكهربا. وكنا جميعا نخشى من الانفجار.. وتحدث بعض الوزراء فى هذا المعنى مع مكرم فأكد لهم أن المسألة مسألة «روتين» وأنه ليس فى نيته أى شىء خبىء.

ودخل الوزراء قاعة اجتماع مجلس الوزراء وقلوبهم واجفة وما دار فى الجلسة المذكورة مدون فى محضر الجلسة الذى نشر ببلاغ رسمى.

ولقد تصافى النحاس ومكرم فى ختام الجلسة - «وقد رويت التفاصيل» وظن الوزراء أن الجو صفا.

ولكن خاب ظننا فقد ذهب مكرم بنفسه إلى جريدة المصرى ومعه مذكرة اللجنة المالية يطلب نشرها. . ويلح ويتوعد ويهدد إذا لم تنشر.

وكان النحاس باشا قال أثناء جلسة الوزراء التى عرضت فيها المذكرة إن مذكرة اللجنة المالية هذه مقصود منها التشنيع عليه بالذات فقال له مكرم: «لو كنت عاوز يا باشا أشنع عليك كنت نشرت الأمثلة والأسماء».

وها هو قد نشر الأمثلة والأسماء فى المذكرة التى نشرت بجريدة المصرى فى يوم السبت التالى لانعقاد جلسة مجلس الوزراء. . وهكذا سقطت حجة مكرم فى عدم رغبته فى التشنيع على مصطفى النحاس.

* * *

وانتهى فؤاد «باشا» سراج الدين من حديثه الذى لخص فيه أسباب الخلاف بين النحاس ومكرم.

وبدأ حسنين «باشا» حديثه أو دفاعه عن نفسه. وعن سياسته فاستهل كلامه بعبارته «الأكليشيهية» المعروفة وهى أنه لا يشتغل بالسياسة ولا يفهم فى السياسة وقال - وهو يلتفت إلىَّ كأنه يستشهد بى:

«ومحمد يعرف كده! مش كده يا محمد؟».

وابتسمت وقلت بأه اسمع. . ماتحرجنيش وبلاش أسئلة علشان ما تسمعش منى أجوبة صريحة.

وضحك وضحكنا.

وبدأ الحديث ورواية التاريخ منذ عام ١٩٣٧. . وكيف أنه كان زاهدا «كذا» فى منصب رئيس الديوان وكيف أن الملك أرغمه على قبول هذا المنصب فى عام ١٩٤٠.

ثم شرح سياسته. . وقد سبق أن أفضت فيها وفى شرحها. ولكننى أعود فألخص هنا حديثه فيما يلى:

قال :

(١) إن سياسته قائمة على أن الأغلبية - وهى الوفديين - تحكم ، وهذه سياسته منذ أن ولى رئاسة الديوان أى منذ عامين .

(٢) إنه عمل ومن قبل أن يلى الوفديون الحكم على إقناع الملك بأن الوفديين قد سالموه . . لا طمعا فى الحكم وإنما اعترافا منهم بخطئهم فى الماضى «أى فى وزارة ١٩٣٧» .

(٣) إنه صارح حسين سرى والدكتور هيكل والسعديين بأن سياسته تقوم على أن يتولى الوفديون - وهم الأغلبية - الحكم . . بينما الأحرار الدستوريون والسعديون يقومون بمعارضة قوية نزيهة .

(٤) أسهب فى ذكر الخدمات التى أداها للوزارة الوفدية منذ تولت الحكم فى شهر فبراير الماضى . . وتحدث عن الصعاب العديدة التى ذللها من طريق الوزارة .

(٥) أفاض فى وصف إعجابه بذكاء وظرف زينب هانم الوكيل .

(٦) قارن بين الإشاعات السخيفة والتى لا يقوم دليل واحد على صدقها . . وهى الإشاعات التى يسمعها النحاس باشا ضده - ضد حسنين - وبين هذه الخدمات والحقائق البارزة التى دلل بها على حسن نواياه نحو النحاس باشا .

* * *

هذه هى خلاصة حديث أو دفاع حسنين أجملتها فى عبارات أو عناوين . . ولكننى أحب أن أذكر «طرائف» جاءت فى التفاصيل التى لم أذكرها .

كان حسنين عرض فى حديثه لمشروع البر والحفلات التى أقامتها زينب هانم للمشروع المذكور وقال : إن فاروق لم يحضر الحفلات المذكورة حرصا على التقاليد .

وهنا قلت أنا : إنه لو كان الملك حضر حفلة الشاى فى فندق مينا هاوس ، وجلس إلى جانب زينب هانم حرم رئيس الوزراء لكانت الخطوة الثانية المنطقية أن تدعى حرم رئيس الوزراء وزوجات الوزراء إلى حفلات السراى الرسمية وكن يومئذ

يختلطن بالمدعوين من سفراء ووزراء . . وهذا خرق للتقاليد . . ولكننا سوف نصل إليه قريبا وبالتدريج .

وهنا قال حسنين : إن الملكتين نازلي وفريدة تقولان : إنه لم تبق في مصر سيدة تلبس «اليشمك» سواهما . . وأن اللى عاوز يتفرج على حاجة أنتيكة في مصر يروح يتفرج عليهما وهما باليشمك .

* * *

ولقد عرض حسنين أثناء حديثه الطويل لعلى ماهر وذكر رأيه فيه وفي سياسته وقد عرضت لهذا كله .

وكان مما قاله : إن السيد على ماهر لم يهنئه على تعيينه رئيسا للديوان . ولكنه أرسل إليه الأستاذ ناصر شاويش يقول له : «إن على ماهر باشا لم يحضر لتهنئتك لأنه مش عاوز ييجى السراى خوفا من أن يرى وجه عبد الوهاب طلعت» .

ثم قال حسنين : ولقد كان عبد الوهاب طلعت الذراع اليمنى لعلى ماهر . . ولكنه ـ بعد خروج على ماهر من رياسة الديوان ومن الوزارة ـ راح يطعن فيه ويشهر به أمام جميع الكبراء الذين كان يلقاهم .

ثم ذكر لنا حسنين كيف أن على ماهر ـ بالرغم من ذلك ، وبالرغم من طعن وتشهير عبد الوهاب طلعت ـ كان لا يتردد في الاستعانة بعبد الوهاب طلعت على الدس لحسن صبرى لدى فاروق حتى إن حسن صبرى ـ رحمه الله ـ مات محصورا مجزورا من على ماهر .

وقد قال حسنين هذه العبارة وهو يمر بيده على رقبته ليرينا كيف ذبح على ماهر المرحوم حسن صبرى باشا .

وروى لنا تفاصيل آخر دسيسة أو الدسيسة التي قضت ـ في زعمه ـ على حياة حسن صبرى باشا ـ رحمه الله .

قال : حدث قبل افتتاح الدورة البرلمانية في نوفمبر عام ١٩٤٠ «وكان حسن صبرى باشا رئيسا للوزارة» أن ذهب إليه أحد الوزراء وهو الدكتور عبد الحميد

بدوى باشا واقترح عليه مراعاة لظروف الحرب الاقتصاد فى مظاهر الأبهة والفخامة والبهرج والموكب الملكى والزينات والأعلام . . إلى آخره وأن يكتفى بأن يلقى رئيس الوزراء - أى حسن صبرى - خطبة العرش بالنيابة عن الملك ومن غير حضور الملك .

وسرعان ما طار خبر هذا الاقتراح إلى السراى ودخل على فاروق من صور له الأمر على أنه خيانة عظمى «لصاحب الجلالة» .

وأصبح حسن صبرى متهما بالخيانة العظمى . . ولكن عبد الحميد بدوى ذهب إلى حسنين وقال له فى صراحة تامة إنه هو صاحب الاقتراح وأن حسن صبرى لم يقبل اقتراحه على علاته بل طلب منه أن يتحدث فيه مع رئيس الديوان .

وعرف فاروق أن حسن صبرى مظلوم . . فقلده بيده وقبيل حفلة افتتاح الدورة البرلمانية الوشاح الأكبر من نيشان محمد على .

وتوفى حسن صبرى بعد ذلك بخمس وعشرين دقيقة .

* * *

وكان الساسة من خصوم الوفد ومصطفى النحاس يرون أن رئيس الديوان أحمد محمد حسنين لم يعرف أن ينتهز فرصة هذا الخلاف الذى نشب فى صفوف الوفد وفرق بين رئيسه مصطفى النحاس وسكرتيره العام مكرم عبيد . . وأنه كان من واجب حسنين باشا أن ينتهز الفرصة ليطوح بالوزارة كلها وينتقم لحادث ٤ فبراير .

وكان من بين أصحاب هذا الرأى السيد على ماهر «باشا» الذى كان معتقلا يومئذ فى السرو . . فقد قابلت أحد أصدقاء على ماهر فى جريدة الأهرام وقال لى : إن محمد على ماهر زار أباه على ماهر فى معتقله بالسرو وقد وجد أباه مسرورا جدا من تطور الحوادث - أى من الخلاف الذى وقع فى صفوف الوفد - وقد قال له أبوه على ماهر باشا : «لو كنت اليوم رئيسا للديوان لكنت طيرت مصطفى النحاس من الوزارة فى ٢٤ ساعة . . ولكن فى رئاسة الديوان دلوقت واحد خرنج» .

و«خرنج» معناه عبيط أو معتوه ضعيف . . وكان يقصد حسنين باشا . . وكان من رأى على ماهر باشا أنه كان يجب على «الخرنج» أحمد حسنين أن يشير على الملك

فاروق يوم قدم إليه النحاس باشا استقالة الوزارة باستدعاء زعماء الوفد ـ وزعماء الأحزاب الأخرى لاستشارتهم فى الموقف على أساس أن هناك انشقاقا فى الوفد وهو الهيئة التى تستند إليها الوزارة فى الحكم . . ثم يشير على الملك بإخراج النحاس ومكرم معا من الوزارة .

ولكن «الخرنج» لم يعرف كيف ينتهز هذه الفرصة . . وقال لى صديق على ماهر باشا إنه يقول كذلك . . «التابعى كف عن الكتابة عنى لأنه أحس بأن الرأى العام معى» .

وقلت أنا : كلا . . لقد كففت عن الكتابة عن رفعته لا لأن الرأى العام معه كما يقول . . بل لأنه معتقل الآن ولا حول له ولا قوة .

* * *

وفى مقابلة أخرى قال لى بعض أصدقاء على ماهر باشا : إنه يشكو من آلام شديدة فى أسنانه . . وأنه يصرخ أحيانا من شدة الألم ويقسم على أنه سوف ينتقم من مصطفى النحاس الذى اعتقله ويعلن أنه سوف يحاكمه أمام محكمة عسكرية بتهمة الخيانة العظمى وأن المحكمة سوف تحكم على مصطفى النحاس بالإعدام .

وكانت الإشاعات الذائعة يومئذ فى دوائر القصر وبين أنصار وأصدقاء على ماهر أن رفعته هو المرشح الوحيد لرياسة الوزارة بعد دخول جيوش المحور مصر . . وهزيمة الجيش البريطانى وانسحابه من مصر . . وكان الرأى السائد يومئذ أن الإنجليز لا بد مغلوبون على أمرهم وأن روميل سوف يدخل مصر .

الماريشال روميل على أبواب مصر

وكان روميل قد بدأ يتحرك فى شهر يناير.

ومضت المعارك مائعة بقية فصل الشتاء.. فلما أقبل الربيع بدأت الحالة تتطور بسرعة فى مصلحة جيش المحور ـ ألمانيا وإيطاليا ـ وضد صالح بريطانيا وحلفائها.

ومُنِىَ الجيش البريطانى بسلسلة من الهزائم. لعل أشدها وأخطرها كانت معركة جسر الفرسان التى خسر فيها الجيش البريطانى معظم دباباته وانسحب تاركا الطريق مفتوحا أمام الماريشال روميل.

وأحس كل من فى مصر أن الحالة خطيرة جدا.. فقد سقطت طبرق الحصن المنيع بدون مقاومة تذكر.. ومن بعدها سقطت الضبعة.. واحتل الجيش الألمانى السلوم.. وزحفت طلائعه نحو مرسى مطروح.. والإسكندرية.

وفى صباح السبت ٢٧ يونيه ١٩٤٢ ـ وكانت الشائعات المزعجة تملأ البلد ـ زرت حسنين فى داره فلم أجده.. وقيل لى إنه ذهب يعود ابنه هشام فى المستشفى فقد أجريت له عملية الزائدة الدودية.. وانتظرت حتى حضر حسنين وقلت له إننى سألت هذا الصباح وزير العدل صبرى باشا أبو علم عما إذا كان النحاس باشا قد أبلغ جلالة الملك تطورات الموقف فى الصحراء الغربية وأعطاه صورة صحيحة عن الحالة. أم تركه يستقى الأخبار من الخارج كما حدث يوم إغلاق الحدود.. وهل هو مثلا أبلغ الملك تفاصيل ما دار فى الاجتماع الذى عقده «رفعته» فى يوم الاثنين الماضى ٢٢ يونيه مع السفير مايلز لامبسون والجنرال ستون؟.. وأن صبرى أبو علم باشا قال لى: إن النحاس باشا قد أدى فى هذه المرة واجبه وإنه أبلغك ـ أنت يا حسنين باشا ـ كافة التفاصيل.

قلت هذا لحسنين فابتسم بمرارة وقال: أبدا!

ثم مضى يقص علىّ التفاصيل.. قال:

ـ عرفت أن النحاس باشا عقد اجتماعا مع من ذكرت وانتظرت أن يتصل بى فور انتهاء الاجتماع ولكنه لم يفعل ومضى العصر.. ثم المغرب.. وأقبل الليل ورفعته لم يتصل بى.. وسألنى الملك: «هل اتصل بك رئيس الوزراء؟ فقلت: كلا.. ولعله يجمع الأخبار والتفاصيل وكل ما يمكن جمعه لكى يعطينا صورة كاملة عن الموقف».

.. «ولكن هذا كان فى الحقيقة اعتذاراً منى عن النحاس باشا لأننى كنت أنتظر أن يتصل بى ويطلب مقابلة الملك لكى يبلغه ما حدث. ولكن الذى حدث أن رفعته أصدر بلاغا رسميا عن الاجتماع المذكور.. ونشرت الصحف البلاغ.. وكان ذلك قبل أن يطلع الملك على شىء ما».

وهكذا قرأ الملك البلاغ الرسمى فى الصحف مثل سائر الناس ومضى حسنين باشا فى روايته يقول:

«وفى صباح اليوم التالى لم أستطع صبرا.. والواقع أننى أهملت أو تهاملت فى أداء واجبى كرئيس للديوان لأنه كان يجب علىّ أن أتصل بالنحاس باشا قبل ذلك وأسأله.. ولكننى راعيت الذوق الحسن فلم أفعل.. ولكنى وجدت أنه لم يبق موجب للذوق.. فكلمت بالتليفون أمين عثمان باشا وبسطت له وجهة نظرى.. وبعدها بقليل اتصل بى النحاس باشا وقال لى: «إنت فين؟ أنا بافتش عليك».. وكلمنى كلاما عموميا عن الحالة وأنها مطمئنة. وسألنى ما إذا كنت أريد أن أقابله فقلت له: نعم أحب أن أقابل رفعتك.. قال: «بس أنا عندى برلمان النهاردة» قلت له: «إذن ففى أى وقت يناسبك».. ثم حدثنى عن البيان الذى سيلقيه فى البرلمان وسألنى هل يرسل لى نسخة منه فقلت: وأكون شاكرا لو فعلت..».

وهكذا انتهى حديث النحاس باشا معى بالتليفون.. وبعدها بقليل كلمنى أمين عثمان بالتليفون وقال لى: «إنت مش عايز تقابل النحاس باشا؟».. فقلت له: «إزاى.. بالعكس.. أنا عاوز أقابله»، «قال: «هوه فهم كده».. فقلت: «فهم

غلط . . وأنا غـايته أحـببت أن لا أربطه بموعـد أو ميـعـاد وتركت لـه اختـيـار الوقت المناسب».

واتفـقنا على مـوعـد المقـابلة ثم أبدى حـسنين بـاشـا رأيه فى البـيـان الـذى ألقـاه النحاس باشا فى البرلمان فقال : إنه فيما عدا تلات أو أربع نقط فإن البيان المذكور يبدو كأنما قد كتب فى السفارة البريطانية وإنها لعجيبة أن يقول النحاس باشا فى بيانه إنه مطمئن بينما الإنجليز أنفسهم يسمون ما حدث «كارثة» ويصفون الحالة بأنها خطيرة وجرائد اليوم تقول نقلا عن جرائد لندن أن الزحف الألمانى لو أوقف يكون هبة من الله . . ومع ذلك فإن النحاس باشا يقول إنه مطمئن.

* * *

ولم يقل النحاس باشا فى أول الأمر لحسنين أكثر مما جاء فى البيان الذى ألقاه أمام مجلسى البرلمان وهو أن الحالة مطمئنة وأن الإنجليز سوف يدافعون عن مصر . . إلى آخر مدى . . ولقد حاول حسنين أن يعرف من النحاس باشا حدود «هذا المدى» وهل هو يقف مثلا عند مرسى مطروح؟ أم أن الدفاع «إلى آخر مدى» معناه أن الحرب سوف تجرى فى داخل البلاد؟

ولكن النحاس باشا رفض المناقشة فى إمكان وقوع هذا الاحتمال . . وهنا يقول حسنين رحمه الله . . «قلت له : نفرض . . لا قدر الله . . لا سمح الله . . يعنى لو دخل الألمان مرسى مطروح أو . . لو زحفوا بعدها ! . . ».

ولكن النحاس باشا قال : مش ممكن .

وعاد حسنين باشا يقول : «يعنى لا سمح الله . . لا قدر الله . وربنا ما يقدر . . إنما يعنى لو حصل . . ».

فقال النحاس باشا : «يمكن نخلى المدنيين ساعتها يتركون المدن إلى القرى . . ».

يعنى الحرب تدخل مصر . . وهذا هو الخراب .

* * *

وكان حسنين يروى لى تفاصيل هذا الحديث وهو منفعل وحائر فى فهم عقلية

النحاس باشا . . وكيف أنه أصبح آلة فى يد الإنجليز . . وقد تحدث حسنين طويلا فى هذا المعنى وكان مما قاله : «النحاس باشا فى يد الإنجليز خالص» لأنه يعرف أنه لو كان الأمر بيد البلد لما بقى فى رياسة الوزارة خمس دقائق .

ثم انتقل حسنين بالحديث إلى الشائعات التى تقول بأن الجيش الإنجليزى فى الصحراء الغربية لا يريد أن يحارب . . وقارن بين موقفهم اليوم وموقف الجنود الإيطاليين أيام الجنرال «ويفل» أيام كان جنود بريطانيا تحارب بشجاعة . . وجنود إيطاليا يهربون . . وها هى ذى الآية قد انعكست . . فأصبح الإنجليز يهربون وجنود إيطاليا وألمانيا وراءهم . . ثم قال : إن طيارا إنجليزيا كان زاره فى داره وورطه حسنين فى الحديث حتى اعترف له بأن هناك أمرا مريبا فى استسلام حصن طبرق الحصين فقد قال : There is something fishy . وإن هذا الشيء المريب ـ كما قال حسنين ـ هو أن الجيش البريطانى رفض أن يقاوم وسلم للألمان من غير قتال ومضى حسنين يقول :

ـ فإذا كانت هذه هى الحالة فكيف يكون النحاس مطمئنا كما يقول؟ . . بل لعل روميل على علم بحقيقة الحالة وانهيار معنوية الجيش البريطانى ولهذا السبب نراه يسرع فى زحفه حتى لا يعطى الإنجليز فرصة لجمع جموعهم ولمّ شملهم . . وقد لا يبعد أن يدخل علىّ ـ فى أى وقت ـ فى مكتبى ضابط ألمانى يرفع يده بالتحية ويقول . . هيل هتلر؟

ومضى حسنين «باشا» فى حديثه فقال فى معرض التدليل على خطورة الحالة التى يصر النحاس باشا على وصفها بأنها «مطمئنة» قال : إن هناك خطا قد أنشئ بين أمريكا ومصر لنقل الصورة الفوتوغرافية باللاسلكى وقد افتتحه مستر روزفلت بإرسال صورة له مع محمود «بك» حسن وزير مصر المفوض فى واشنجطون وقد نشرت الصحف المصرية الصورة المذكورة . . ورئى بعدها أن ترسل القاهرة ردها على هذه التحية إلى واشنجطون بإرسال صورة الملك فاروق مع مستر كيرك وزير أمريكا المفوض فى القاهرة .

ثم قال حسنين :

ـ ووقفت منذ أيام فى إحدى الحفلات أتحدث مع مستر كيرك فى مسائل عادية

فقلت له: إننى زرت أمريكا منذ سنوات . . وتعرفت برجالها وقلت لهم يومئذ: إن أمريكا سوف تأخذ فى يوم مكانها فى قيادة العالم والمدنية الحديثة وإننى لسعيد لأن نبوءتى قد تحققت . . وكنت أظن أن مستر كيرك سوف يسر بكلامى هذا أو يعلق عليه بشىء ما ولكن الرجل ظل شارد الذهن ينظر إلىّ بعينين «فارغتين» وكأنه لا يسمع حرفا مما أقول . . ذلك لأنه كان يدرك خطورة الحالة ومدى الكارثة التى حلت بجيش الحلفاء فى الصحراء الغربية . . بينما أنا لم أكن قد أدركت بعدُ هذه الحقيقة ومع ذلك فإن النحاس يقول إن الحالة (مطمئنة).

وعلا صوت حسنين وهو يقول:

- بأه دى بلد . . البلد كلها تهتز علشان النحاس اختلف مع مكرم . . ومفيش حديث فى البلد كلها إلا عن خلاف مكرم والنحاس . . بينما الألمان على أبواب البلد والبلد مهددة بالخراب إذا قرر الإنجليز المقاومة فى دلتا النيل وريف مصر.

* * *

ثم عاد حسنين وتحدث عن عقلية النحاس «باشا» فقال إنه قابله فى اليوم التالى لسقوط طبرق فى أيدى الألمان وكان ينتظر أن يحدثه النحاس «باشا» عن هذه الكارثة المروعة التى وقعت بالإنجليز وفتحت أمام الألمان الطريق إلى الإسكندرية . . ولكن النحاس باشا سأله عن براءات رتبة الباشوية للوزراء ولماذا لم يرسلها الديوان حتى الآن؟ . . وقال له حسنين: إن البراءات أرسلت فعلا ولكن النحاس أنكر وصولها . . فأكد له حسنين أنها أرسلت يوم كذا . . وهنا استدعى النحاس «باشا» الدكتور محمد صلاح الدين وسأله فى هذا فقال صلاح الدين: إن البراءات قد وصلت حقيقة . . وضحك النحاس «باشا» وقال لحسنين: «شوف إزاى أنا مش عارف؟ . . البراءات عندى ومش عارف . . وكنت كلمت الملك عنها . . حتى ونكتّ معاه وقلت له أيوه خلوها عندكم علشان أضحك على الوزراء وأغيظهم وأقول لهم البراءات مش جاية وإنتم مش باشوات».

ثم تحدث حسنين عن دقة وحرج مركزه وكيف أنه يخشى أن يقال عنه «طابور

خامس» ومن ثم يعرض مركز الملك للخطر إذا ذهب مثلا وطلب من السفير البريطانى ضمانات على عدم جر الحرب إلى القاهرة ودلتا النيل . . أو طلب منه تفسيرات لعبارة «المقاومة إلى آخر مدى . . » كذلك إذا أشار على الملك بدعوة زعماء البلد واستشارتهم فى الموقف فإنه يخشى أن يقول الإنجليز أن «فاروق» قد بدأ يستعد لتأليف وزارة ممالأة للمحور .

وهز حسنين كتفيه وقال إنه حاول أن يجس نبض الزعماء فاجتمع مع بعضهم وتحدث معهم فى الموقف وخطورته وصواب الحصول على ضمانات بعدم تعريض البلد للخراب ولكن أحدا من الزعماء ـ ولا النحاس نفسه ـ يقبل أن يخطو هذه الخطوة فيقابل السفير البريطانى ويحدثه فى هذا الموضوع . . لأنهم جميعا يخافون من غضب الإنجليز وشكوكهم . . أو غضب الألمان وانتقامهم .

ثم قال بانفعال :

ـ ودينى وما أملك لقد تحققت من أن البلد دى كلها مفيش فيها راجل واحد . . وأقسم بربى لو الحالة صفيت وربنا أنقذ البلد وأعطانى الملك «كارت بلانش» فى تأليف الوزارة فإننى لن أختار ولا واحدا من هذا الطقم أبدا . . بل سوف أعمل وزارة من الشباب . . وأنا متأكد أنهم غلطوا فإن غلطاتهم تبقى أرحم بكثير من غلطات حضرات الزعماء الكبار .

ثم قال بمرارة :

ـ زعماء إيه يا شيخ ؟ . . دول مفيش فيهم ولا راجل واحد . . وفهمت من حديثه ـ تلميحا واستنتاجا ـ أن النحاس «باشا» وقد تورط إلى أبعد حد فى تأييد الإنجليز والدعوة والدعاية لهم ليس بالرجل الذى يمكن أن يتفاهم معه الألمان إذا دخلوا البلد . . أو الرجل الذى يمكنه أن ينقذ ما يمكن إنقاذه . . وأن واجب النحاس «باشا» إذن هو أن يتخلى من تلقاء نفسه عن الحكم حتى يخلى السبيل لقيام وزارة أخرى لم يتورط رئيسها وأعضاؤها مع الإنجليز إلى هذا الحد . . ومن ثم يمكنها إلى حد ما أن تتفاهم مع الألمان . ثم قال ـ ولا أدرى هل هذا هو رأيه شخصيا أم رأى فاروق وقد اقتبسه فى حديثه ـ قال : إننا

شعب مستعبد فأين هى الوزارة التى تستطيع أن تودع الإنجليز إذا خرجوا . . وتستطيع أن تستقبل الألمان إذا دخلوا؟ . . وتقول للإنجليز . . وداعا يا أسيادى . . ثم يقول للألمان . . أهلا وسهلا يا أسيادى.

قال : يجب إعداد هذه الوزارة.

* * *

قلت له : لقد عرضت عليك رئاسة الوزارة ثلاث مرات ورفضتها ولكنى أظن أن واجبك الآن أن تتولى الحكم وساعتها تقدر تكلم الإنجليز وتتفاهم معهم على عدم خراب البلد.

قال : إن الإنجليز يتهموننى بأن سياستى «ماكيافيلية» فلن يطمئنوا إلى. إن واجبى هو أن أبقى إلى جانب الملك.

قلت : ما إنت برضه جنب الملك وإنت رئيس وزارة؟

ولكنه ـ ومن غير أن يتكلم كثيرا ـ راوغ فى الرد. وقدرت أنه إما أنه خائف مشفق من المسئولية . . وإما أننى أصبت الهدف عن غير قصد وكانت منى رمية من غير رام . . أى أنه قد فكر فعلا وقدر هذا الاحتمال وهو أن يتولى رئاسة الوزارة ولكنه لا يريد أن يقولها لى الآن.

. . أو احتمال ثالث وهو أن رئاسته للوزارة لا تفيد الملك فى شىء لأنه منسوب أو محسوب على الملك فكل خطوة منه سوف تفسر عند الإنجليز بأنها إيعاز من فاروق . . وأنه يمهد لدخول الألمان . . أو أنه على الأقل يعمل بتصرفاته وخطواته هذه على نشر الفزع والقلق وروح الهزيمة فى البلد.

وأراد حسنين ـ رحمه الله ـ أن يتخلص من الحديث فى هذا الموضوع وقد أحس بالحرج فقال :

ـ وهناك أمر عندما أفكر فيه ترتجف ركبتاى . . وهو أن الإنجليز إذا اضطروا إلى الانسحاب من مصر فقد يأخذون معهم الملك.

قلت : هذا أمر محتمل جدا . . ويبقى زى الملك بطرس ملك يوغوسلافيا

وجورج الثانى ملك اليونان وساعتها يتخذه الإنجليز مادة للدعاية ويقولون إنه انضم إليهم وترك مصر هاربا من طغيان الألمان . . ويذيعون بيانات ونداءات باسمه .

ثم قلت : ولماذا لا يفكر الملك فى الهرب ساعة الخطر . . ثم يعود إلى مصر بعد دخول الألمان؟

قال : مش ممكن لأن الملك تحت الرقابة الشديدة .

قلت : وهل بلغ الأمر إلى هذا الحد؟

قال : نعم . . للأسف لا يجد أحدا يطمئن إليه . . حتى ولا حكومته لأنها ضالعة مع الإنجليز . ثم قال : ونفرض أن الملك استطاع الهرب . ثم حدثت بعدها معجزة وأمكن للإنجليز صد زحف جيوش روميل يبقى مركز الملك فاروق إيه بعد أن هرب؟ . . لن يستطيع العودة إلى مصر . . إن الصعوبة هى فى تحديد اليوم أو الموقف الذى يصح للمرء أن يقول فيه إن كل أمل للإنجليز فى كسب المعركة قد ضاع وإنهم لا بد أن يخرجوا من مصر . . وإن هذه هى الساعة . . أو هذا هو اليوم . . كيف نحدده؟

قلت : يوم يجتاز الألمان خطوط مرسى مطروح؟

قال : كلا . . فلو فرضنا واستولى الألمان على مرسى مطروح فإن الإنجليز ينوون مواصلة الدفاع . . ومنه تدمير خزان أسوان وقناطر «محمد على» لكى يغرقوا أراضى الدلتا ويجعلوها بحرا من الطين تغوص فيه دبابات الألمان .

قلت : كلام فارغ . . مرسى مطروح إذا ضاعت . . ضاع كل شىء . ولا بد يومئذ من انسحابهم ودخول الألمان .

قال : يعنى راية الخطر . . الراية الحمراء هى سقوط مرسى مطروح؟

قلت : نعم . . دون شك .

وسكت حسنين يفكر قليلا .

وقلت : ومن يعرف . . إذا تمكنوا من حمل الملك معهم قسرا . . فربما صحبوا

معهم أيضا النحاس ووزراءه لتكوين حكومة مصر «الشرعية أو الحرة» خارج مصر مثل حكومات بولنده والنرويج وهولنده . . . إلى آخره .

قال : صحيح .

* * *

وانهارت تماما مقاومة الإنجليز فى الصحراء الغربية . . وسقطت خطوط دفاعهم الواحد بعد الآخر وكان الجنود الألمان يجدون مشقة فى اللحاق بالجنود البريطانيين بسبب سرعة انسحابهم .

وسقطت مرسى مطروح فى أيدى الألمان . .

وتقدمت بعدها قوات المحور . . ثم توقفت بسبب نفاد الوقود أو البترول الذى لا غنى عنه فى حرب الدبابات . . وكان توقفها عند «عنق الزجاجة» الذى اختاره البريطانيون خطا لدفاعهم الأخير قبل الإسكندرية .

وكان «عنق الزجاجة» هذا ـ أو خط الدفاع ـ يمتد ما بين البحر عند محطة العلمين ومنخفض القطّارة ويبعد عن المكس ـ إحدى ضواحى الإسكندرية ـ بنحو أربعين كيلو مترا .

وبدأ أهالى الإسكندرية يسمعون دوى المدافع وهى تطرق أبواب دلتا النيل . . وساد الذعر والرعب والفزع وخصوصا بين يهود مصر الذين أسرعوا إلى بضائعهم المكدسة فى المخازن يعرضونها للبيع بأرخص الأسعار . . وكان المارة فى شارع جامع شركس بالقاهرة يشاهدون يومئذ عشرات منهم يحاصرون قنصلية بريطانيا ليحاولوا الحصول على «فيزا» أو إذن بدخول فلسطين أو جنوب أفريقيا .

كانت بحق أيام الذعر والفزع وكان من الصعب أن يصدق أحد أن شيئًا ما سوف يوقف الزحف الألمانى ويحول دون دخولهم الإسكندرية والقاهرة .

اللهم إلا إذا وقعت معجزة . . ولكن سلطات الحلفاء أنفسهم لم تكن ـ فيما يظهر ـ تؤمن أو حتى ترجو يومئذ وقوع هذه المعجزة . . فقد كان المارة فى ميدان قصر الدوبارة والشوارع المحيطة به يرون أعمدة الدخان تتصاعد من مداخن السفارة

البريطانية والسفارة الأمريكية وبعض المبانى والدور والعمارات التى كانت تشغلها إدارات مختلفة تابعة لقيادة الجيش البريطانى.

وكانت أعمدة الدخان تتصاعد ليلا ونهارا.. أياما متوالية.. وعرف سكان القاهرة أن رجال السفارتين والقيادة البريطانية يحرقون أوراقهم السرية استعدادا لمغادرة القاهرة.

وسافر بعض كبار الماليين والأدباء والصحفيين ممن كانوا يحملون يومئذ على هتلر والنازية.. أو كانت لهم علاقات بمجهود بريطانيا الحربى.. سافروا إلى أسوان ومنها إلى الخرطوم.

وقابلت ذات صباح الأستاذ محمود أبو الفتح وسألنى:

- راح تودى فلوسك فين؟

قلت: فلوسى كلها أحملها فى جيبى.

وابتسم وقال إنه أرسل «فلوسه» إلى جنوب أفريقيا. وفى مساء نفس اليوم - وكنت فى جريدة الأهرام أسأل عن آخر - الأخبار سألنى رئيس التحرير الأستاذ أنطون الجميل «باشا» ماذا يفعل بأمواله المودعة فى البنوك؟

وقلت له: إن محمود أبو الفتح أرسل أمواله إلى جنوب أفريقيا... وابتسم رحمه الله بمرارة وقال:

- وهو يعنى جنوب أفريقيا اللى مأمون ومضمون..

وكان الأستاذ أنطون الجميل يعتقد أنه إذا سقطت مصر فى أيدى الألمان فلن يقف بعدئذ شىء فى طريقهم.. بل سوف يكتسحون وادى النيل إلى جنوب أفريقيا.. ويشقون طريقهم شرقا - كما تشق السكين طريقها فى قالب الزبد - عبر فلسطين ولبنان وسوريا والعراق.

وقص على المرحوم الأستاذ توفيق دوس باشا المحامى ورئيس مجلس إدارة شركة الفنادق المصرية.. قال:

- وذات صباح دق جرس التليفون فى مكتبى وإذا بالمتكلم أحد رجال السفارة

البريطانية وطلب منى باسم السفارة واسم القيادة البريطانية أن أعمل فى ظرف ٢٤ ساعة لا أكثر على فتح وإعداد فندق «ونتر بلاس» بالأقصر. وكان الفندق المذكور مغلقا يومئذ لأننا فى الصيف ـ شهر يوليه ـ والفندق لا يفتح إلا فى موسم الشتاء.

وقلت للمتحدث باسم السفارة والقيادة إن هذا مستحيل.. لأنه يجب أولا جمع عشرات الخدم والسفرجية والطهاة.. إلى آخره، لتنظيف الفندق وإعداده.. ولكن المتحدث قاطعنى قائلا أن لا ضرورة لشيء من هذا.. بل لا ضرورة لوجود أى خدم أو سفرجية على الإطلاق.. لأن البنات سوف يقمن بتنظيف الفندق وخدمة أنفسهن بأنفسهن.. بل وطهى طعامهن.. والمهم هو فتح الفندق فورا لأن قطارا خاصا يغادر القاهرة مساء اليوم وهو يحمل خمسمائة من فتيات «الانسا» والمجندات البريطانيات إلى الأقصر.. ومنها ـ إذا لزم الأمر ـ إلى الخرطوم.

قال توفيق دوس باشا:

ثم ضحك محدثى من السفارة البريطانية وهو يقول: ولعلك توافق على أنه من غير المرغوب فيه أن نترك وراءنا فى القاهرة كل هذه المتعة وأسباب السرور غنيمة للجنود الألمان.

* * *

وفتيات «الانسا» فرقة كانت مخصصة للترفيه عن الجنود البريطانيين فكانت تقيم لهم فى مختلف المعسكرات الغناء والموسيقى والتمثيل.

إذن فقد كان الخطر خطرا حقيقيا.. لا مبالغة فيه.. وها هى ذى السلطات العليا التى تعرف الحقائق تحرق أوراقها.. وتسرع وترسل الفتيات البريطانيات المجندات بعيدا عن القاهرة ـ الميئوس من إنقاذها ـ إلى الأقصر منطقة الأمان ولو إلى حين.

ثم انتشرت إشاعة تبين فيما بعد أنها خبر صحيح.. وفحواها أن السلطات البريطانية العسكرية طلبت بإلحاح من الحكومة المصرية إغراق غرب الدلتا أو مديرية البحيرة وما إلى جنوبها.. لكى تحول هذه الأراضى إلى بحر من الطين تغوص فيه دبابات الجيش الألمانى وعربات النقل وسياراته ومدرعاته ومصفحاته.. وتعرقل زحف روميل على دلتا النيل.

وبدأت ألوف من المهاجرين تفد على القاهرة من الإسكندرية والبحيرة وشمال الدلتا. . وأرسل الضابط المصرى قائد منطقة الإسكندرية خطابا سريا إلى وزارة الحربية المصرية فى القاهرة. . يسألها فيه عما يجب عليه عمله فى حالة دخول قوات المحور من الألمان والإيطاليين. . هل يجب عليه أن يقاوم هو وجنوده. . أم يستسلم ويسلم سلاحه وذخيرته. . ؟

وعرض الخطاب أو السؤال المذكور على وزير الحربية يومئذ المرحوم الفريق حمدى سيف النصر باشا فقال:

ـ ماتردوش عليه.

ولكن قائد الإسكندرية عاد وأرسل بعد يومين رسالة أخرى كتب عليها «مستعجل جدا» ويكرر فيها نفس السؤال ويلح فى الجواب.

ولما عرضت هذه الرسالة الثانية على وزير الحربية صاح:

ـ انقلوا ابن. . ده من إسكندرية وأرسلوه حتة تانية وابعثوا واحد تانى محله. . هو عاوز يودينى فى داهية.

ذلك أن حمدى باشا ـ رحمه الله ـ كان يخشى إذا أمر قائد الإسكندرية بالمقاومة ثم دخل الألمان. . أن يحاكمه الألمان أمام مجلس عسكرى. . وإذا أمره بالاستسلام للألمان ثم نجح الإنجليز فى صد الألمان. . أن يحاكمه الإنجليز بتهمة الخيانة.

ومن هنا رفض أن يرد على رسالة قائد منطقة الإسكندرية.

وفى هذا الجو من التوتر والفزع. . اجتمع مجلس الوزراء برياسة «صاحب المقام الرفيع» مصطفى النحاس باشا وقال رفعته فى بداية الاجتماع إنه رأى بسبب خطورة الحالة وتطورها السريع أن يدعو المجلس للنظر فيما يجب عليه اتخاذه لتأمين سلامة البلاد.

بينما كان «رفعته» يؤكد منذ أيام قلائل أن الحالة «مطمئنة»! وبعد أن تناقش الوزراء طويلا فى الموقت وقدروا جميع الاحتمالات قرروا أن يرسل مجلس الوزراء خطابا بإمضاء «رفعة» رئيس الحكومة إلى الماريشال روميل.

وعهدوا إلى الأستاذ نجيب الهلالى «باشا» بوضع صيغة الخطاب المذكور. وكتب

الأستاذ الوزير الأديب الخطاب المذكور، وقد تكون صورة من هذا الخطاب التاريخى محفوظة فى سجلات مجلس الوزراء.

وقد جاء فى الخطاب . . أن مصر دولة غير محاربة وأن جميع الإجراءات العسكرية التى اتخذتها السلطات العسكرية البريطانية فى مصر قد تمت كرها أو على غير رغبة من الحكومة المصرية.

وأن مصر حكومة وشعبا تحب السلام وتستمسك به. وأن حكومة مصر قد اتخذت الآن جميع الإجراءات لحفظ الأمن والحيلولة دون وقوع أية اضطرابات.

* * *

وهذه هى خلاصة الخطاب المذكور كما استقيتها من أوثق المصادر.

واتفق رأى مجلس الوزارء على أن يكون رسولهم الذى يحمل هذا الخطاب إلى الماريشال روميل هو محافظ الإسكندرية وكان يومئذ عبد الخالق حسونه «باشا» الأمين العام ـ الآن ـ لمجلس جامعة الدول العربية.

ونزولا على حكم «البروتوكول» والعرف والتقاليد. . وتقديرا لخطورة الحالة وخطورة المهمة قرر المجلس أن يعهد إلى أكبر أعضائه سنا وأقدمهم عهدا بالمنصب الوزارى وهو عثمان محرم «باشا» بالاتصال بمحافظ الإسكندرية عبد الخالق حسونه باشا. . ليبلغه خبر المهمة الجليلة الخطيرة التى يعهد بها إليه مجلس الوزراء!

واتصل عثمان محرم باشا بمحافظ الإسكندرية عبد الخالق حسونه باشا وأبلغه قرار مجلس الوزراء وقال: إن خطاب رفعة النحاس باشا إلى الماريشال روميل سوف يرسل إليه مع رسول خاص.

ولا بد أن السيد عبد الخالق حسونه فغر فاه دهشة وهو يتلقى تفاصيل هذه المهمة العجيبة التى يكلفه بها مجلس الوزراء.

ولكنه سأل وزير الأشغال:

ـ وكيف السبيل للوصول إلى الماريشال روميل وتسليمه خطاب رئيس الحكومة؟

وأجاب عثمان محرم باشا :

ـ تركب يا أخى سيارتك وتخرج بها إلى أن تقابل روميل وهو قادم فى طريقه إلى الإسكندرية .

وهنا لم يستطع السيد عبد الخالق حسونه أن يخفى السخرية من لهجته وهو يسأل أو يتساءل :

ـ هل حصلتم يا معالى الباشا من الجيش الإنجليزى على تصريح لى بالمرور بسيارتى؟

وسكت «معالى» الباشا الوزير . .

وعاد محافظ الإسكندرية يقول :

ـ إن بينى وبين الوصول إلى الجيش الألمانى قوات الجيش البريطانى المنتشرة على طول الخط . . وهناك كذلك أسلاك شائكة وحقول ألغام . . ثم ليس من الضرورى أن يكون الماريشال روميل موجودا فى مقدمة جيشه . . فقد يكون فى مقر قيادته فى المؤخرة وراء الخطوط . . وسوف يلزمنى فى هذه الحالة جواز أمان من القيادة الألمانية بخلاف جواز المرور والأمان من القيادة البريطانية . . فهل فكرتم فى هذا كله يا معالى الباشا؟

وضاق صدر عثمان محرم باشا بكل هذه الأسئلة وهذه الاعتراضات التى أثارها محافظ الإسكندرية والتى لم تكن موضع بحث أو مناقشة فى مجلس الوزراء . . لأن أحدا من أصحاب الرفعة والمعالى الوزراء لم يخطر بباله أن مقابلة روميل ستكون بمثل هذه الصعوبة ! !

ضاق صدر معاليه فقال :

ـ على كل حال الخطاب جاى لك . . واحفظه عندك لحد ما تقابل روميل وتسلمه له يدا بيد .

وعاد محافظ الإسكندرية يسأل :

ـ ولكن أقابل روميل إزاى؟

وأجاب وزير الأشغال:

ـ لما يدخل الإسكندرية.. روح قابله وأعطى له الجواب.. وهكذا انتهت هذه المحادثة التاريخية العجيبة.

ولحسن حظ السيد عبد الخالق حسونه.. وسوء حظ التاريخ.. لم يدخل روميل الإسكندرية ويتسلم الخطاب الممهور بإمضاء السيد مصطفى النحاس.

* * *

وأنقل هنا من مذكراتى المكتوبة.. فى مساء السبت ٢٧ يونيه سنة ١٩٤٢.

كلمت فؤاد سراج الدين باشا بالتليفون واتفقنا على أن نتقابل فى «جروبى» الساعة الثامنة مساء.. ولكنه عاد وكلمنى فى منتصف الساعة السابعة واقترح أن تكون المقابلة فى داره فى نفس الميعاد.

وكانت هذه أول مرة أدخل فيها داره الفخمة فى جاردن سيتى. وسألنى عما إذا كنت سمعت بخطاب مكرم باشا فقلت لا.. لم أسمع شيئًا.. قال إن مكرم باشا أرسل إلى النحاس باشا أول أمس خطابا منه ومن عشرين نائبا يطلب فيه عقد الهيئة الوفدية فى صباح يوم الاثنين «بعد غد ٢٩ يونيه» للنظر والمناقشة فى المسائل الآتية:

١ ـ الموقف الحربى الحالى.

٢ ـ الاستثناءات التى لا تزال الوزارة سادرة فيها.

٣ ـ التصريحات بتصدير بعض المواد الأولية التى ترخص بها الوزارة لبعض أنصارها والمحسوبين عليها.

٤ ـ مراقبة دار مكرم عبيد والحصار المضروب حولها.

٥ ـ تحديد مركز مكرم باشا فى الوفد ومنصب سكرتير الوفد وهذا بسبب تصريحات النحاس باشا فى اجتماعات عديدة أعلن فيها أن مكرم لم يعد سكرتيرا للوفد.

* * *

ثم قال فؤاد سراج الدين باشا: إن النحاس قال بعد أن قرأ خطاب مكرم إنه لن يرد عليه وإنه ـ أى فؤاد باشا ـ وافقه على رأيه.. ولكن النحاس باشا عدل عن رأيه وأرسل الدكتور محمد صلاح الدين لكى يبلغ رد النحاس، وهو أن النحاس باشا يطلب من الذين أرسلوا هذا الخطاب أن يقابلوه لكى يعرف منهم شخصيا الأسباب التى يريدون من أجلها عقد الهيئة الوفدية.

ثم.. عن (١).. غير ممكن أن يقول النحاس باشا عن الموقف الحربى أكثر مما قاله فى مجلس النواب.

وعن (٢).. لقد أبديت يا مكرم باشا رأيك فى الاستثناءات وأبديت أنا رأيى. وأيدنى الوزراء فى رأيى. وهناك استجواب مقدم وسوف ينظر فى يوم الاثنين ويمكنك يومئذ أن تقول كل ما تريده أثناء مناقشة الاستجواب فى مجلس النواب.

وعن (٣).. غير صحيح.

وعن (٤).. غير صحيح.

وأما عن (٥).. فإنك يا مكرم لست سكرتيرا للوفد لأنك لم تعد سكرتيرا للوفد.. وبناء عليه أرفض طلب عقد الهيئة الوفدية.

ثم قال فؤاد سراج الدين تعليقا على خطاب مكرم:

ـ إن مكرم كان يعرف مقدما أن النحاس باشا لن يوافق على دعوة الهيئة الوفدية للاجتماع فى صباح بعد غد الاثنين للمناقشة فى المسائل التى ذكرها هو وأصحابه فى الخطاب ومنها مسألة الاستثناءات التى قدم عنها استجوابا تحدد لنظره جلسة نفس اليوم الاثنين ولكن مكرم أراد أن يقوم بمناورة بارعة يستبق بها الحوادث ويبرر موقفه فى هذه الجلسة القادمة لأن فى نيته أن يهاجم النحاس باشا ويحمل على الوزارة فى الجلسة المذكورة.. ولكنه يشفق من عتاب العاتبين ولوم اللائمين ومن أن يقال له: «كيف ـ وأنت لا تزال عضوا فى الوفد والهيئة الوفدية ـ كيف تهاجم رئيس الهيئة ورئيسك وتحمل على وزارة الهيئة التى تنتمى إليها؟».. ومن هنا أرسل خطابه لكى يمكنه أن يقول للعاتبين

وللائمين: «لقد حاولت أن أناقش مصطفى باشا فى هذه المسائل فى الهيئة الوفدية أى فى اجتماع عائلى فيما بيننا ولكنه رفض . . فلا تلومونى إذن إذا تكلمت علانية فى جلسة مجلس النواب».

هذه هى مناورة مكرم البارعة . . لأنه كان يعرف مقدما أن النحاس باشا لن يوافق على عقد الهيئة الوفدية.

* * *

وكنت ذكرت رأى الأستاذ فؤاد سراج الدين وهو أنه كان يرى أن من الأصوب فصل مكرم عبيد من الوفد «الآن» أثناء وجود النحاس باشا فى رياسة الوزارة وفى يده سلطات الرقابة المفروضة على النشر والصحافة خير من السكوت عليه . . إذ قد يضطر الوفد فيما بعد إلى فصله . . وقد يكون النحاس باشا يومئذ خارج الحكم ولا سلطان له على الرقابة ولا سلطة له فى منع نشر ما لا يرضيه إذا حمل عليه مكرم فى الصحف.

ولقد عاد فؤاد باشا هذا المساء - مساء ٢٧ يونيه - إلى نفس الموضوع ونفس المعنى فقال:

- إن مكرم لا يزال عضوا فى هيئة الوفد . . ولهذا السبب فإن مهاجمته أو الحملة عليه ليست ممكنة الآن . . بل إن أعضاء الهيئة الوفدية والوفديين جميعا الموالين المخلصين للنحاس باشا يمسكون بأعصابهم وألسنتهم ولا يسمحون لأنفسهم بالحملة عليه احتراما منهم لعضويته فى الوفد والهيئة الوفدية ولكن يوم يعلن فصل مكرم من الوفد فإن المانع يزول وتنطلق ألسنة الجميع ضد مكرم عبيد.

وانتهى فؤاد سراج الدين من الحديث عن خطاب مكرم عبيد.

* * *

وكنت أصغى إليه وأنا أعجب كيف يمكن لرجال مصر المسئولين أن يشغلوا أنفسهم بأمر الخلاف بين النحاس ومكرم . . وجيوش روميل تطرق أبواب مصر . . ودلتا النيل مهددة بالخراب؟

وقلت لفؤاد باشا: إننى زرت حسنين «رئيس الديوان الملكى» هذا الصباح

ووجدته مشغول البال على ابنه هشام الذى أجريت له أول أمس عملية المصران الأعور . . وإننى فهمت من حديث حسنين أن كل من فى القصر - من الملك إلى أصغر فرد فى الحاشية - جميعهم خائفون جزعون قلقون من تطور الموقف الحربى من سيئ إلى أسوأ . . وأنهم جميعا يتساءلون عن نوايا الإنجليز وخططهم وإلى أى مدى ينوون الدفاع والمقاومة . . ؟ هل يذهبون فى هذا المدى إلى حد نقل الحرب إلى دلتا النيل معتمدين كما قال أحد نقادهم العسكريين على فروع النيل وقنواته فى تعطيل زحف الألمان .

ثم سألته : لم لا يطلب النحاس باشا مقابلة الملك شخصيا لكى يبلغه آخر تطورات الحالة ويطمئنه إن كان عند رفعته أسباب تدعو إلى الاطمئنان؟ . . ووافقنى فؤاد باشا على رأيى وقال إنه يحبذ مقابلة النحاس للملك وإنه إذا كان النحاس لم يطلب حتى اليوم مقابلة فاروق وذلك لأنه كان يخشى أن يرفض فاروق مقابلته أو يسوف فيها كما سبق أن حدث .

ثم قال إنه سيقابل النحاس باشا الآن لأنهم مدعوون عند الأستاذ حسن يس لتناول العشاء وسوف يقول لرفعته إن هذا هو رأيى من غير أن يدخل فى التفاصيل .

* * *

وتركت فؤاد سراج الدين وعدت إلى دارى . ومنها سألت بالتليفون عن حسنين باشا فقيل لى إنه لم يعد بعد .

وكلمنى هو بالتليفون فى منتصف الساعة الحادية عشرة مساء . . ورويت له ما دار بين فؤاد باشا وبينى . . وأننى اقترحت أن يطلب النحاس باشا مقابلة الملك . . إلى آخره . . إلى آخره .

وقال حسنين : عال خالص .

وشكرنى بحرارة .

* * *

وأصبحنا يوم الأحد ٢٨ يونيه .

وكلمت صبرى أبو علم باشا فى مسألة تخص أحد الزملاء الصحفيين وكان الزميل المذكور وسطنى فيها لدى صبرى أبو علم باشا رحمه الله.

وعرفت من صبرى باشا أثناء الحديث أن «رفعة الرئيس» موجود الآن مع جلالة الملك.. وأن رفعته كان «التمس» المقابلة هذا الصباح فأجيب طلبه فى الحال.. واستقبله فاروق فى نفس الصباح..

* * *

وكلمت حسنين فى مكتبه بالقصر وسألته عن الحالة فقال:

ـ أيوه.. وصاحبك هنا ـ يقصد النحاس باشا ـ لكن أظن فات الوقت لأن الأخبار وحشة.. وبعدين أقول لك.

و«الأخبار الوحشة» التى كان يشير إليها لا بد أن تكون أخبار الموقعة الحربية الدائرة عند مرسى مطروح.

ولم يكن فى إمكان حسنين أن يفسر أكثر من ذلك بالتليفون.. لأن موظفى تليفونات قصر عابدين ـ كما كان قال لى هو بنفسه ـ كانوا يتنصتون للأحاديث وينقلون الأخبار التى يسمعونها.

* * *

ثم عاد حسنين وكلمنى بالتليفون فى ساعة متأخرة من المساء وكنت فى دارى.. وقال: إن النحاس لم يطلع الملك فى مقابلة الصباح على شىء جديد.. وإنه وإن تكن الإشاعات مزعجة.. إلا أن أخبار «إخواننا» هنا مطمئنة.

ولم يزد على هذا.. وكعادتى معه لم ألح فى الاستفسار أو طلب المزيد من التفاصيل ولا أعرف من هم الذين يقصدهم «بإخواننا»؟.. هل يقصد الإنجليز.. أم يقصد النحاس باشا ووزرائه؟

ولم يكن فى نيتى أن أخرج هذا المساء. ولكنى ذهبت إلى جريدة الأهرام لكى أسأل عن آخر الأخبار الواردة من جبهة القتال.. وقابلت فى مكتب رئيس التحرير الدكتور محمود عزمى والسيدة قرينته.

وقالت السيدة أو على الأصح سألتنى ما إذا كنت سمعت أن فلانا قد طلق زوجته فلانة؟

وفلان هذا كان من نجوم السينما وأبناء الذوات وقد توفاه الله منذ سنوات. . أما فلانة فلا تزال على قيد الحياة. . قلت: إننى لم أسمع شيئا عن هذا الطلاق.

قالت السيدة حرم الدكتور محمود عزمى: إن فلانة هذه هى الآن «صديقة» الجنرال ريتشى قائد الجيوش البريطانية فى الصحراء الغربية. . وإن الجنرال لم يسافر إلى الميدان بل يدير المعركة بالتليفون وإلى جانبه صديقته فلانة المذكورة.

وقال المرحوم محمود عزمى:

- على كل حال. . الثابت أن الجنرال ريتشى كان يزور الإسكندرية مرة فى كل أسبوع وينزل بفندق بوريفاج حيث كانت تقابله فلانة المذكورة.

وقلت أنا: إن الإشاعات كثيرة عن فلانة هذه ومعظمها غير صحيح.

ثم سألت الدكتور محمود عزمى عن رأيه فى الحالة وفى دفاع الإنجليز فقال إن الإنجليز ينوون الدفاع عن مصر إلى آخر رمق وإن خطتهم وخطوط دفاعهم هى:

١ - مرسى مطروح.

٢ - الضبعة.

٣ - الخطاطبة (فى مديرية البحيرة).

٤ - من الأهرام إلى الزمالك.

٥ - قناة السويس.

قلت: والإسكندرية. . والقاهرة. . ؟

قال: لم يُتخذ بشأنهما بعد أى قرار.

قلت: على أى حال إذا كانت هذه هى خطة الإنجليز فإنها تعنى خراب مصر. .

قالت السيدة حرم محمود عزمى:

ـ نعم . . الدفاع شبرا شبرا كما فعل الروس فى مدينة سباستبول .

* * *

وأنقل عن مذكراتى بتاريخ ٢٩ يونيه ١٩٤٢ .

الحالة تزداد خطورة . وإشاعات مزعجة تملأ البلد . .

وسمعت اليوم من مصادر مختلفة أن الإنجليز استطاعوا أن يردوا قوات المحور عند مرسى مطروح وأن يرغموها على التقهقر مسافة عشرة كيلو مترات وأن يأخذوا منها خمسة عشر ألف أسير .

ثم أعلنت وكالات الأنباء فى المساء أن شيئًا من هذا لم يحدث وأن الذى حدث فعلا هو سقوط مرسى مطروح فى أيدى قوات المحور من الألمان .

ومررت بجريدة الأهرام ودخلت غرفة رئيس التحرير الأستاذ أنطون الجميل . وكان بين الموجودين الأستاذ توفيق اليازجى «المعروف بميوله المحورية . . » وكان الحديث بينهم عما عسى أن يفعل الملك فاروق وهل هو يحاول الهرب من مصر خوفا من أن يرغمه الإنجليز على الخروج معهم عند انسحابهم؟

وقلت للحاضرين ما أعرفه وهو أن الإنجليز أقاموا حول الملك مراقبة شديدة دقيقة حتى لا يكاد ينتقل من قصر إلى قصر إلا وعندهم الخبر .

وكان الأستاذ توفيق اليازجى يبتسم ابتسامة هادئة ناعمة . . وقالت سيدة من الموجودين : إن الإمبراطورية البريطانية قد شاخت ودب الانحلال فى عظامها تماما مثل روما فى آخر عهدها بالمجد والسلطان . . فقد كانت روما عندما أشرفت على نهايتها . . كانت تحارب بأبناء جميع أمم الأرض إلا أبناء روما . . وكذلك الحال اليوم مع بريطانيا التى تخوض المعارك وتحارب بجنود من أستراليا ونيوزيلنده والهند وبورما وجنوب أفريقيا وفلسطين بل ولبنان «وكان فريق من أبنائه قد التحق بقوات دى جول الحرة» . . ولكنك تبحث عن جنود الإنجليز فلا تجدهم .

* * *

وحدثت مساء اليوم فى مجلس النواب فضيحة . . ولا أعنى أن الاستثناءات

كانت فضيحة . . وهى قد كانت كذلك . . ولكننى أقصد أن نظرها والمناقشة فيها فى هذا اليوم وهذه الظروف بالذات هى التى كانت فضيحة . . فبينما الجيوش تتطاحن على أبواب مصر . . ودوى المدافع والقنابل يسمع بوضوح فى الإسكندرية وطائرات جيوش المحور تحلق فوق الأراضى المصرية . . أصر رئيس الوزراء النحاس باشا عند افتتاح جلسة مجلس النواب على نظر الاستجوابات المقدمة عن الاستثناءات وغيرها رغم أن أصحاب هذه الاستجوابات طلبوا تأجيل النظر فيها مراعاة للحالة وتقديرا منهم لخطورة الموقف .

ولكن «رفعة الرئيس» أصر على نظرها .

وقامت «خناقة» حامية بينه وبين مكرم عبيد . . وأعلن النحاس باشا فى الجلسة أمام النواب أن مكرم لم يعد سكرتيرا للوفد .

٣٠ يونيه ١٩٤٢ .

وكان للأقاويل والإشاعات التى ينشرها فى القاهرة المهاجرون القادمون من الإسكندرية والبحيرة . . أثرها فى الجمهور، فقد انتشر الذعر بين سكان القاهرة .

وكلمت النحاس باشا بالتليفون وتحدثت إليه عن جلسة أمس وأبديت رأيى فى الطريقة التى نشرت بها جريدة «المصرى» ما دار فى الجلسة المذكورة .

ثم سألته عن الحالة . . . فقال : إنها مطمئنة وليس فيها ما يدعو للذعر والقلق .

وكلمت فؤاد باشا سراج الدين بالتليفون وعرفت منه أنه لم يكن فى نية الإنجليز أن يدافعوا عن مرسى مطروح وأن قرار التخلى عنها والانسحاب منها كان معروفا للوزراء منذ أربعة أيام . . وأن خط دفاع الإنجليز هو عند العلمين (وقد كتبتها فى مذكراتى بالألف «العالمين» لأننى لم أكن قد سمعت بهذا الاسم من قبل . .) .

وعرفت فى المساء من الأستاذ أنطون الجميل أن قوات المحور قد اجتازت مرسى مطروح وجاوزت فوكه والضبعة . . . وأمست أمام العلمين .

* * *

أول يوليه ١٩٤٢ .

الذعر شديد . . والإشاعات كثيرة .

والجمهور يحاصر محال البقالة ومواد التموين لكى يشترى منها حاجته ويخزنها للطوارئ . . واضطر محل بقالة «لاباس» فى شارع قصر النيل أن يغلق أبوابه بسبب شدة الزحام .

ونفدت فى يومين اثنين جميع الدراجات والبسكليتات من محال بيعها فى القاهرة فقد أقبل الجمهور على شرائها بسبب إشاعة تقول : إن الإنجليز سوف يحرقون مستودعات البنزين قبل انسحابهم حتى لا تقع فى أيدى الألمان . . ومعنى هذا أنه سوف يستحيل استعمال السيارات فى الانتقال .

* * *

ومن إشاعات اليوم أن الإنجليز طلبوا من الملك الانتقال إلى فلسطين . . بل إلى أسيوط . . بل إلى السودان ومعه الوزارة . . إشاعات كثيرة مختلفة .

ولكن هناك خبرا أكيدا واحدا وهو أن الإنجليز رفضوا أن يعلنوا أن القاهرة مدينة مفتوحة . . وكنت سمعت هذا الخبر من إحدى إذاعات راديو برلين منذ يومين .

ومعنى هذا أنهم سيدافعون عن القاهرة وسيدور القتال فى القاهرة من حى إلى حى ومن شارع إلى شارع بل ومن عمارة إلى عمارة . . وسمعت كذلك أن الإنجليز نصبوا أوكار المدافع على طول شارع الهرم . وبعض أوكار المدافع هذه قد أقيم خلف بعض الدور والفيلات فى الشارع المذكور .

وكانت النتيجة أن هجرها أصحابها . . إلى مساكن أخرى فى القاهرة أو فى الريف .

* * *

وذاع اليوم أن مسيو كابسيس الوزير المفوض لحكومة اليونان الحرة قد غادر مصر هربا من قوات المحور .

وكذلك مسيو جاكيه وزير بلجيكا المفوض . . ثم عدت وسمعت أنهما لم يهربا بل أعدا فقط جوازات سفرهما .

وذاع فى المساء أن قوات الاحتلال قد وصلت إلى العامرية والمكس . . وأن شركة مصر للطيران قد أوقفت سفر طائراتها إلى الإسكندرية وأن مستر كازى وزير الدولة فى الشرق الأوسط غادر مصر . . عقد البرلمان بمجلسيه ـ مجلس الشيوخ ومجلس النواب ـ جلسة سرية أعلن فيها النحاس باشا :

(١) مصر حصلت على غطاء الذهب .

(٢) فى كل بلد مئونة تكفيها لمدة شهر واحد .

(٣) الإنجليز رفضوا الموافقة على جعل القاهرة مدينة مفتوحة . ولكن الوزارة اتخذت كافة الإجراءات وقامت بجميع اللازم لتأمين المدنيين وحمايتهم .

(٤) كذَّب رفعته الإشاعات الخاصة بانتقال الملك والحكومة إلى أى بلد آخر .

* * *

وأقف هنا قليلا ـ وأترك مذكراتى ـ وأروى حديثا قصيرا سمعته من أمين عثمان باشا بعد ذلك بعام أو نحو ذلك . أى فى عام ١٩٤٣ .

وكان المرض قد اشتد على رفعة النحاس باشا فى عام ١٩٤٣ حتى خيف على حياته . وزارنى ذات يوم صديق لى كان يومئذ مديرا لمكتب أمين عثمان وزير المالية وقال لى إن أمين باشا يهمه أن يعرف رأيى فيمن سوف يتولى زعامة الوفد بعد النحاس باشا . . إذا أصابه مكروه لا سمح الله . . وإن أمين باشا يريد أن يزورنى ويتحدث إلىَّ فى هذا الموضوع .

وزارنى فعلا أمين عثمان فى مكتبى بمجلة «آخر ساعة» ولكنه لم يعرض فى حديثه لموضوع الزعامة ورئاسة الوفد وإلى من تؤول بعد النحاس باشا .

ولعله كان عرف رأيى مما كنت قلته لصديقى مدير مكتبه . بل جلس يتحدث عن العام الماضى وحوادثه وأزماته ـ عام ١٩٤٢ ـ وأيام العلمين . . وكان مما قاله ـ وهو ما يخالف قول النحاس باشا أمام مجلس البرلمان ـ أن الإنجليز طلبوا فعلا من النحاس باشا مغادرة مصر .

قال أمين عثمان «باشا» : إن السفير البريطانى مايلز لامبسون زار النحاس باشا أيام اشتداد الخطر وقال له : إن الحكومة البريطانية تنصح لحكومة جلالة ملك مصر

بالانتقال إلى الخرطوم . . خصوصا أن السودان أرض مصرية (كذا!) فلن يضيرها فى شىء أمام الشعب أن تنتقل من جزء من مصر إلى جزء آخر من مصر .

ومضى المرحوم أمين عثمان فى روايته يقول : إن النحاس باشا استطاع أن يتخلص بلباقة من هذا الإحراج إذ قال للسفير إنه وأعضاء الوزارة رهن مشيئة الملك فإذا قرر جلالته مغادرة مصر إلى السودان فإنهم سوف ينتقلون معه . . وإذا قرر البقاء فى مصر فإنهم باقون معه .

. . . وكان النحاس باشا قد اتفق سرا مع فاروق على البقاء وعدم مغادرة البلاد .

* * *

هذه رواية المرحوم أمين عثمان . . وأنا أصدقها . . بل لعل اتفاق النحاس مع فاروق على البقاء فى مصر وعدم الهرب . . لعله يفسر سر الخطاب العجيب الذى أمر النحاس باشا بإعداده . . وإرساله إلى الماريشال روميل مؤكدا فيه أن مصر لا ناقة لها فى الحرب ولا جمل . . وأنه وزملاءه كانوا مكرهين مرغمين على التعاون مع الإنجليز؟

وأعود الآن إلى مذكراتى . . وأنقل منها .

يوم ٢ يولية ١٩٤٢ .

خفَّ الذعر قليلا فى الصباح . . ثم عاد واشتد فى المساء . . فقد أذاعت محطات الإذاعة فى برلين وروما وأنقرة (وكانت تركيا يومئذ محورية تشيد بانتصارات هتلر ثم عادت وانقلبت عليه وأمست أمريكانية بريطانية) . . .

أذاعت المحطات المذكورة أن قوات المحور اخترقت استحكامات العلمين وأنها تطارد الجيش البريطانى فى أنحاء الدلتا . .

ثم نفت شركة روتر الخبر المذكور . .

* * *

وعرف اليوم أن السفير البريطانى قابل الملك . . وأنه طلب من جلالته مغادرة القاهرة . . ولكن إلى أين؟

ثم قابل السفير النحاس باشا وطالت المقابلة أربع ساعات وانعقد بعدها مجلس الوزراء ودام الاجتماع إلى الساعة الواحدة صباحًا . . وسمعنا فى نفس المساء أن النحاس باشا هائج ساخط على الإنجليز لأنهم لم يفوا بعهودهم ووعودهم له ومنها مثلا عدم تدمير المنشآت مثل القناطر الخيرية والكبارى ومستودعات البترول . . . إلى آخره .

وكان رفعته أعلن فى الجلسة السرية التى عقدها البرلمان أنه أخذ وعدا بذلك من الإنجليز ولكن يبدو أن السفير مايلز لامبسون عاد وراوغ فى الوعود التى كان أعطاها ولهذا السبب هاج النحاس وثار .

* * *

ومررت فى السهر بجريدة الأهرام جريا على عادتى فى الأيام الأخيرة . . وبينما نحن نتحدث فى الحالة دخل أحمد الألفى عطية وقطع علينا حديثنا لكى يسألنا :

ـ أنا طول عمرى محسوبكم . . ترجمتها إيه باللغة الألمانية؟

وضحكنا . . وقال إنه كان كتب خطابا مفتوحا إلى هتلر ونشرته «الأهرام» . . وكان خطابا قليل الأدب . . وإنه نادم الآن . . وهل ينفع الندم .

وكان النحاس باشا دعانى لمقابلته فى الساعة العاشرة مساء فى دار فؤاد سراج الدين بجاردن سيتى . . ولكنى لم أذهب بسبب طول اجتماع الوزراء . وقد دامت الجلسة إلى الساعة الأولى صباحا .

وعرفنا اليوم أن ذهب مصر لا يزال فى البنك الأهلى . . مع أن النحاس باشا كان أعلن فى جلسة البرلمان أن ذهب مصر فى أيد مصرية وحراسة مصرية .

(هذا ما وجدته مسجلا فى مذكراتى . ولا أذكر اليوم ماذا كنت أقصد بالبنك الأهلى؟ هل البنك الموجود بشارع قصر النيل بالقاهرة؟ أم مركز البنك الأهلى القائم فى لندن؟) .

* * *

وعرفنا كذلك أن الجنود البريطانيين هم الذين يتولون حراسة القناطر الخيرية

ابتداء من اليوم . . لماذا؟ . . لا بد أن الغرض هو نسفها وتدميرها عند انسحابهم لكى يغرقوا دلتا النيل أو يحيلوها إلى بحر من الوحول .

* * *

وأنقل عن مذكراتى بتاريخ ٣ يوليه ١٩٤٢ .

كنت أنوى السفر اليوم إلى رأس البر . . وقد أعددت فعلا حقيبتى . . ثم كلمت وزير التجارة الأستاذ محمود سليمان غنام بالتليفون وسألته عن «الحالة» فقال : إنها «وحشة» وإن الإنجليز إنما تولوا حراسة القناطر الخيرية لكى يدلوا سياراتهم التى تمر هناك على الطريق . . !!

لا بد أنه يعتقد أننى ساذج أبله حتى أصدق مثل هذا التفسير . .

وكلمت زميله وزير التموين الأستاذ أحمد حمزة فقال : «الحالة وحشة» وربنا يلطف . ولما سألته عن سبب حراسة الجنود للقناطر الخيرية قال إنهم يتولون حراستها لكى يقاوموا جنود «الباراشوت» ـ المظلات ـ الألمان فى حالة ما إذا حاول هذا السلاح الاستيلاء على المنشآت المصرية . . لأن جنود الجيش المصرى مشغولون الآن بحفظ الأمن فى الأقاليم .

ومضى الأستاذ أحمد حمزة يقول :

ـ هذا من جهة . ومن جهة أخرى فإنه إذا هبط جنود المظلات وقاومهم الجيش المصرى اشتبكت مصر فى حرب مع دولتى المحور . . ولهذا السبب رأى الإنجليز أن يتولوا حراسة القناطر الخيرية بأنفسهم .

انتهى كلام الوزير . . ومعناه أن الإنجليز يشفقون من اشتباك مصر فى حرب مع ألمانيا . . ويحرصون على تجنيب مصر خطر دخول الحرب ضد ألمانيا .

ولكن من الذى يصدق هذا الكلام؟ . . وهل قبل وزراؤنا هذا السبب وصدقوه؟

ثم كلمت فؤاد سراج الدين بالتليفون فطلب منى أن أمر عليه .

ومررت عليه ودار بيننا حديث طويل ألخصه فيما يأتى :

قلت له : إن الملك يود أن ينحى النحاس «باشا» عن رياسة الوزارة لكى يتولاها

من هو أقدر منه على التفاهم مع الألمان ولكنه يخشى أن ينتقم منه الإنجليز لأنه نحى «رجلهم» عن الحكم . . فهل فكر النحاس فى تأليف وزارة قومية قادرة على مواجهة الموقف؟ أو فكر فى التنحى من تلقاء نفسه عن الحكم لكى يفسح الطريق أمام سواه من الذين ـ كما يقول الملك ـ لم يتورطوا فى تأييد الإنجليز .

وقال فؤاد سراج الدين : إن النحاس «باشا» يُطلع الملك الآن أولا بأول على تطورات الموقف وكل شيء ولا يُخفى عنه شيئا .

أما الوزارة القومية فإن رفعته لا يفكر فيها ولا يقبلها ولا يوافق عليها مطلقا لأنه يرى أن قبوله لها يناقض ما سبق أن قاله ضدها .

ولقد دار البحث أمس فى اجتماع مجلس الوزراء فى دعوة الجبهة الوطنية (وهى الهيئة الممثل فيها زعماء جميع الأحزاب السياسية فى مصر وجماعة المستقلين والتى تولت المفاوضات مع إنجلترا فى عام ١٩٣٦ وانتهت إلى عقد المعاهدة المعروفة) . . ولكن اعترض على دعوة الجبهة المذكورة بما يأتى :

(١) فى دعوة الجبهة انتقاص من قدر ومكانة البرلمان القائم . لأن دعوتها تعى أن هذا البرلمان لا يمثل الأمة التمثيل الكافى .

(٢) جميع أعضاء الجبهة الوطنية موجودون فعلا إما فى مجلس الشيوخ وإما فى مجلس النواب ما عدا أربعة أو خمسة ، منهم إسماعيل صدقى وأحمد ماهر والنقراشى . وهذان الأخيران لهما ممثلو حزبهما السعدى فى البرلمان ويستطيعون مناقشة الحكومة فى كل شيء .

(٣) نفرض أن البرلمان قرر أمرا . . وقررت الجبهة أمرا آخر ضده فماذا يكون الحل والرأى؟ . . ومضى فؤاد سراج الدين فى كلامه أو فى بيانه فقال :

إن النحاس «باشا» لن يستقيل ولن يتنحى من تلقاء نفسه عن الحكم . وإذا شاء الملك فليُقله . . ولو أنهم جميعا يتمنون ترك الحكم من كل قلوبهم . . أو على الأقل أن يشترك معهم سواهم فى تحمل المسئولية . . (ويدل ما نبقى ١٤ وزيرا نبقى حتى ١٤٠) . . ولقد قال محمود غنام أمس فى اجتماع مجلس الوزراء «ياريت يا إخواننا يريحونا من مسئولية الحكم . . أو حتى يعتقلونا . . » .

وأما لماذا يرفض النحاس باشا أن يستقيل فذلك لأنه ظل ثلاثة أعوام ـ أى منذ قيام الحرب ـ يطالب بالحكم للأغلبية ـ أى له وللوفديين ـ بحجة أن البلد فى ظروف حرب خطيرة وأن الأغلبية هى التى يجب أن تتولى الحكم وتمسك بالدفة وتقود السفينة إلى بر الأمان. . فهل إذا جد الجد وحل الخطر يتنحى الربان ويترك السفينة وسط الأنواء ويهرب؟!

واستطرد فؤاد سراج الدين يقول إنه إذا دخل الألمان مصر فإن النحاس «باشا» سوف يقول لهم إننا دولة غير محاربة. وإنه إنما نفذ المعاهدة التى كان أمضاها منذ ست سنوات مع الإنجليز وإنه بذلك حفظ كلمة مصر وشرف إمضائها فهو لم يفعل إلا ما يفعله كل سياسى شريف.

وسوف يقول لهم كذلك إنه قاوم كثيرا من المطالب الإنجليزية وأبى عليهم أن يجر مصر إلى الحرب مهما كانت الظروف بعكس على ماهر الذى كان يريد غداة قيام الحرب أن تعلن مصر الحرب ضد ألمانيا. . والذى وعد الإنجليز بعد ذلك بدخول مصر الحرب ضد دولتى المحور (إذا توغلت قوات المحور فى الأراضى المصرية مبتدئة). . وهذا الشرط قد تحقق وبناء عليه كانت مصر قد دخلت الحرب الآن ضد دولتى المحور لو كان على ماهر بقى حتى اليوم رئيسا للوزارة.

* * *

ثم قال إنه متعب من العمل وإنه لم يستطع أمس حضور حفلة قران شقيقه. . بسبب انهماكه فى العمل وطول جلسة مجلس الوزراء التى لم تنته إلا فى الساعة الثانية صباحا.

ولما ذهب بعدها إلى «بيت الفرح» وجد أن المصابيح قد أطفئت وكل شىء قد انتهى.

وإنه ينام الآن والتليفون إلى جانبه. . لأن الحالة خطيرة خالص. . ثم نصحنى بأن أسحب أموالى من البنوك.

وضحكت وقلت: إن جيب «جاكتتى» يتسع لأموالى كلها، وهنا قال:

ـ والله الواحد مش عارف يعمل إيه بفلوسه اللى فى البنوك.

فأشرت عليه بما كنت سمعته فى حجرة رئيس تحرير الأهرام أنطون الجميل وهو أنه يحسُن بأصحاب الأموال «السائلة» أن يشتروا بأموالهم هذه أسهم شركات صناعية أو أراضى لأنه إذا نجح الإنجليز فى صد الألمان ارتفعت قيمة الأسهم . . وإذا دخل الألمان مصر هبط سعر الجنيه الاسترلينى ـ والجنيه المصرى . . بالتبعية ـ إلى الحضيض . . وارتفعت أسعار الأسهم بطبيعة الحال وبنسبة هذا الهبوط .

وهز فؤاد رأسه . . وبدا عليه أنه لم يفهم هذه النظرية الاقتصادية . . ولا أنا فهمتها .

* * *

ألقى مستر تشرشل فى مجلس العموم خطبة طويلة نقلها البرق إلى مصر . . حوالى منتصف الليل . . وكان مجلس الوزراء مجتمعا فى تلك الساعة ولكن الوزراء لم يطلعوا على الخطبة ولم يسمعوا بما جاء فيها مع أن فى غرفة سكرتيرية الدكتور محمد صلاح الدين جهازا خاصا لنقل برقيات روتر .

ولو أن تشرشل كان أعلن مثلا عزم بريطانيا على الانسحاب من مصر لما كان وزراؤنا سمعوا بالنبأ . . ولظلوا يتناقشون فى الحالة وهم فى جهل تام بما يدور .

وجاء فى خطبة تشرشل المذكورة :

(١) أن هذه المعركة بدأت فى يوم ٢٦ مايو .

(٢) كان الإنجليز على أتم استعداد . وكانوا ينوون البدء بالهجوم ولكن الألمان سبقوهم بأيام معدودة إلى الهجوم .

(٣) كانت قوة سلاح الطيران أقوى البريطانى من قوة سلاح الطيران الألمانى بنسبة ٨ إلى ٥ وقوة دباباتهم أقوى من دبابات الألمان بنسبة ٧ إلى ٥ . ومع ذلك خسروا المعركة وهزموا أمام الألمان .

* * *

والنتيجة أن الألمان لم ينتصروا بسبب تفوقهم فى السلاح أو فى العدد . . وإنما انتصروا بسبب علو الروح المعنوية عندهم . . وبفضل قيادتهم البارعة الحكيمة .

وكانت قيادة الجيش البريطانى فى يد جنرال ريتشى الذى كان يدير المعركة بالتليفون تارة من القاهرة وتارة من الإسكندرية وإلى جواره صديقته المصرية الحسناء!

وسمعت من الأستاذ أنطون الجميل أن تدهور الروح المعنوية وانعدام النظام فى صفوف جنود بريطانيا كانا بدون شك من أسباب الهزيمة وخسارة المعركة.

وقص علىّ طرائف ومنها:

- نقلا عن الأستاذ توفيق دياب - وقد أقسم صديقنا الكاتب الكبير على صحة الرواية - إن بعض الفلاحين فى مركز منيا القمح اشترى مدفعا رشاشا من الجنود البريطانيين.

- نقلا عن الأستاذ مصطفى أمين أن جنديا هنديا كان يسير فى الشارع وهو يدفع أمامه فردتى «كاوتش» للسيارة وقد عرضهما على صديقنا بدولارين اثنين.

- نقلا عن الأستاذ حسين أبو الفتح: أن بعض الضباط البريطانيين أبدى استعداده لأن يورد له أى عدد يشاء من سيارات الجيش البريطانى بسعر مائتى جنيه للسيارة الواحدة.

- نقلا عن الأستاذ حفنى محمود أن سيارة حربية حضرت مرة من السويس إلى القاهرة لكى تشترى ورق إبر و«جلاس وجاتو» من جروبى.

- أن جنود البوليس الحربى البريطانى - أثناء طوافهم بالمحال العامة - طلبوا من بعض الجنود الذين كانوا يرقصون فى قاعة الرقص بجروبى أن ينصرفوا إلى ثكناتهم لأن الساعة جاوزت التاسعة مساء ولكنهم رفضوا واستمروا فى الرقص.

وكلمت حسنين باشا بالتليفون وقلت له إننى أنوى السفر إلى رأس البر لأستريح فيها بضعة أيام ولكنه صرخ فىّ وقال إنت اتجننت ولا إيه؟

ثم نصحنى بعدم السفر الآن إلى أن ينجلى الموقف وقال:

- يظهر أن العلمين كمان سقطت فى أيدى الألمان.. والإنجليز ينوون تنفيذ خطة

التدمير الشامل التام ومنها نسف الكبارى، وقد تقطع خطوط المواصلات فى ساعات معدودة. . فكيف تسافر يا سى محمد إلى رأس البر. . ؟

* * *

عدلت عن السفر إلى رأس البر.

ولما كان مسكنى فى الزمالك. . وقد يدمر الإنجليز الكبارى وهكذا تقطع المواصلات بين الجزيرة والقاهرة. . فقد رأيت أن من الخطر العودة إلى مسكنى. . ومن ثم ذهبت بحقائبى إلى فندق فى المدينة وحجزت لى غرفة فيه.

* * *

مررت على جريدة الأهرام وقابلت مصطفى أمين الذى قال لى إن مستر كيرك وزير أمريكا المفوض ورجال المفوضية غادروا القاهرة. . وأن إشاعة سفر أمين باشا عثمان صحيحة لأنه صحب أسرته إلى فلسطين ثم عاد اليوم.

وإنه ـ أى مصطفى أمين ـ قابل جنرال ستون أمس وإن ستون قال له إن النحاس باشا أعصابه تعبانة.

فقد اجتمع به أمس وكان معهما السفير مايلز لامبسون ومستشار السفارة سمارت. وقد تكلم السفير ربع الساعة. وتكلم هو ـ أى ستون ـ خمس دقائق، وتكلم سمارت دقيقتين، أما النحاس باشا فقد تكلم ثلاث ساعات.

وقال جنرال ستون: إن تدمير المنشآت أو عدم تدميرها مسألة تبتُّ فيها وزارة الحرب وإن القيادة هنا لا تملك حق اتخاذ قرار فيها. . ثم قال إنهم إذا كانوا وعدوا النحاس باشا بشيء ما منذ يومين فإن الأمور تتطور من يوم إلى يوم. . والوعد الذى يعطى فى ضوء حالة ما فى يوم ما قد يجوز نقضه فى ضوء حالة جديدة.

وقال لى مصطفى أمين كذلك إن سفيرنا فى لندن حسن نشأت باشا أرسل تلغرافا يقول فيه إنه نظرا لاحتمال دخول قوات المحور مصر وانقطاع الاتصال بينه وبين مصر فإنه يطالب بإرسال خمسين ألف جنيه لتغطية نفقات السفارة لمدة عامين. . وقد أرسل إليه المبلغ المطلوب.

* * *

وساد الذعر فى الأوساط المالية وهرع الناس إلى البنوك يسحبون أموالهم المودعة فيها . . ويظهر أن البنك الأهلى تأثر أكثر من سواه وقد لجأ مديره إلى وزير المالية ليجد له مخرجا من هذا المأزق .

وقال لى أحد موظفى وزارة المالية إن وزيرها كامل صدقى باشا أشار على مدير البنك الأهلى ـ ولكن بصفة غير رسمية ـ أن يوعز إلى بعض موظفى البنك بالانقطاع عن العمل . . أو بالتغيب بسبب المرض . . أو حتى بالإضراب عن العمل . . لكى يتخذ من غيابهم وقلة عدد الموظفين الموجودين عذرا يبرر به عدم استطاعته صرف جميع المبالغ المطلوب سحبها من البنك .

* * *

وأنقل عن مذكراتى بتاريخ السبت ٤ يوليه ١٩٤٢ .

قابلت أحمد الوكيل صباح اليوم فى «جروبى» وقلت له : (قل لى بأه إيه الأخبار اللى مقالهاش مصطفى باشا للوزراء) . . ؟

فقال : الإنجليز طلبوا منه أن ينتقل معهم هو والوزارة ولكنه رفض وقال لهم إنه قاعد فى البلد واللى يجرى على البلد يجرى عليه . فتضايق الإنجليز منه وبدأوا معه سياسة القريفة .

* * *

وذهبت إلى مكتبى فى «آخر ساعة» فوجدت أنطون الجميل ينتظرنى . ورويت له ما سمعته فقال : إن الخبر صحيح وإن الوزراء الذين تصدوا لنفى الخبر إما أنهم كاذبون وإما أنهم لا يعرفون الحقيقة لأن مصطفى النحاس أخفاها عنهم . والحقيقة هى أن السفير البريطانى عرض الأمر بلباقة على الملك فاروق فقال له إن الخطر محتمل وإن الألمان قد يدخلون مصر وفى هذه الحالة ربما فكر جلالة الملك فى الانتقال إلى مكان آخر . فإذا استقر رأى جلالته على هذا فإنهم ـ أى الإنجليز ـ مستعدون لأن يقدموا لجلالته جميع التسهيلات ويضعوا خدماتهم تحت تصرفه ولجلالته أن يختار المكان الذى يشاء . . وقد رد فاروق شاكرا ولكنه قال إنه لا ينوى مغادرة مصر .

وفاتح السفير البريطانى النحاس باشا فى نفس الموضوع فقال له النحاس . . لا . . لن تخرج الوزارة من مصر . وعلى كل حال فإنها تحت أمر جلالة الملك وما يريده سوف أنفذه .

وهو رد بارع من النحاس باشا لأنه أولا : أثبت ولاءه وإخلاصه للملك . . وثانيا : ألقى المسئولية على الملك فاروق .

ثم تحدثنا ـ أنطون الجميل وأنا ـ عمن عساه يكون (رجل الساعة) الذى يستطيع مواجهة الموقف بأخطاره واحتمالاته والذى يمكنه إعداد العدة لكل احتمال .

وقال أنطون بك إنه يعتقد أن إسماعيل باشا صدقى هو أقدر الزعماء جميعا على مواجهة الموقف وإنه (رجل الساعة) لأنه أولا : معروف بصداقته الطويلة للسياسة الإنجليزية ومع الساسة الإنجليز .

ولكنه لم يتورط معهم إثناء الحرب . . ولأنه ثانيا : أبدى نوعا من الميل أو الصداقة لألمانيا فى بداية الحرب . . وهو ما أكسبه ثناء الإذاعة الألمانية دون أن يفقده حسن ظن الإنجليز به .

ومضى أنطون الجميل يقول إنه لو كان إسماعيل صدقى على رأس الحكومة الآن لاستطاع أن يجلو الموقف من كل الوجوه ولكان أرسل بصفته رئيس الحكومة المصرية رسالة إلى روميل يشرح فيها موقف مصر المستقلة من هذه الحرب ومن الوجهة الدولية ثم يطلب منه أن يحدد موقفه ونوايا حكومته ـ ألمانيا ـ تجاه مصر .

وكان النحاس باشا قد صرح فى البرلمان وفى مجالسه وأمام أنصاره أكثر من مرة أن الحالة مطمئنة ثم تبين بعد ذلك أن الحالة ليست مرضية ولا هى تدعو إلى الاطمئنان . وهذا من وجهة النظر الإنجليزية . وظن كثيرون أن النحاس باشا كذب على الأمة وخدعها وخدع البرلمان . أو على الأقل أنه ضحية الإنجليز الذين كذبوا عليه وخدعوه . ولكنى بت أعتقد أن الأمر ليس كذلك . . وأن الإنجليز لم يكذبوا على النحاس ولم يخدعوه . . وأن الحقيقة هى أنهم أنفسهم كانوا مخدوعين .

وهذه هى الحقيقة كما وضحت من خطبة مستر تشرشل التى قال فيها بصراحة إن السرعة الخاطفة التى زحف بها جنرال روميل أفسدت على القيادة البريطانية

خططها، فقد كان الإنجليز يحسبون أنهم بانسحابهم مسافة مائة وخمسين ميلا سوف يكسبون أسبوعين أو ثلاثة أسابيع يرتاحون فيها ويجمعون قواهم ويعيدون تنظيم قواتهم ثم يعودون ويكرون على قوات روميل.

ولكن روميل دفع قواته وراءهم بسرعة خاطفة ولم يترك لهم يوما واحدا للراحة.. ثم فوجئوا بوجوده أمامهم عند العلمين بعد خمسة أيام فقط من بدء انسحابهم.. أى أنه استطاع أن ينقل جيشه وجميع معداته وأسلحته مسافة مائة وخمسين ميلا فى خمسة أيام؟

هذا ما أعلنه تشرشل فى خطبته ومن هنا نفهم لماذا كان الإنجليز متفائلين ومطمئنين إلى الحالة. ولكن تطور الموقف بسرعة زحف روميل.. قلبت خططهم واطمئنانهم رأسا على عقب.. وهنا اضطروا أن يطلعوا النحاس باشا على الحقيقة أو على جانب منها وأن يصارحوه بأن الحالة ليست مرضية ولا تدعو إلى الاطمئنان.. وأن الخطر المحتمل هو دخول قوات المحور الأراضى المصرية وكانت نقطة التحول من الاطمئنان إلى القلق هى طلبهم من النحاس الخروج معهم هو ووزراؤه.

وقد لاحظ كثيرون أنه بينما جميع طبقات الشعب حتى أولئك الذين عرفوا بميولهم نحو المحور ـ ألمانيا وإيطاليا ـ فى حالة فزع وقلق من المستقبل المجهول.. ومن الأخطار التى سوف تتعرض لها مصر فى فترة الانتقال من احتلال بريطانى إلى احتلال ألمانى إيطالى. ومن انسحاب جيوش مدحورة ودخول جيوش ظافرة.. فإن بعض المواطنين الشرقيين فرحون لا يخفون سرورهم.. وسر فرحهم أن الفرصة قد حانت أخيرا للتخلص من منافسيهم فى أسواق المال والتجارة والسمسرة فى البورصة.. وهم اليهود.

ولقد استغل هؤلاء الشرقيون نفسية الذعر والهلع التى أصبح فيها اليهود واشتروا منهم بضائع كثيرة بأسعار لا تزيد كثيرا على سعر التراب.. وبعد أن كانت أسعار بضائع كثيرة بدأت تهبط بسبب كثرة البضائع التى أخرجها اليهود من مخازنهم وطرحوها فى السوق عادت الأسعار وارتفعت من جديد بعد أن انتقلت هذه البضائع إلى أيدى إخواننا الشرقيين هؤلاء.

أمـا المصـريـون أبنـاء البلد فـقـد أضـاعـوا الفـرصـة وأمـضـوا الـوقت فى تبـادل الأخـبـار والإشـاعـات والنكات على حسـاب الإنجليـز تارة . . وتارة على حسـاب الألمان .

وفى المساء قابلت مصطفى أمين فى جريدة الأهرام ودار الحديث عما عسى أن يحدث للوزارة إذا دخل الألمان مصر .

وقلت إن النحـاس باشا يرفض أن يسـتـقـيل لأنه يعـدُّ اسـتـقـالتـه الآن فـرارا من الميدان . . وإن الملك لا يريد أن يأخذ على نفسه مسئولية إقالة النحاس باشا لأنه يخشى الإنجليز فى حالة ما إذا نجحوا فى وقف زحف الألمان وردوهم عن مصر . . كذلك لا أظن أن الملك فى حالة دخول الألمان سوف يختار من تلقاء نفسه على ماهر باشا رئيسا للوزارة لأنه سوف يؤيد الاختيار صحة ما شاع عنه وهو أنه ـ فاروق ـ ضالع مع الإيطاليين والألمانيين . . وقد يحاسبه الإنجليز على هذا إذا قُدر لهم النصر وعادوا وطردوا الألمان من مصر . . ولهذه الأسباب كلها أصبحت أرى رأى أنطون الجميل وهو أن الملك سوف يختار إسماعيل صدقى رئيسا للوزارة بعد دخول الألمان .

ولكن مصطفى أمين لم يوافقنى على هذا الرأى . وقال ـ بل أكد ـ أن على ماهر هو رئيس الوزارة القادمة وأن الأمر متفق عليه منذ أسابيع وأن التصريح المشترك الذى أذاعته سلطات الإذاعة فى برلين وروما وبارى وأعلنت فيه أن قوات المحور ـ ألمانيا وإيطاليا ـ التى تدخل مصر سوف تدخل لكى تحرر مصر من استعمار بريطانيا وتعطينا استـقـلالنا كـامـلا وأنه ليس عند ألمانيـا أو إيطاليـا أية نيـة للانتـقـاص من استقلالنا .

وقال مصطفى أمين إن هذا التصريح الذى اشتركت فى صياغته وإعلانه حكومتا ألمانيا وإيطاليا قد تم بفضل مساعى مراد سيد أحمد باشا الصديق الحميم لعلى ماهر باشا والذى يقيم منذ بداية الحرب فى مدينة جنيف فى سويسرا (وكان سعادته وزيرا مفوضا لمصر فى روما عند إعلان الحرب وقد طلبت منه الحكومة أن يعود إلى مصر ولكنه رفض العودة وآثر أن يقيم فى أوروبا متنقلا بين إيطاليا وسويسرا وألمانيا . .).

ثم قال مصطفى أمين إن على ماهر باشا ثائر هائج فى المعتقل وإنه يقول إنه عندما يتولى الحكم سوف يشنق مصطفى النحاس . . وفى هذا يقول : (ولن أحاكمه أمام محكمة عسكرية بل سوف أحاكمه أمام محكمة مشكَّلة من مستشارى النقض والإبرام . . وتهمته الخيانة العظمى) . . ثم يصرخ ـ وكان رفعته مريضا بأسنانه ـ يصرخ (أسنانى . . أسنانى يا عالم . . بس ابن . . حابسنى ليه) .

* * *

وكان فريق من الرأى العام يعطف يومئذ على «على ماهر» باشا ويعد اعتقاله عملا غير قانونى . . وأن النحاس باشا اعتقله نزولا على إرادة الإنجليز .

والواقع أن السلطات البريطانية كانت طلبت من كل حكومة مصرية تولت الحكم بعد يونيه ١٩٤٠ اعتقال على ماهر باشا . . بسبب ميوله المحورية ونشاطه ونشاط بعض أصدقائه العدائى ضد الحلفاء . . وقد تقدمت بهذا الطلب فى وزارة حسن صبرى باشا . . وفى وزارة حسين سرى باشا . . ولكن حسن صبرى وحسين سرى رفضا أن يعتقلا على ماهر . . واستطاع الاثنان فى كل مرة أن يسويا الأمر وأن يقنعا على ماهر باشا بمغادرة القاهرة والإقامة فى قصره الأخضر فى الريف . . ولكن رفعته كان يعود دائمًا إلى القاهرة بعد بضعة أيام أو بضعة أسابيع .

أما صديقه اللواء صالح حرب باشا فقد عمل بنصيحة الحكومة وترك القاهرة وأقام فى أسوان .

* * *

زرت حسنين باشا فى داره . وبدأت الحديث فقلت : إما أن الوزراء يكذبون . . وإما أن النحاس باشا لا يطلعهم على الحقائق . وذلك أن اثنين منهم أكدا لى أنه ليس صحيحا أن الإنجليز طلبوا من النحاس باشا انتقال الوزارة معهم إلى بلد آخر بينما سمعت من مصدر موثوق به صدق أخباره أن الخبر صحيح . . فما هى الحقيقة؟

وقال حسنين باشا : إن الخبر صحيح . وقص علىّ تفاصيل كثيرة ومنها الحديث

الذى دار بين الملك فاروق والسفير البريطانى مايلز لامبسون فى هذا الموضوع وكيف أن فاروق رفض أن يغادر الأراضى المصرية . . . إلخ .

ومضى حسنين يقول :

ـ ولما عرض النحاس باشا الموضوع على الملك قال أولا إنه رفض طلب الإنجليز وإنه قال للسفير إن الوزارة لن تغادر مصر وإنهم «قاعدين» مهما حدث . . ثم عاد وقال ثانيا : «وعلى كل حال لا أريد أن أؤثر على جلالتكم أقل تأثير فيما إذا رأيتم رأيا آخر» .

وتساءل حسنين : ما معنى هذا؟ ثم . . أليس النحاس باشا رئيس الحكومة وكبير مستشارى الملك ومن واجبه أن يقول رأيه صريحا واضحا فى مثل هذه المواقف الخطيرة . . فما معنى تردده وتراجعه . . مع أنه سبق الاتفاق مع «رفعته» على عدم خروج الملك والوزارة من مصر؟ . . اللهم إلا أن يكون رفعته يريد جس نبض الملك و(توقيعه) ليرى هل هو لا يزال مصمما حقيقة على البقاء فى مصر أو هو يفكر فى الهرب من الإنجليز ومغادرة مصر سرا إلى بلد آخر . . ولمصلحة من هذا المكر من جانب النحاس باشا؟

وهنا قلت لحسنين باشا . . إننى لم أفهم أين هو (مكر) النحاس باشا؟

وازداد حسنين حدة وانفعالا وقال :

ـ المكر يا سى محمد فى قوله للملك إنه لا يريد أن يؤثر عليه فى حالة ما إذا كان له رأى آخر . . يعنى يا جلالة الملك أنا زى أبوك . . قل لى ولا تخبيش على . . إذا كنت عايز تهرب من الإنجليز وتخرج من البلد قل لى وأنا أساعدك . . أهو ده المكر يا سيدى . . عاوز يعرف علشان يجرى للإنجليز ويقول لهم الحقوا . . الملك فاروق راح يهرب من مصر .

وأنكرت على حسنين باشا رأيه هذا فى النحاس باشا وقلت له :

ـ مش للدرجة دى يا باشا حرام عليك .

وقال : حرام علىّ؟ يظهر إنك عبيط . . إن النحاس باشا أصبح اليوم فى قبضة

الإنجليز تماما . . ولقد قاوم فى أول الأمر شيئا ما ولكنه انتهى بالاستسلام لهم استسلاما تاما والفضل فى ذلك لأمين عثمان باشا .

ثم قال حسنين :

ـ حدث مرة فى إحدى جلسات مجلس الوزراء ـ وكانت المعارك الحربية بدأت تتطور من سيئ إلى أسوأ ـ أن قال النحاس باشا للوزراء : يظهر أن الإنجليز ينوون عمل «شىء خفيف من التدمير» . وصرخ الوزراء وصاحوا فى وجهه كيف؟ . . وهنا تراجع رفعته وقال ده اللى فهمه وجايز يكون غلطان . لكن الوزراء قالوا له : «لازم تستدعى بكره السفير والجنرال ستون وتناقشهما وتأخذ منهما وعدا صريحا بعدم تدمير أى شىء» .

واستطرد حسنين يقول :

ـ وكان فى وسع النحاس أن يذهب إلى البرلمان ويواجهه بالحقيقة ويطلعه على كل ما يعرفه عن نوايا الإنجليز . . أو على الأقل لا يكمم البرلمان ولا يخدعه ولا يضلله بالأكاذيب بل يتركه يتكلم ويثور ويحتج . . ويتخذ من ثورة البرلمان سندا له يستند إليه فى أحاديثه ومفاوضاته مع السلطات البريطانية فيقول لها مثلا إن البرلمان ـ وهو من أنصار الوفديين ـ هائج ثائر ضده فكيف يحكم ونفس أنصاره وشيوخه ونوابه ثائرون ضده . . وكان فى وسعه أن يطلب منهم ضمانات مطمئنة يواجه بها البرلمان ويهدئ بها من ثورة البرلمان . . ولكن رفعته لم يفعل بل فعل العكس فقد ذهب إلى البرلمان وألقى بتصريحات مطمئنة وهو يعلم أنها غير صحيحة . . وأن الإنجليز ينوون تنفيذ خطة التدمير التام . . وعلى أساس هذه التصريحات الكاذبة المطمئنة نال رفعته ثقة البرلمان بينما كانت المصلحة كل المصلحة هى فى أن يخرج من البرلمان مدحورا لكى يستطيع أن يوقف الإنجليز عند حدهم . . ولكن يظهر أن أمين عثمان سحر النحاس وخدره تماما وأصبح يفعل به ما يشاء .

ثم قال حسنين إن بين ما ينوى الإنجليز عمله ـ عند انسحابهم ـ إطلاق الماء المالح فى ترعة المحمودية لكى تغرق جميع الأراضى الزراعية الواقعة على ضفتيها . وهذه

العملية إذا أريد إصلاح الضرر الناشئ عنها تكلف مصر أربعين مليونا من الجنيهات.

ووصف حسنين باشا مقابلة له مع النحاس وروى الحديث الذى دار بينهما. قال:

- قال النحاس باشا إن الإنجليز خانوه وكذبوا عليه وحنثوا فى عهودهم معه. وأردت أن أستدرجه فى الحديث فقلت له إننى أستبعد يا رفعة الباشا صحة هذه الإشاعات. وإن فى نية الإنجليز تدمير كذا وكيت.. ولكنه صاح فى وجهى (بل هى الحقيقة يا حسنين باشا. التدمير التام والخراب التام..).

فقلت له.. سوف نسجل احتجاجنا.

ثم سألته: وبعدين؟

قال: وبعدها يفعل الله بنا ما يشاء.

* * *

واتهم حسنين باشا وزير الأشغال عثمان محرم بأنه أمر رجاله سرا بمساعدة الإنجليز فى تنفيذ خططهم؟

ثم قال حسنين إنه لم يأت يوم على مصر كانت فيه محتلة احتلالا تاما كما هى الآن. فقد كان الإنجليز يحاولون منذ شهور الحصول على نصيب فى حق حراسة بعض الطرق والمنشآت، ولكن طلباتهم فى هذا الشأن كانت ترفض دائمًا.. ولكنهم الآن وبموافقة النحاس باشا قد تغلغلوا فى صميم الريف وأصبح كل شىء فى مصر فى قبضة يدهم فإذا أزفت الساعة التى يتبينون فيها أنهم خسروا المعركة فإنهم سوف يدمرون كل شىء.. وكل شىء الآن تحت أيديهم وفى حراستهم.. وليس لمصر يومئذ أن تعترض لأنهم سوف يقولون إن ما تم قد تم بالاتفاق مع رئيس الحكومة.

وقال حسنين إنه تحدث مع بعض أصدقائه من الإنجليز فى هذا الموضوع فقال لهم: «ثقوا إذا دمرتم كل هذا فسوف أكون أنا أول من يهب لقتالكم لأنكم تكونون قد خربتم بلدى خرابا تاما. وإذا دخل الألمان مصر فسوف يهرع كل مصرى

لاستقبالهم. وليطلب منهم أن يسمحوا له بالقتال فى صفوفهم ضدكم أنتم الذين دمرتم بلده.. وإذا قدر لكم أن تعودوا إلى مصر فسوف يهب المصريون لصدكم وقتالكم».

ومضى حسنين يقول إنه إذا نفَّذ الإنجليز خططهم فإن النتيجة هى خراب الدلتا أى الوجه البحرى. ولقد قال لهم قائد من خيرة قواد الجيش الفرنسى وهو الجنرال كاترو إن كل ما يهمهم فى مصر هو قناة السويس.. وإن خط الدفاع عن قناة السويس ليس فى الصحراء، بل على ضفاف النيل وفى الدلتا.. ذلك لأن الدلتا تعد من الوجهة الحربية هبة لا تقدر للقائد الذى يدافع عنها إذ إنها بعشرات القنوات والمصارف التى تشقها وتخترقها طولا وعرضا.. وبأرضها الهشة الطرية وبقناطرها التى يمكن تدميرها عند الحاجة.. تعطل وتعوق سير الجيش الذى يهاجم ويحاول التقدم.. وهكذا تصبح الدلتا ميدانا للمعارك.. ويحل الخراب وويلات الحرب من كر وفر بكل بلدة وكل قرية فيها.

وهنا قلت لحسنين باشا:

- إذن ليس هناك أمل إلا فى ثورة تنفجر فى البرلمان ويقوم معها الشعب فيضطر النحاس باشا والإنجليز أن يتمهلوا ويراجعوا موقفهم ويترددوا فى هذه الخطة.

قال: ربما كان هذا ممكنا منذ عشرة أيام قبل أن يضع الإنجليز أيديهم على كل شىء.. كان هناك أمل أن يتمهل الإنجليز وأن يحجموا عن التدمير، أو لو أن الجيش المصرى كان هو الذى تولى حراسة المنشآت.. لأن الإنجليز كانوا يفكرون ساعتها طويلا قبل تدمير هذه المنشآت والمجازفة بوقوع تصادم بينهم وبين الجيش المصرى. أما الآن فقد ضاعت الفرصة ولم يبق هناك ما يخشاه الإنجليز لأنهم هم الذين يحرسون ويتحكمون فى جميع المنشآت.

وقال حسنين:

- لقد قال لى النحاس باشا أثناء حديثى معه: «تصور يا حسنين باشا أن الإنجليز عاوزين يدافعوا عن القاهرة.. من النوافذ والبلكونات والسطوح.. بالمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية.. وأنا قلت لهم: وفايدة ده إيه؟».

وتنهد حسنين وهو يقول:

ـ إذا قدر لك أن تكتب يوما عن هذه الأيام فاكتب وقل إن شيوخ البلد ونوابها قيل لهم إن هناك خطرا يهدد بيوتهم بالحرق ويهدد أراضيهم بالغرق ويهدد ريف مصر وقرى مصر بالدمار . . ولكنهم سكتوا خوفا على الأربعين جنيها التى تصرف لهم من البرلمان .

ووقفت أتهيأ للخروج . وهنا سألنى حسنين باشا وهو يسير معى إلى الباب :

ـ هل تظن أن هناك خطرا على الملك . . أن يأخذه الإنجليز معهم رغم أنفه؟

قلت : لا أظن أن الغباوة تصل إلى هذا الحد بهم . . ثم ما الفائدة التى تعود عليهم؟

قال : ليس الخطر فى أنه ملك . . ولكن الخطر فى أن مصر وملكها لهما مكانة فى العالم العربى والعالم الإسلامى وقد يخشى الإنجليز من أن يستغل الألمان هذه المكانة ويبنوا عليها دعاية واسعة فى مصلحتهم وضد الإنجليز . . ولهذا قد يفكر الإنجليز فى أن يأخذوا الملك معهم . . ولو بالقوة لا ليفيدوا منه ولكن لكى يحرموا الألمان منه . . ومن استغلاله فى دعايتهم .

* * *

وأنقل من مذكراتى بتاريخ ٦ يوليه ١٩٤٢ .

عقد مجلس النواب جلسة سرية . وبعد انفضاضها اجتمع الوفد وأصدر قرارا بفصل مكرم «باشا» وراغب حنا «بك» من الوفد ومن الهيئة الوفدية .

وقال لى فؤاد سراج الدين إنه قرار حكيم وعادل وإن الرأى العام يؤيده بل كان يطالب به . . وإن المعارضة نفسها استهجنت موقف مكرم عبيد باشا . فبينما الحرب على أبواب مصر والحالة تزداد خطورة ساعة بعد ساعة . . والمعارضة نفسها تنسى خلافاتها مع الوزارة وتؤيدها فى موقفها فى الدفاع عن البلاد . . يقف مكرم «باشا» فى مجلس النواب يطلب المناقشة فى الاستثناءات وفى سوء استعمال سيارات الحكومة ويقول إن أسبوع البر (مشروع زينب هانم الوكيل) ضريبة من غير قانون . . ثم يتهم الوزارة بالتفريط فى حقوق البلاد .

* * *

عن مذكراتى بتاريخ الثلاثاء ٧ يوليه ١٩٤٢ :

قابلت فى جريدة الأهرام الأستاذ عبد الحميد عبد الحق وزير الشئون الاجتماعية. وعند انصرافنا دعانى للركوب معه فى سيارته لأنه يريد أن يحدثنى فى أمر ما.

ولقد تحدث عن حيرته وأى موقف ينبغى له أن يتخذ بين صديقه القديم مكرم عبيد وبين زعيمه ورئيسه مصطفى النحاس؟

وأفاض طويلا فى الحديث عن صداقته القوية لمكرم عبيد وكيف أن ضميره غير مستريح، وقال إن كثيرين كانوا ينتظرون منه أن يقف بجانب مكرم عبيد باشا وأن يؤيده ضد النحاس ولكنه اختار موقف الحياد بين الاثنين.. ودلل على حياده بأنه منذ خروج مكرم من الوزارة لم يزر النحاس باشا فى داره أو فى مكتبه وأنه اعتذر عن عدم حضور جميع الحفلات التى أقامها الشيوخ والنواب للنحاس باشا وذلك لكيلا يسمع طعنا أو سِبابا فى صديقه مكرم عبيد.

... وأنه انقطع كذلك عن زيارة مكرم باشا حتى لا يسمع أى طعن أو سِباب فى مصطفى النحاس.

... وإنه منصرف الآن إلى تأدية عمله كوزير ليس إلا ولا شأن له بالخلاف وأسباب الخلاف بين النحاس ومكرم.

ثم سألنى هل أنصح له بالاستقالة من الوزارة؟

قلت: كلا.

ثم سألته: أية فائدة بل أى معنى يكون لاستقالتك؟ هل تريد أن تستقيل تضامنا مع مكرم باشا ولأنه خرج من الوزارة ومن الوفد؟.. ولكنك قبلت أن تدخل الوزارة بعد أن خرج منها مكرم عبيد.. ثم أنت دخلت الوزارة وأنت تدرك تماما خطورة الخلاف بين النحاس ومكرم وأن الانفجار لا بد أن يقع.. ومع ذلك قبلت المنصب ودخلت الوزارة، وقبولك معناه أنك كنت تنوى البقاء مع مصطفى النحاس حتى ولو خرج مكرم عبيد.. إذا استقلت اليوم فإن الناس ستقول إنك دخلت الوزارة لكى تحصل على لقب (وزير سابق) ثم تخرج منها فى أول فرصة.. وهذا

ما لا يرضاه أصدقاؤك. ونصيحتى أن تبقى فى الوزارة تؤدى ـ كما قلت ـ عملك كوزير ليس إلا . . ثم إن للنحاس باشا حقا عليك؛ فقد وثق بك واختارك وزيرا معه وأنت قبلت فلا «تخلو» به هكذا.

قال: أنت غلطان فالنحاس باشا لا يحبنى. . وهو أدخلنى الوزارة لكى يبعدنى عن مكرم.

سألته: ولماذا قبلت المنصب إذن ما دام هذا هو رأيك؟

قال بعد تردد. . وبابتسامة باهتة فيها استحياء:

ـ الحقيقة أننى لم أكن أريد دخول الوزارة ولكن بعض من يهمنى أمرهم من أقرب الناس إلىّ ألحوا علىّ بقبول المنصب لأنهم يريدون أن يرونى وزيرا.

وقال الأستاذ عبد الحميد عبد الحق إنه لا يستطيع كسب ثقة أو حب النحاس باشا، لأن النحاس باشا يحب التملق وهو ـ عبد الحميد ـ يكره أن يتملق أحدا. . ثم قال: إن صبرى أبو علم ومحمود غنام يزوران النحاس باشا دائما ويتملقانه ومن هنا استطاعا أن يكسبا ثقته وحبه.

ثم قال: إن صبرى أبو علم لا يجيد الخطابة كما يجيدها هو. . وإن فؤاد سراج الدين لا يعرف كيف يتكلم. . ومثله محمود غنام؛ أما هو ـ عبد الحميد عبد الحق ـ فإنه برلمانى متمرن كما أثبت فى مجلس النواب أيام كان زعيما للمعارضة (ما بين ١٩٣٨ و ١٩٤٢)، وإن فى إمكانه أن يعرض فى البرلمان وجهات نظر الوزارة على أفضل وجه ولكنه مضرب عن هذا إكراما لخاطر مكرم باشا. . كما أنه تغيب عمدا عن حضور جلسات البرلمان التى كان يتوقع فيها اصطداما بين النحاس ومكرم.

وأوصلنى بسيارته إلى مسكنى. وقال وأنا أغادر السيارة:

ـ فكر كمان وابقى قل لى أعمل إيه؟

ويظهر أن النحاس باشا أصبح يخاف أو يغار على رجاله من الملك فاروق؛ فقد قابلت (رفعته) اليوم فى مكتبه برياسة مجلس الوزراء لكى أشكو إليه من عنت الرقابة. . وقبل أن أدخل عليه جلس معى الأستاذ إبراهيم فرج وتحدثت إليه فى

موضوع الرقابة وكيف أن بين الأخبار التى منعت الرقابة نشرها خبرا عن (عطف جلالة الملك على وزير التجارة الأستاذ محمود غنام).

وهنا ابتسم إبراهيم فرج وقال: إن النحاس باشا نفسه هو الذى أمر بمنع نشر الخبر المذكور.

وأبديت دهشتى وسألته لماذا؟

وتردد طويلا ثم قال كلاما ملفوفا غامضا ولكنى فهمت منه أن النحاس باشا غير راض تماما عن محمود غنام وألححت على إبراهيم فرج أن يطلعنى على السبب.

وأخيرا قال إنه لما ذهب محمود غنام وقابل الملك فاروق ليرفع إليه فروض الشكر على تعيينه وكيلا لوزارة الداخلية استبقاه الملك فى حضرته ثلاثة أرباع الساعة.. وذكرت الصحف أن الأستاذ غنام كان موضع عطف المليك.

وسكت..

قلت: وماذا فى هذا؟

قال: إن مصطفى النحاس أصبح يشك فى كل شىء ويتوجس شرا من كل شىء بعد خلافه مع مكرم باشا.. وما قيل وما نشر يومئذ عن عطفه على مكرم باشا ثم ما حدث بعد ذلك وكيف كتب مكرم باشا فى الأهرام مقالا رفع فيه الملك إلى السماء.

ولهذا السبب أصبح مصطفى باشا يخاف من تأثير هذا العطف الملكى على رجاله.. وهو لا يريد أن يخسر محمود غنام كما خسر قبله مكرم عبيد.

وضحك الأستاذ إبراهيم فرج وضحكت معه.

ولكن النحاس باشا عاد بعد ذلك وعين محمود غنام وزيرا للتجارة.. لا حبا ولا ثقة فيه.. ولكن لكى يبعده عن مكرم عبيد.

تماما كما فعل مع عبد الحميد عبد الحق.

* * *

قابلت فى ميدان سليمان باشا مستر نابيير الملحق بإدارة النشر والصحافة بالسفارة البريطانية، وبعد تبادل التحية انطلق يتكلم ضد النحاس باشا وزينب هانم بنفس

اللهجة التى يتكلم بها واحد من خصوم الوفد . . وأفاض فى الحديث عن فضائح أقارب النحاس وأصهاره واستغلالهم لنفوذه فى الحصول على امتيازات وعقد صفقات ثم قال :

ـ لماذا لا يشلح الوفديون النحاس باشا من زعامة الوفد؟ ولماذا لا يعود أحمد ماهر وأصحابه إلى الوفد وينتخبون أحمد ماهر رئيسًا للوفد.

ثم قال : إنه يسلم بأن مكرم عبيد لا يستطيع أن يجمع حوله كلمة الأمة ولكن أحمد ماهر يستطيع وأن النحاس باشا أخذ يفقد نفوذه .

وسألته : هل هذا هو رأيه الشخصى أو رأى السفارة؟

ونظر إلىّ طويلا ثم هز كتفيه . . وسار فى طريقه . . وأثناء حديثه معى كانت رائحة الخمر تفوح من فمه . .

* * *

كلمت فؤاد باشا سراج الدين بالتليفون وقلت له إننى أسافر اليوم إلى رأس البر، ورجوته إذا تطور الموقف إلى أسوأ وأصبحت الحالة خطيرة حقيقة أو خِيف من تدمير المواصلات أن يكلمنى بالتليفون فى رأس البر .

ولكنه قال : لا . . بلاش الكلام فى التليفون سوف أرسل لك فى هذه الحالة تلغرافا بإمضاء جميل أقول لك فيه (احضر حالا بسبب القضية) وأنت تفهم . .

وسافرت بالسيارة إلى رأس البر .

(نقلا عن مذكراتى بتاريخ الاثنين ٢٠ يوليه) .

كنت كلمت حسنين باشا بالتليفون من رأس البر لكى أسأله عن تطورات الموقف وسألنى هو متى أعود إلى القاهرة وفهمت من لهجته أن عنده شيئا يريد أن يقوله لى وعدت أمس من رأس البر وكلمته بالتليفون صباح اليوم فدعانى لمقابلته فورا . .

وقابلته فى داره وبقيت معه نحو ساعة .

بدأ حديثه معى بالإنجليزية بسبب وجود أحد الخدم معنا فى حجرة الاستقبال فقال ما معناه إن الإنجليز قد لعبوا أوراقهم بمهارة . . وعرفوا كيف يلعبونها . .

ثم مضى يقول إنهم لم يكونوا يستطيعون أن يحصلوا من أى رئيس وزارة مهما كان ضالعا معهم على أكثر مما حصلوا عليه من مصطفى النحاس. وتبدو مهارتهم فى أنهم حصلوا من النحاس باشا على كل ما يريدون وفى نفس الوقت جعلوه يعتقد أنه هو الذى «دحلبهم» ومكر بهم وحصل منهم على ما يريد. . أو على الأقل لم يعطهم شيئا. . واستطرد حسنين يقول:

- وهكذا إذا قدر لهم أن ينتصروا على الألمان فإنهم سوف يمكنهم أن يقسموا للنحاس بالطلاق (كذا) على أنهم لم يفكروا أبدا فى القيام بأى تدمير بوادى النيل. أما إذا قدرت عليهم الهزيمة فإنهم سوف يكونون فى حل من تدمير كل ما يريدون بحجة الضرورات العسكرية وكذلك بحجة أنهم قد اتفقوا على ذلك مع رئيس الحكومة مصطفى النحاس. . أو على الأقل بحجة أنهم لم يعدوه بشىء مخالف؛ أى لم يتفقوا معه على عدم التدمير. .

ويومها سوف يقول النحاس إن الإنجليز قد خانوا كلمتهم وحنثوا بوعدهم له. . ولكن ما الفائدة؟

ثم مضى يقول:

- ولقد كان المفهوم أن دفاعهم ينتهى عند العلمين أى عند الحدود. ولكنهم استطاعوا أن «يجرجروا» النحاس إلى الحديث فى الدفاع عن الإسكندرية والقاهرة والدلتا وقناة السويس. . وهذا هو الخطر وهنا بدت مهارتهم. . ثم قال:

- ولم يفاتحوا الملك مرة أخرى فى أمر مغادرة البلاد. ولكن ما دام فى نيتهم الدفاع عن القاهرة ورفض الموافقة على إعلانها مدينة مفتوحة فإنه سوف يكفى أن تسقط قنبلة ألمانية فى ميدان عابدين أو على مقربة من قصر القبة لكى يقولوا يومئذ للملك - ومعهم حق - إن هناك خطرا على (حياته الغالية) فيجب أن يبتعد عن موطن الخطر. . أى عن القاهرة. وسوف يشتركون معه فى اختيار المكان الأمين الذى يحسن به أن يلجأ إليه.

ثم قال حسنين وهو يضحك:

ـ وفى يوم ٢ يوليه كانت العلمين على وشك السقوط فى أيدى الألمان . . بل لقد أذاع الألمان يومها أنهم اخترقوا الخطوط وأنهم يطاردون الإنجليز فى اتجاه دلتا النيل . . ويومها كاد النحاس يوشك أن يغمى عليه ولكن الله سلَّم (وعبارة يغمى عليه من عندى أنا أما العبارة المدونة فى مذكراتى والتى استعملها المرحوم حسنين باشا فى حديثه ، فإن الحياء يحول دون نشرها) .

واستمر حسنين يقول وهو لا يزال يضحك :

ـ ست ساعات فقط وكان النحاس (أغمى عليه) ولكن الله سلَّم فقد قال له الإنجليز فى المساء إن الحالة خطرة جدا ولكنه تجلد طول الليل وتماسك . . فلما أصبح قالوا له إن الحالة أقل خطورة نوعا ما . . فاطمأن ولم (يغم عليه) . . ولكنه أطلق لسانه يومها فى الإنجليز فقال إنهم كذبوا عليه وأخفوا حقيقة الحالة . . وظل لسانه ملفوتا ضدهم إلى أن عاد أمين عثمان من فلسطين وكان سافر إليها مع زوجته التى تركها هناك . . وبعودة أمين عثمان عاد نفوذ الإنجليز من جديد على رفعة النحاس باشا . . والذى عاد واطمأن واستكان إلى الإنجليز .

ثم قال حسنين إن تصرفات الإنجليز لا تبعث على الاطمئنان وإلا لو كانوا واثقين من قوة مراكزهم وخطوط دفاعهم فى العلمين فلماذا طلبوا إخلاء الإسكندرية؟ وإخلاؤها سوف يتم قريبا .

ثم قال :

ـ لقد سمعت من أحد كبار ضباطهم ، وكان صديقا وزميلا لى أيام الدراسة فى أكسفورد ، أن عندهم أوامر سرية تقضى بترحيل جميع البريطانيين المدنيين وخروجهم فورا من الإسكندرية والقاهرة متى وصل الألمان إلى نقطة معينة لم يذكرها لى طبعا صديقى الضابط المذكور .

ثم قال :

ـ وقد قابلنى هذا الضابط منذ ثلاثة أيام وقال لى (وأنا أترجم هنا عن الإنجليزية) : «راقب الموقف بدقة وإمعان أثناء العشرة أو الخمسة عشر يوما القادمة . . فقد يحدث شىء ما فجأة ويجب أن تكون مستعدا» .

ومضى حسنين يقول :

ـ إن الإنجليز تلقوا إمدادات من الطائرات ومن الأسلحة الأخرى بقدر كاف لا بأس به . . ما عدا الدبابات ، وهذا هو السبب فى عجزهم عن القيام بأى هجوم . وكان أحد ضباطهم قال لى يوم اشتداد الخطر على العلمين (فى ٢ يوليه) إنه إذا استطاع الجيش الثامن البريطانى أن يصمد أسبوعا واحدا فإنهم سوف يكرون بعد ذلك ويشنون هجوما على الألمان . . ولقد مر أسبوع وأسبوعان ودخلنا فى الأسبوع الثالث ولم يهجموا . . فما السبب إلا أنهم غير مستعدين !

* * *

وبعد . .

هذه هى الأيام الخطيرة المليئة بالأحداث والاحتمالات التى مرت بمصر فى صيف عام ١٩٤٢ ، وأحسب أننى وفيتها حقها من الوصف . . وأعطيت صورة صادقة لحالة الفوضى والذعر التى تخبطت فيها الوزارة القائمة بالحكم يومئذ .

ولقد تمت المعجزة واستطاع الجيش الثامن أن يصمد أمام الألمان خلال بقية الصيف . . ثم شن مونتجمرى هجوما فى الخريف (أكتوبر ـ نوفمبر) ، وحصل الحلفاء على أول انتصار لهم ذى قيمة فى الحرب العالمية الأخيرة .

ويومئذ ـ ولأول مرة ـ أمر ونستون تشرشل رئيس الوزارة البريطانية بأن تقرع كنائس إنجلترا واسكوتلانده أجراسها احتفالا بهذا النصر العظيم .

ويعد المؤرخون معركة العلمين نقطة التحول فى الحرب الأخيرة . . تحول النصر والحظ من الألمان إلى الإنجليز وحلفائهم الروس والأمريكان .

حرب الدعاية

انتهت الحرب فى أوروبا فى ٨ مايو ١٩٤٥ . وكنت يومئذ فى أنقرة (تركيا). وعدت إلى مصر ثم غادرتها فى يوم ٣ نوفمبر ١٩٤٦ إلى أوروبا، وزرت فرنسا وإيطاليا وسويسرا والنمسا وألمانيا، وطالت رحلتى هذه نحو تسعة شهور. وفى باريس فى شهر نوفمبر سنة ١٩٤٦ تناولت العشاء مع صديقة قديمة وهى طبيبة فرنسية من أصل برازيلى وزوجها الموسيقار وهو فرنسى الجنسية إسبانى الأصل.

وقد تناولت العشاء فى مطعم إسبانى كان افتتح حديثا فى شارع فيكتور هيجو (باريس).. واسم المطعم «إيبريا» وهو فى حجم بطاقة البريد.. وأما بار المطعم ففى حجم طابع البريد.. وفى المطعم المذكور نحو عشر موائد ليس إلا.. وفى صدره منصة مرتفعة بضعة أقدام وهى المسرح ومساحته مع المبالغة متران فى متر.

ومن هنا فإن مطعم «إيبريا» لا يتسع إلا لعدد محدود جدا من الزبائن هواة الطعام الإسبانى والرقص الإسبانى.

ومن هنا كذلك كانت أسعار الطعام فيه تبلغ ثلاثة أضعاف أمثالها فى أى مطعم آخر فى باريس وأصحاب المطعم فريق من نجوم إسبانيا فى الرقص والغناء.

وتناولنا طعامنا وكان من لحم الدجاج المخلوط بالأرز والطماطم والجبن والشطة والفلفل الأحمر وبهارات أخرى! هذا بينما كان يتوالى على المسرح ألوان من الرقص والغناء، وكان فى هذا الغناء ما يشبه إلى حد كبير أغانى الصعيد وحزنها الدفين العميق.

وقال صاحبى الموسيقار الإسبانى الأصل الفرنسى الجنسية.. قال مازحا:

ـ انظروا أيها العرب . . ماذا فعلتم بأوروبا؟ . . مشيرا إلى الرقص والغناء وكلاهما لا يزال يحمل الطابع العربى الأصيل .

قلت : ماذا فعلنا؟ لقد أعطينا إسبانيا فنا جميلا رفيعا . . عاش ولا يزال يعيش حتى اليوم بعد اثنى عشر قرنا .

قال : كذلك أثينا وروما . .

قلت : وأين هو أثر الفن الإغريقى أو فن روما؟ هل تجد لهما أثرا اليوم على مسارح لندن وباريس أو واشنجطون؟ ولكن هذا الرقص والغناء العربى الإسبانى تلقاه فى عواصم العالم ويعجب به الناس فى كل مكان . . أما فنك الإغريقى أو الرومانى فلم يبق لهما أثر إلا فى المتاحف وقاعات المحاضرات .

وجرنا الحديث إلى الغناء فى مصر . . وإلى أم كلثوم وعبد الوهاب . . وكان صديقى الموسيقار المذكور قد زار مصر أثناء الحرب مع جنود الجنرال ديجول . وكان يعمل فى أقلام المخابرات .

وقص علىّ هذه الحكاية التى سمعتها يومئذ لأول مرة . . قال ـ ومعلوماته التى يرويها هنا مستقاة كما قال من زملائه فى أقلام المخابرات البريطانية ـ قال : إنه عندما لاح شبح الحرب فى صيف عام ١٩٣٩ لاحظ رجال المخابرات البريطانية فى الشرق الأوسط أن وكلاء المحور ـ ألمانيا وإيطاليا ـ راحوا يجمعون من الأسواق فى القاهرة وتل أبيب ويافا والقدس وبيروت ودمشق وحلب . . . إلخ جميع الأسطوانات العربية وخصوصا أسطوانات عبد الوهاب وأم كلثوم .

وهنا فطن رجال المخابرات البريطانية إلى أن المحور يستعد لحرب الدعاية . . ونشطوا هم كذلك إلى شراء هذه الأسطوانات . . وكان سباقا حارا بين الفريقين .

ومضى صديقى الموسيقار الأسبانى الأصل الفرنسى الجنسية . . مضى يقول :

ـ وسر هذه الدعاية هو أن الدعاية الألمانية أو البريطانية سوف تضمن استماع البلدان العربية لها إذا هى بدأت بأغنية لعبد الوهاب ثم قال :

ـ وأقبل عام ١٩٤٢ وبدأ روميل هجومه فى يناير واستخلص مدينة بنغازى من

البريطانيين . . ثم توالت هجماته وتتابعت هزائم البريطانيين . . وسقطت طبرق . . وانطلق روميل والفيلق الإفريقى صوب دلتا النيل . . ولعلك ـ وأنت صحفى مصرى ـ أدرى منى بالإجراءات التى كانت السلطات البريطانية تنوى اتخاذها وتنفيذها فى حالة اضطرارها إلى الانسحاب من مصر إلى فلسطين والسودان ولكن هناك إجراء واحدا لم يذع سره حتى اليوم .

وسكت لحظة وهو يبتسم لكى يرى وقع كلامه فى نفسى .

قلت : إرغام الحكومة المصرية على الخروج مع البريطانيين من مصر لكى تقوم فى الخارج (حكومة مصر الحرة) .

قال : كلا . فإن البريطانيين لم يلحوا كثيرا فى هذا الشأن . . ولكن وزارة الاستعلامات البريطانية ألحت فى أمر واحد وأمرت رجالها فى مصر باتخاذ هذا التدبير مهما كان الثمن ومهما كانت العقبات .

وسكت مرة أخرى ثم قال : خروج أم كلثوم وعبد الوهاب من مصر بالرضا أو بالإكراه .

وبدت الدهشة على وجهى ثم ضحكت . . وفهم هو من ضحكى أننى أشك فى روايته فقال بلهجة كلها جد :

ـ صدقنى هى الحقيقة ما أقول . . لقد كان فى نية السلطات البريطانية إذا ما اضطرت إلى الانسحاب من مصر أن تأخذ معها ـ طوعا أو كرها ـ عبد الوهاب وأم كلثوم لأنها كانت تخشى أن تستغلهما الدعاية الألمانية إلى أبعد حدود الاستغلال . . ولقد كان يكفى أن يعلن راديو القاهرة التى يحتلها الألمان . . أن أم كلثوم ؛ أو عبد الوهاب سوف يغنى هذا المساء لكى ينصت العالم العربى كله إلى إذاعة راديو القاهرة الذى يسيطر عليه الألمان . وهذا هو الخطر فى حرب الدعاية .

قلت : ولكن من كان يضمن أن أم كلثوم وعبد الوهاب سوف يوافقان على الغناء؟

ابتسم صديقى الفرنسى وقال :

ـ محال أن تكون جادا فى سؤالك هذا . . وإلا فأنت لا تعرف النازيين . . لقد كان أمرا ممكنا جدا أن يجلس عبد الوهاب وأمامه ميكرفون الإذاعة . . ووراءه يقف جندى ألمانى (ينخزه) بطرف السونكى إذا توقف عن الغناء ! !

* * *

ومن فرنسا ذهبت إلى إيطاليا وزرت ميلانو وفلورانسا وروما . . ولم يكن من السهل أن أحمل القوم فى إيطاليا على أن يتحدثوا إلى ـ الصحفى المصرى ـ بصراحة عما كان سيحدث لمصر لو نجحت جيوش المحور فى دخول مصر فى صيف ١٩٤٢ .

ولكن كان من السهل أن يتحدثوا بمنتهى الصراحة وبكثير من مرارة خيبة الأمل عن سير الحرب وتطورها لو كان غزو مصر قد نجح وتمكنت جيوش المحور من اختراق استحكامات العلمين فى يوليه أو فى سبتمبر ١٩٤٢ . وكان روميل قد قام بهجومه الأول فى أول يوليه . . ثم شن هجومه الثانى والأخير فى شهر سبتمبر . . وبعدها فقد القائد الألمانى عامل المبادأة . . إلى أن فاجأه القائد البريطانى مونتجمرى بالهجوم بعد شهر واحد . . أى فى أكتوبر من نفس العام .

قال القوم فى روما لو أن روميل كان نجح فى الوصول إلى الإسكندرية ودلتا النيل والقاهرة لكانت الحرب قد انتهت بانتصار دول المحور بعد عام واحد ؛ أى فى عام ١٩٤٣ ذلك أنه كان مقررا طبقا للخطة العامة التى وضعتها أركان الحرب المشتركة من الإيطاليين والألمان أن ينفصل قسم من الجيوش المحورية ويذهب جنوبا إلى صعيد مصر والسودان والحبشة . ويسترد إريتريا والصومال . . . إلخ وهدفه الأخير الوصول إلى جنوب أفريقيا وتطهير (القارة السوداء) أى أفريقيا ـ من البريطانيين وإنشاء قواعد للغواصات الألمانية والإيطالية فى موانى أفريقيا الجنوبية والشرقية . . والعمل على قطع طريق بحار الجنوب ـ أى طريق رأس الرجاء الصالح ـ إلى الهند وإستراليا . . وهذا طبعا بعد أن يكون طريق قنال السويس قد أقفل هو أيضا فى وجه الأسطول البريطانى .

ومعنى هذا خنق مواصلات بريطانيا مع إستراليا والشرق الأقصى والهند وبورما اللتين كانتا يومئذ تحت التاج البريطانى .

كانت هذه مهمة الجيش الذى ينفصل عن جسم جيوش المحور الرئيسية . . وبقيت مهمة الجيش الرئيسى . . كانت مهمة هذا الجيش أولا القضاء على مقاومة البريطانيين فى دلتا النيل . . وكانوا يقدرون صعوبة هذه المهمة بسبب اضطرارهم للهجوم أثناء فيضان النيل وتعدد قنوات شبك الرى فى الدلتا واستفادة الإنجليز منها فى دفاعهم و(تعويق) زحف المحور . . ولكنهم كانوا واثقين من طرد البريطانيين تماما من الدلتا وقناة السويس مع حلول الخريف .

وبعدها كانت مهمة هذا الجيش الرئيسى أن ينطلق عبر قناة السويس إلى فلسطين التى ـ كما يؤكدون ـ كانت ستسقط فى لمحة عين ومن بعدها سوريا ولبنان والعراق .

وكان المحور يعتمد إلى حد كبير على «صداقة العرب» وعلى انتفاضهم وقيامهم بثورات فى مؤخرة البريطانيين . . تعرقل حركاتهم وتعوق انسحابهم .

ولا أريد أن أسهب هنا فى وصف خطة المحور ولا فى الإحاطة بتطورات الحرب وسيرها لو كان روميل قد نجح فى غزو مصر . .

وأكتفى بأن أذكر فى عبارات وجيزة بعض التطورات الحاسمة فى سير الحرب التى كان مقدرا أن تقع :

١ ـ الوصول إلى إيران وقطع خط إمداد وتموين روسيا بالذخائر والمهمات وهو الخط الذى أنشأه الأمريكيون والبريطانيون من خليج العجم إلى القوقاز .

٢ ـ انضمام تركيا إلى ألمانيا وإيطاليا ضد الحلفاء . وهذا أمر كان مقطوعا به ؛ فقد أبدت تركيا منذ اليوم الأول للحرب . أبدت صداقتها لألمانيا . . وراحت تنتظر «الوقت المناسب» لكى تدخل الحرب إلى جانب ألمانيا . . وقد فسر فون بابن سفير ألمانيا يومئذ فى أنقرة عبارة «الوقت المناسب» هذه فى أحد تقاريره السرية فقال : إن الأتراك لا يزالون ـ حتى عام ١٩٤٢ ـ غير واثقين من انتصار ألمانيا . وإنهم يفضلون أن يتريثوا قبل أن ينحازوا إلى جانبها خوفا من سوء المصير ومن أن يصيبهم ما أصابهم فى الحرب السابقة (بعد هزيمة ألمانيا فى عام ١٩١٨) . . ولكن نجاح جيوش المحور فى دخول مصر وطرد البريطانيين منها ومن فلسطين

وسوريا ولبنان والعراق . . ثم الوصول إلى إيران . . كل هذا كان كفيلا بإقناع الأتراك بأن «الوقت المناسب» قد حان . . وكان دخول تركيا الحرب بعد قطع خط تموين روسيا من الجنوب كفيلا بقلب ميزان المعركة فى الجبهة الشرقية ضد روسيا . . ولقد كانت الجيوش الروسية تعانى يومئذ من الشدائد فى القوقاز . . وفى محاصرة ستالينجراد وموسكو ولننجراد .

٣ ـ القيام بحركة كماشة من الجنوب الشرقى والغرب ضد الجيوش الحمراء . . إلى آخره .

لهذا لم يكن كثيرا أن يؤمل المحور فى النصر النهائى ووضع حد للحرب فى عام ١٩٤٣ .

* * *

كان موسولينى يطمع فى دخول الإسكندرية والقاهرة فى موكب يرد التاريخ القهقرى إلى عصر أمجاد روما ومواكب قوادها الغزاة وعودتهم من ميادين القتال معقودة حول رءوسهم أكاليل الغار .

وهنا عكف «الدوتشى» على وضع نظام وترتيب (موكب النصر) الذى سوف يسير على رأسه . . فى شوارع الإسكندرية والقاهرة .

وأصدر أوامره أن يرسل جواده الأصيل الأبيض اللون إلى بنى غازى . ومنها إلى العلمين . . لكى يمتطيه الدوتشى فى اليوم الموعود . ووقفت طيارة حربية خاصة على قدم الاستعداد فى مطار روما لكى تحمل موسولينى ـ عند الساعة المرتقبة ـ إلى أبواب الإسكندرية . . حيث ينتظره موكب النصر وجواده الأبيض الأصيل .

حتى قائمة الطعام . . الذى سيقدم فى المأدبة الكبرى أعدها الدوتشى بنفسه .

وكان فى نيته أن يقيم مأدبة عشاء وحفلة ساهرة فى الإسكندرية . . ومأدبة أخرى وحفلة ساهرة فى القاهرة .

وقد تم الاتفاق بينه وبين السلطات الألمانية على أن يكون فندق مينا هاوس هو مقر القيادة الإيطالية فى القاهرة .

وكـانت قـائمـة الطـعـام الـذى سيـقـدم فى مـينا هاوس فى أول يوم يصل فـيـه موسولينى وقواده الغزاة كما يلى :

حساء سمك النيل .

دجاج الفيوم .

حمل مشوى على الطريقة البدوية .

حلوى ألف ليلة .

فاكهة الموسم (بطيخ وعنب ومانجو) .

قهوة شرقية .

وإلى هذا الحد كانت الآمال كبيرة والثقة فى النصر لا ريب فيها .

النهايـة

وأنتقل الآن إلى الفصل الأخير من حياة أحمد محمد حسنين . .

كان حسنين باشا يعد حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ لطمة أصابته بالذات . . لطمة لكرامته ولسياسته . . ولطمة لواجبه نحو العرش ونحو مصر .

وأقسم حسنين يومها على أن يثأر لنفسه وللبلاد من رجلين عَدَّهما مسئولين عن هذه اللطمة وهما مايلز لامبسون سفير بريطانيا ومصطفى النحاس رئيس الوفد ورئيس الوزراء . . ولقد حاول حسنين باشا فى عام ١٩٤٣ أن يقيل مصطفى النحاس ووزارته ولكن الإنجليز لم يمكنوه . . فقد بادر يومئذ السفير البريطانى فى مصر وأنذر فاروق أن الحكومة البريطانية تعلنه أن لا تغيير فى الوزارة No change وفى الأوضاع القائمة فعلا .

وكانت حجة الإنجليز يومئذ أنهم وحلفاءهم قادمون على فتح جبهة جديدة فى جنوب أوروبا ـ أو بطن أوروبا السفلى ـ حسب تعبير ونستون تشرشل .

جبهة جديدة ينفذون منها إلى قلعة هتلر فى وسط أوروبا . . ومن هنا فإنهم ـ أى الإنجليز ـ لا يسمحون بأى تغيير فى مصر مخافة وقوع رد فعل أو قلقلة خلف خطوطهم . . أى فى مصر .

* * *

واستكان حسنين وتظاهر بالرضا والتسليم . .

ولكنه لم يسكت . . بل أقام يراقب سير الحوادث ويتحين الفرص .

وانتهت معركة أفريقيا باندحار الجيوش الألمانية وأسر مئات الألوف منها فى تونس والجزائر ومراكش . . ولا أدخل فى التفاصيل .

ونقل الحلفاء - بريطانيا وأمريكا - جيوشهم من أفريقيا إلى جزيرة صقلية . . ومن هذه إلى إيطاليا .

واستسلمت إيطاليا فى سبتمبر من نفس العام ١٩٤٣ . وفى يونيه ١٩٤٤ أنزل الحلفاء جنودهم فى نورماندى بشمال فرنسا .

وبدأ تحرير القارة . . ودك قلعة هتلر من الجنوب والشرق والغرب . ودخل الحلفاء باريس فى أغسطس .

وكانت الجيوش الروسية قد حررت دول البلطيق وجزءا من بولنده وزحفت نحو النمسا إلى آخره إلى آخره .

وكما قلت ليس فى نيتى أن أدخل فى التفاصيل . ولكن . . . بدا يومئذ واضحا كل الوضوح أن نصر الحلفاء أمر مؤكد . . . وأن الحرب قد دخلت فى دورها الأخير . . وأن الحلفاء يمسكون بزمام الموقف . . وأن البريطانيين لم يعد أمامهم - أو وراءهم فى مصر - ما يخشون منه على سير الحرب .

وانتهز حسنين الفرصة وواتاه الحظ أن مايلز لامبسون سافر فى إجازة قصيرة إلى جنوب أفريقيا .

وضرب حسنين ضربته المفاجئة وكانت مسرحية مثيرة . . ومن فصولها :

تعليمات سرية إلى الدكتور أحمد ماهر بألا يغادر داره فى يوم الأحد ٨ أكتوبر بل يبقى فيها ينتظر رسالة من (جلالة) الملك فاروق ، وأوامر سرية إلى حكمدار بوليس القاهرة ومدير إدارة الأمن العام بأن تكون قوات الأمن على استعداد لحفظ النظام وقمع أية حركة تقوم للإخلال بالأمن والنظام !

وكانت هذه الأوامر السرية صادرة مباشرة من السراى لأن السراى كانت مصدر جميع السلطات .

جرى كل هذا والوزراء ورئيسهم - وكانوا فى رمل الإسكندرية - لا يعرفون

شيئا . . وثلاثة أو أربعة فقط من الصحفيين من خصوم الوفد هم الذين كانوا على علم بما يعده ويدبره أحمد محمد حسنين رئيس الديوان .

* * *

وفى صباح يوم الأحد ٨ أكتوبر ١٩٤٤ استقل حسن بك يوسف وكيل الديوان الملكى قطار الصباح من الإسكندرية إلى القاهرة . . ودخل عربة البولمان فوجد أمامه محرم باشا وزير الأشغال فابتسم وحيّاه ولكنه جلس إلى مائدة بعيدة عن المائدة التى كان يجلس إليها وزير الأشغال .

ولعله ـ حسن بك يوسف ـ خشى أن يقرأ عثمان محرم باشا شيئا ما فى وجهه . . شيئا ما يكشف سر سفره فى الصباح الباكر إلى القاهرة . . ذلك أن وكيل الديوان كان يحمل فى جيبه أمرا ملكيا صادرا إلى الدكتور أحمد ماهر بتشكيل الوزارة .

وأمرا ملكيا آخر إلى مصطفى النحاس بإقالة الوزارة . . ووصل حسن يوسف إلى القاهرة وأنهى مهمته فيها ثم عاد بالسيارة إلى الإسكندرية .

وفى الساعة الخامسة بعد ظهر نفس اليوم الأحد ٨ أكتوبر . . وحسب التعليمات والأوامر . . وطبقا للخطة المسرحية التى وضعها حسنين باشا .

غادر الدكتور أحمد ماهر داره . . إلى دار رياسة مجلس الوزراء وصعد توّا إلى غرفة رئيس الوزراء وأمر السعاة والحجاب أن يفتحوا أمامه الأبواب . . وأعلنهم أنه رئيس الوزارة الجديدة .

وفى نفس اللحظة ـ وطبقا للأوامر والتعليمات ـ فتح المعتقل أبوابه وخرج منه مكرم عبيد .

خرج من المعتقل وذهب مباشرة إلى وزارة المالية التى عُين وزيرا لها فى الوزارة الجديدة .

وفى نفس الساعة ـ الساعة الخامسة ـ كان حسن يوسف يصعد إلى الطابق الثانى بفندق سيسل بالإسكندرية حيث كان يقيم مصطفى النحاس . . ويسلم رفعته خطاب الإقالة . وكان أمين عثمان قد أقبل على فندق سيسل لزيارة مصطفى النحاس . . فقيل له إن الوزارة أقيلت وكانت فى يده سلسلة ذهبية يعبث بها ويلفها

على أصابعه ثم يعود ويفردها . . وتوقف فى طريقه وسقطت السلسلة من يده . . ولكنه خرج وأرسل برقية إلى أحمد حسنين يقول له فيها ـ باللغة الإنجليزية ـ «أهنئك لقد ربحت الجولة الأخيرة» .

ذلك لأنها كانت حربا أو مباراة بين الرجلين . . رجل الإنجليز . . أمين عثمان ، ورجل القصر . . أحمد حسنين .

وكانت المباراة حول مصطفى النحاس هل يبقى رئيسا للوزارة كما يريد الإنجليز . . أم يخرج كما يريد القصر ؟ وقد انتصر رجل القصر أحمد حسنين .

* * *

وأمشى سريعا بين الحوادث . . إلى أن أصل إلى عام ١٩٤٦ وكانت الوزارة البريطانية يومئذ من حزب العمال . وكان وزير الخارجية أرنست بيفن .

وعرف حسنين كيف يوجه صديقه عبد الفتاح عمرو سفير مصر فى لندن إلى استغلال صداقته مع مستر بيفن . . وكان أن استدعت وزارة الخارجية البريطانية سفيرها مايلز لامبسون من مصر .

وهكذا بر حسنين بوعده أو بقسمه وثأر لنفسه من الرجلين . . مايلز لامبسون ومصطفى النحاس .

ثم لقى منيته بعد ذلك بأسبوعين اثنين . وكان موته ـ رحمه الله ـ مفاجأة مثيرة كما كانت حياته سلسلة من المفاجآت المثيرة .

* * *

وكان أمضى سهرة يوم الأحد ١٧ فبراير ١٩٤٦ فى مسكنى مع بعض الأصدقاء ومنهم أم كلثوم . . وغنت أم كلثوم سلوا قلبى . وحمل حسنين مقعدا صغيرا جلس فيه بين يدى أم كلثوم وكان ينصت لها بكل جوارحه . وامتدت السهرة حتى مطلع الفجر يوم الاثنين . . وشيعته إلى باب المصعد وكانت هذه آخر مرة أراه فيها .

وفى يوم الثلاثاء ١٩ فبراير كان حسنين مدعوا لتناول الغذاء عند أسرة صديقة فى المطرية . . ولكن تراكم الأعمال أبقاه فى مكتبه بقصر عابدين إلى الساعة الثالثة بعد

الظهر . . ورأى ـ رحمه الله ـ أنه تأخر كثيرا عن الموعد فاعتذر لأصحاب الدعوة بالتليفون .

واستقل سيارته عائدا إلى داره بالدقى . . وكانت السماء تمطر . . وبينما كانت سيارته تجتاز كوبرى قصر النيل فى طريقها إلى الدقى أقبلت سيارة لورى بريطانية من الجهة المضادة . . وانزلقت عجلات السيارة البريطانية بفعل المطر . . ولفت اللورى نصف لفة على الكوبرى وصدمت سيارة حسنين من الخلف صدمة شديدة .

وسمع سائق السيارة صوت حسنين باشا خلفه وهو يقول : «يا ساتر . . يا ساتر يا رب . . » .

والتفت السائق خلفه فرأى الدم يسيل من فم حسنين باشا . . وأوقف السائق السيارة . ونزل منها يصيح ويطلب المساعدة . . ومرت مصادفة فى نفس اللحظة سيارة وزير الزراعة أحمد عبد الغفار باشا صديق حسنين وزميله أيام الدراسة فى أوكسفورد .

وأسرع أحمد عبد الغفار وحمل صديقه إلى مستشفى الأنجلو أمريكان القريب من مكان الحادث .

ولكن حسنين كان أسلم الروح . . فنقلوه إلى داره .

* * *

وطار الخبر إلى القصر . . وأسرع فاروق ـ وكان يرتدى بيجامة وفوقها (روب دى شامبر) وفى قدميه شبشب ـ أسرع بملابسه هذه واستقل إحدى سياراته إلى دار حسنين فى الدقى .

ووقف فاروق لحظة أمام جثمان حسنين . . رائده وأستاذه ومربيه ثم رئيس ديوانه .

ثم قال : «مسكين يا حسنين» وسأل بعدها عن مفاتيح مكتب حسنين . . وتناولها ودخل غرفة المكتب وأغلق وراءه الباب . . وكان فاروق يبحث عن أية مذكرات يكون حسنين قد كتبها . . وعن عقد زواجه بأمه الملكة نازلى . . وعن أية أوراق هامة أخرى قد يكون تركها وراءه .

* * *

وبعد وفاة حسنين بأسبوعين أو ثلاثة أسابيع ذهب فاروق يزور أمه نازلى فى قصرها الذى ورثته عن أبيها فى الدقى . . ودخل عليها فى قاعة القصر الكبرى . . وتسمرت قدماه عند الباب .

فقد رأى أمامه فى صدر القاعة صورة لأحمد محمد حسنين بالحجم الطبيعى وقد جللت بالسواد . .

وأمام الصورة ـ وعلى الأرض ـ جلست أمه «الملكة» نازلى وحولها سيدات حاشيتها وخادمات القصر وجميعهن متشحات بالسواد .

وعلى جانبى القاعة الكبيرة جلس نحو عشرين شيخا يتلون الأوراد ويدعون بالرحمة للراحل الكريم .

توقف فاروق لحظة عند باب القاعة . . وقد عقدت الدهشة لسانه . ثم مشى إلى حيث كانت أمه وقال لها وهو يشير بيده إلى الصورة وإلى السيدات والمشايخ . .

قال : إيه ده كله؟! وعلشان إيه ده كله! مات . . خلاص مات . . فلزوم ده إيه؟!

وانتفضت نازلى واقفة على قدميها وانفجرت فى ابنها تصيح :

ـ ده؟ ده اللى عملك راجل . . ده اللى حافظ لك على عرشك . . بكرة راح تشوف يجرى لك إيه . . بعد موت حسنين . . إلى آخره . . إلى آخره .

وهز فاروق كتفيه ساخرا وانصرف .

* * *

وإن هى إلا أسابيع معدودة حتى غادرت نازلى مصر إلى أوروبا للعلاج والراحة كما زعمت . .

ولكنها غادرت مصر وفى نيتها ألا تعود . . وكان منها ما يذكره القراء . . وكان كذلك ما كان من فاروق . . وكيف استهتر إلى أبعد حدود الاستهتار وطغى وبغى . . ثم كانت الثورة التى طوحت به وحطمت عرشه .

ولعله تذكر يومئذ وهو يوقع وثيقة تنازله عن العرش قول أمه : «بكرة تشوف راح يجرى لك إيه بعد موت حسنين» .

من أسرار الساسة والسياسة

لعل صفحات هذا الكتاب صور من أحوال التوهج الاجتماعى للأستاذ «التابعى»، وفى نفس الوقت شهادة على التكاليف الباهظة لذلك التوهج، ومع أن موضوع هذا الكتاب ملامح من القصة الحقيقية للملك «فاروق»، ومأساته التى جعلت منه كما قلت وكررت دائما من ضحايا التاريخ، قبل أن يكون من مذنبيه فإن نفس الصفحات تظهر لمحات من حياة «محمد التابعى»، وكذلك أيضا مأساته، وهى تكشف دون قصد عقدة معروفة ومرصودة فى قصة صعود الصحافة إلى استحقاق الإمارة، وما هو أكثر بأوصاف مثل «صاحبة الجلالة»!

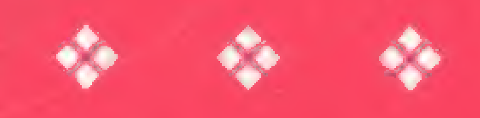
....

....

لكن المشكلة فى الصحافة العربية أن الأستاذ «محمد التابعى» كان ظاهرة مستجدة على العلاقة بين الصحفى والأمير ولذلك كان احتمال الخلط واردا.

فقد كتب التابعى عن الملك «فاروق»، وعن الملكة «نازلى»، وعن «أحمد حسنين»، وعن غيرهم من موقع المعايشة، وفى بعض المشاهد فإنه هو نفسه كان جزءًا من الصورة.

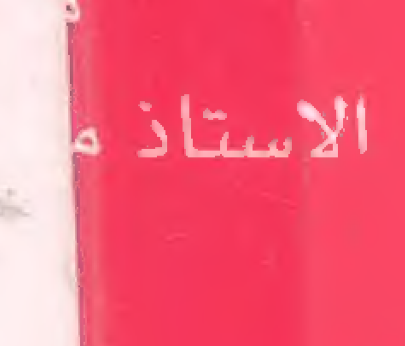
وكان المأزق فى تجربة «التابعى» أنه وهو يعايش الأمراء، تصور أن يجارى الأمراء بظن أنه ليس أقل منهم، ولم يكن بالفعل أقل منهم، بل لعله كان أفضل فهو أمير بالقيمة، والآخرون - ودون تعميم - أمراء بالألقاب، لكن التعامل مع هذا الوضع يقتضى حدودا واضحة، وانضباطا لا تساهل فيه، ومراعاة للحدود بين المظهر والجوهر.



وأخيرا فلعل حياة «التابعى» نفسها قصة تستحق أن تُروى بالتفاصيل فى كتا...
وهى قصة أخاذة مشوقة فى فصولها ووقائعها ومشاهدها.

إضافة إلى ذلك فلعلها قصة مليئة بالدروس المهنية والتاريخية والإنسا...

الاستاذ م... كل





6 221102 021951

دار الشروق
www.shorouk.com